الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز
سلسلة الجوائز ٤٢

رواية

دوريس ليسنج

العشب يغني

ترجمة: سحر توفيق

دوريس ليسنج

- كاتبة إنجليزية ولدت فى إيران ٢٢ أكتوبر ١٩١٩. حيث كان والدها يعمل ضابطا فى الجيش البريطانى. واتخذت لقبها "ليسنج" من زوجها الثانى.
- لم تكمل دراستها النظامية وعكفت منذ سن مبكرة على دراسة الأدب منذ القرن التاسع عشر.
- تميزت أعمالها الأدبية بالنضال ضد المظالم والاستعمار والتمييز العنصرى وبالتأييد لحقوق المرأة.
- لفتت إليها الأنظار بقوة عند صدور روايتها الأولى "العشب يغنى" عام ١٩٥٠ ثم توالت أعمالها ومع صدور روايتها "المفكرة الذهبية" تحولت "دوريس ليسنج" إلى أيقونة للحركات النسائية على الرغم من أنها لم تنضم يوماً إلى إحداها.
- من أهم أعمالها "الإرهابية الطيبة"، "تحت جلدى"، "الشق"، "ماراودان"، "تعليمات الهبوط إلى الجحيم"، "الطفل الخامس"، "بن يجوب العالم".

حصلت على العديد من الجوائز منها جائزة الدولة النمساوية للأدب الأوروبى. وجائزة أمير آستورياس فى الأدب. وجائزة لوس أنجلوس تايمز للكتاب. وحصلت على لقب وصيفة شرف من الجمعية الملكية للآداب. ونالت شهادة فخرية من جامعة هارفارد. وذلك قبل أن تتوج مسيرتها الإبداعية بالحصول على جائزة نوبل فى الآداب لعام ٢٠٠٧.

الجائزة: جائزة نوبل فى الآداب

أكبر جائزة فى العالم. وأعلى مرتبة من جميع التقديرات. تمنح فى فروعها المختلفة كل عام فى العاشر من ديسمبر. وهو تاريخ وفاة صاحبها الصناعى السويدى ومخترع الديناميت "ألفريد نوبل" الذى أسسها عام ١٨٩٥. كدعوة لتحقيق السلام فى العالم.

ومنذ عام ١٩٠١ أصبح العالم كله ينتظر توزيع الجائزة على الأدباء والعلماء ودعاة السلام. الذين يقومون بإنجازات أدبية وعلمية وخدمات اجتماعية نبيلة تهدف إلى رقى الإنسانية وتطورها.

وجائزة نوبل فى الآداب هى أرفع جائزة أدبية فى العالم. وهى تمنح لقمم الإبداع فى فروعه المختلفة: رواية.. شعر.. مسرح. وأول من حصل عليها من العالم العربى الكاتب المصرى "نجيب محفوظ" عام ١٩٨٨.

العشب يغني

رواية

دوريس ليسنج

ترجمة: سحر توفيق

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٩

ليسنج، دوريس.

العشب يغنى/ رواية دوريس ليسنج؛ ترجمة: سحر توفيق.- القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩

٢٥٦ ص ؛ ٢٢ سم.

تدمك ٣ ٧٨٩ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - القصص الإنجليزية.

أ - توفيق، سحر (مترجم)

ب - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٨٣٥/ ٢٠٠٩

I.S.B.N- 978 - 977 - 420 - 789 - 3

ديوى ٨٢٣

- الكتاب: العشب يغنى The Grass is singing
- تأليف" دوريس ليسنج Doris Lessing.
- ترجمة: سحر توفيق.
- يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلفة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- الطبعة الأولى ٢٠٠٩.
- طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

«سلسلة الجوائز»

مازال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام الكبرى، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى قناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعًا موازيًا يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على جودته لجان

متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

د. ناصر الأنصارى

إلى

السيدة جلاديس ماسدورب

من روديسيا الجنوبية

التى أحمل لها عظيم الحب والإعجاب

فى هذه الحفرة المتحللة بين الجبال

تحت ضوء القمر الشاحب، يغنى العشب

فوق ركام القبور، حول المصلى الصغير

ذلك المصلى الخالى، لا يأوى إلا الرياح

ليست له نوافذ، والباب يتأرجح

لا يمكن للعظام العارية أن تؤذى أحداً

وليس ثمة إلا ديك وقف فوق السقف

يصيح: كوكو ريكو.... كوكو ريكو...

فى ومضة من البرق، ثم تعصف عصفة ندية

تجلب المطر

غاص نهر الجانجا، وأوراق الجذع

انتظرت المطر، بينما السحب الرمادية

تجمعت بعيداً، فوق هيمافانت

الغابة تجثم رابضة، منحنية فى صمت

ثم تكلم الرعد

ت. س. إليوت، من: الأرض الخراب

مع شكرى وامتنانى للمؤلف وللسادة
Faber&Faber

"إن ما يعطينا القدرة على تقييم نواحى الضعف فى الحضارة هو كل ما عجزت عن أدائه وما فشلت فى التكيف معه"

كاتب مجهول

- ١ -

جريمة قتل غامضة

من مراسل خاص

وجدت مارى تيرنر، زوجة ريتشارد تيرنر، مزارع من نجسى، مقتولة فى الشرفة الأمامية لمسكنهما صباح أمس. واعترف خادم المنزل، الذى تم القبض عليه، بارتكاب الجريمة. ولم يكتشف الدافع.

ومن المعتقد أنه كان يبحث عن أشياء قيمة ليسرقها.

لم تقل الصحيفة الكثير. لابد أن الناس فى كل مكان من البلاد قد ألقوا نظرة سريعة على تلك الفقرة بعنوانها المثير، وشعروا ببعض الغضب الممتزج بشىء من الرضا، كما لو أن اعتقادًا ما قد تم توكيده، كما لو كان شىء حدث، إلا أنه كان متوقعًا. هذا هو الإحساس الذى يشعر به السكان البيض عندما يسرق أبناء البلد الأصليون، أو يقتلون، أو يغتصبون.

ثم قلبوا الصفحة إلى شىء آخر.

لكن أهالى "المنطقة"، الذين كانوا يعرفون آل تيرنر، سواء عن طريق الرؤية، أو من النميمة التى كانت تدور حولهما منذ سنوات كثيرة، لم يقلبوا الصفحة بهذه السرعة. ولابد أن الكثيرين قصوا الخبر، ووضعوه بين رسائلهم القديمة، أو بين صفحات كتاب، واحتفظوا به ربما كنوع من الفأل أو النذير، وهم يختلسون النظر إلى قطعة الورق المصفرة بوجوه منقبضة كتومة. فهم لم يناقشوا الجريمة، وهذا هو أغرب ما فى الموضوع. كان الأمر وكأنهم كانت لديهم حاسة سادسة تخبرهم بكل ما يمكن معرفته، رغم أن الأشخاص الثلاثة الذين فى وضعية تمكنهم من شرح الحقائق لم يقولوا شيئًا. ببساطة، لم يتناول أحد الجريمة بالمناقشة. قد يعلق شخص ما "أمر سيئ"؛ وسوف تكتسى وجوه الناس حوله بتلك النظرة الحريصة الحذرة. وتأتى الإجابة "أمر سيئ للغاية"، وكان هذا هو كل شىء. وبدا وكأن هناك اتفاقًا ضمنيًا أن قضية تيرنر لن تحظى بالدعاية التى تستحقها عن طريق النميمة. لكنها كانت منطقة زراعية، حيث لا تلتقى تلك العائلات البيضاء المعزولة مع بعضها البعض إلا من حين لآخر، متلهفين على الاتصال بجنسهم، والكلام والمناقشة والشد والجذب، يتحدث الجميع فى وقت واحد، محاولين الاستفادة بأقصى ما يستطيعون من هذا الوقت أو تلك الرفقة قبل العودة إلى مزارعهم؛ حيث لا يرون إلا وجوههم هم ووجوه خدمهم السوداء لأسابيع. وفى الأحوال العادية، فإن

مثل تلك الجريمة لابد أن تظل موضع نقاش مستمر لشهور؛ وكان يمكن أن يكون الناس شاكرين لوجود شيء يمكن تبادل الحديث حوله.

بالنسبة لأجنبى عنهم، قد يبدو وكأن شخصية حيوية مثل تشارلى سلاتر قد انتقل من مزرعة إلى أخرى فى المنطقة ليطلب من الناس الالتزام بالسكون؛ لكن هذا ما كان يمكن أبدًا أن يخطر بباله. فالخطوات التى اتخذها (ولم يرتكب خطأ واحدًا) من الواضح أنها اتخذت بدافع غريزى ودون تخطيط واعٍ. وأهم شيء فيما يختص بالفضيحة كلها، هو تلك الموافقة الصامتة غير الواعية. تصرف الجميع وكأنهم سرب من الطيور التى تتصل ببعضها - أو هكذا يبدو - عن طريق نوع من التخاطر.

قبل أن يتعرض الزوجان تيرنر لهذه الجريمة بوقت طويل، كان الناس يتحدثون عنهما بأصوات لامبالية خالية من المودة، من النوع الذى يختزن للاستعمال فى الحديث عن الخارجين، أو المجرمين، أو المعزولين، الذين نفوا أنفسهم عن المجتمع. كان الزوجان تيرنر مكروهين، رغم أن من التقوا بهما من جيرانهم، أو حتى من رأوهم عن بعد، قليلون جدًا. فما الذى كان يدعو إلى كراهيتهما؟ إنهما ببساطة "منغلقان على نفسيهما"، كان هذا كل شيء. لم يكونا أبدًا يشاهدان فى حفلات الرقص فى المنطقة، أو المهرجانات، أو الحفلات الرياضية. كان الشعور السائد أنه لابد أن لديهما ما يشعران بالخجل منه. لم يكن من الصواب أن يعزلا نفسيهما بهذه الطريقة، كان

تصرفهما هذا صفعة فى وجه الآخرين جميعًا؛ فما الذى كان لديهما ليجعلهما شديدى المقاومة للانخراط فى المجتمع هكذا؟ ماذا، حقًا! يجعلهما يعيشان بهذه الطريقة! فى ذلك الصندوق الصغير، الذى يدعوانه بيتًا. كان من الممكن أن يكون مغفورًا لهما كمسكن مؤقت، ولكن ليس أن يعيشا فيه دائمًا. لماذا؟ إن بعض أبناء البلد كانت لديهم بيوت بهذه الجودة (رغم أنهم ليسوا كثيرين، شكرًا لله)؛ وسوف يعطيهم انطباعًا سيئًا أن يروا إنسانًا أبيض يعيش بهذه الطريقة.

ثم استخدم شخص ما عبارة "البيض المساكين". وسببت هذه العبارة انزعاجًا. لم يكن هناك فروق مالية هائلة فى تلك الأيام (كان ذلك قبل عصر بارونات التبغ)، ولكن من المؤكد أنه كان ثمة تفرقة عنصرية. فالجالية الصغيرة من الأفريكانيين كانت لهم حياتهم الخاصة، والبريطانيون كانوا يتجاهلونهم. و"البيض المساكين" هم الأفريكانيون، وليس البريطانيون أبدًا. لكن الشخص الذى قال إن عائلة تيرنر كانوا "بيض مساكين" تمسك بعبارته بجرأة. وما الفارق؟ ما هو الأبيض المسكين؟ إنها الطريقة التى يعيش بها الناس، مسألة مستويات. كل ما يحتاجه آل تيرنر هو قطيع من الأطفال ليجعل منهما "بِيضًا مساكين".

ورغم أن الحجة كانت لا تدحض، فما كان الناس يستطيعون التفكير فيهم باعتبارهم بيضًا مساكين.

ففعل ذلك معناه ترك السور ينهار. فقد كان الزوجان تيرنر من البريطانيين، رغم كل شىء.

وهكذا كانت المنطقة تعامل عائلة تيرنر، بما يتفق مع "روح التضامن"، وهى القاعدة الأولى لمجتمع جنوب إفريقيا، لكن الزوجين تيرنر كانا يتجاهلانها. من الواضح أنهما لم يكونا يعترفان بالحاجة لروح التضامن، وهذا هو السبب الحقيقى فى أنهما كانا مكروهين.

كلما ازداد المرء تأملاً فى الأمر، كلما بدت الحالة أكثر غرابة. ليست الجريمة نفسها؛ وإنما رأى الناس فيها وما شعروا به تجاهها، الطريقة التى كانوا يشفقون بها على ديك تيرنر بسخط صافٍ وعنيف تجاه مارى، وكأنها كانت شيئًا غير سار وغير نظيف، وكانت تستحق القتل. لكنهم لم يسألوا عن شىء.

وعلى سبيل المثال، لابد أنهم تساءلوا من هو "المراسل الخاص". شخص ما فى المنطقة أرسل الأخبار، فالفقرة لم تكن بلغة الصحيفة. ولكن من؟ مارستون، المساعد، ترك المنطقة فورًا بعد الجريمة. السيرجنت دنهام، كان يمكن أن يكتب إلى الصحيفة بصفته الوظيفية، لكنه احتمال ضعيف. لم يبق إلا تشارلى سلاتر، الذى كان يعرف عن عائلة تيرنر أكثر من أى شخص آخر، وكان موجودًا فى يوم الجريمة. ويمكن أن نقول إنه عمليًا كان مهيمنًا على طريقة تداول القضية، حتى أنه كان يأخذ أسبقية على

السيرجنت نفسه. وشعر الناس أن الهدوء تصرف صحيح ولائق. فمن يهمه الأمر، لو لم يكن الفلاحون البيض، أن تسببت امرأة سخيفة فى أن تقتل على يد أحد أبناء البلد لأسباب يمكن أن يتوقعها الناس، ولكن لم يشيروا أبدًا إليها؟ لقد كان الأمر يتعلق بأسباب الحياة الخاصة بهم، بزوجاتهم وعائلاتهم، بأسلوبهم فى الحياة، كل هذا كان على المحك.

ولكن، بالنسبة لمن هو من الخارج، كان من الغريب أن يسمح لسلاتر بتولى أمر الفضيحة، وبأن يرتب مرور الأمر بحيث لا يثير أى تعليق ولو كان ضئيلاً.

فليس من المحتمل أن الأمر كان مخططًا له: فلم يكن هناك وقت بكل بساطة. فعلى سبيل المثال، عندما جاء خدم مزرعة ديك تيرنر إليه بالأخبار، لماذا جلس يكتب مذكرة إلى السيرجنت فى معسكر الشرطة؟ إنه حتى لم يستخدم التليفون.

كل من عاش فى البلد يعرف ما هو التليفون الفرعى. ترفع سماعة الاستقبال بعد أن تدير المقبض بعدد المرات المطلوب، وبعد ذلك، كليك، كليك.. كليك، يمكن أن تسمع المستقبلات من كل المنطقة، وضوضاء ناعمة مثل التنفس، أشبه بالهمس، أشبه بسعال مكتوم.

كان سلاتر يعيش على بعد خمسة أميال من آل تيرنر. وعندما اكتشف خدم المزرعة الجثة، جاءوا إليه أولاً. ورغم أن ذلك كان أمرًا عاجلاً، فقد تجاهل

التليفون، وأرسل رسالة شخصية مع حامل من أبناء البلد على دراجة إلى دنهام فى معسكر الشرطة، على بعد اثنى عشر ميلاً. وفى الحال، أرسل السيرجنت ستة من رجال الشرطة من أبناء البلد إلى مزرعة تيرنر، ليعاينوا الموقع. واستقل سيارته أولاً لرؤية سلاتر، لأن الطريقة التى كتبت بها الرسالة أثارت فضوله. وكان هذا هو السبب فى وصوله متأخرًا إلى مسرح الجريمة. ولم يكن على رجال الشرطة الزنوج أن يبحثوا بعيدًا عن القاتل، فبعد أن دخلوا البيت، ومشاهدة الجثة سريعًا، والانتشار أمام التل الصغير الذى كان البيت مقامًا فوقه، رأوا موسى نفسه يخرج أمامهم من أحد تلال النمل المنهارة. سار إليهم وقال (أو ما معناه): "هأنذا". وضعوا الأصفاد فى يديه، وعادوا إلى البيت فى انتظار قدوم سيارات الشرطة. وهناك رأوا ديك تيرنر يخرج من بين الأدغال المجاورة للبيت مع كلبين يعويان فى أعقابه. كان فى حالة هذيان، يتحدث مع نفسه بجنون، ويسير على غير هدى داخلا وخارجا من الأدغال ويداه مليئتان بأوراق الأشجار والتراب. تركوه فى حاله، بينما ظلت أعينهم عليه، فهو رجل أبيض، حتى لو كان مجنونًا، والرجال السود، حتى عندما يكونون من الشرطة، لا يضعون أيديهم على لحم أبيض.

لقد تساءل الناس بالفعل، على عجل، لماذا سلم القاتل نفسه. لم تكن هناك فرصة كبيرة للهروب. لكنه كانت لديه فرصة سانحة. كان يمكن أن يجرى إلى التلال ويختبئ لفترة. أو كان يمكن أن يتسلل عبر

الحدود إلى منطقة برتغالية. ثم إن مأمور المنطقة، والذى كان من أبناء البلد، فى إحدى حفلات الغروب، قال إن الأمر كان مفهومًا تمامًا. لو أن أحدًا كان يعرف أى شىء عن تاريخ البلاد، أو قرأ أيًّا من المذكرات أو الرسائل التى كتبها مبعوثو الإرساليات والمستكشفون القدامى، فقد يعثر الإنسان على روايات عن المجتمع تحت حكم لوبنجولا. كانت القوانين صارمة: كل واحد يعرف ماذا يمكنه أن يفعل وما يحظر عليه فعله. وإذا ارتكب شخص أمرًا لا يمكن التسامح معه، مثل لمس إحدى نساء الملك، فسوف يسلم نفسه للعقاب ببساطة وإيمان بما قدر عليه. وهذا العقاب قد يكون وضعه على خازوق فوق كومة من أكوام النمل، أو شىء بغيض بنفس القدر. سوف يقول: "لقد أتيت خطأ، وأعرف ذلك، ولهذا دعونى أنال عقابى". حسنًا، كانت التقاليد هى مواجهة العقاب، والحق أنه كان ثمة شىء طيب فى هذا. كانت الملاحظات من هذا النوع عندما يقولها مأمور من أبناء البلد الأصليين تقابل بالتسامح. فالمأمور ينبغى أن يدرس اللغات، والعادات، وما إلى ذلك؛ رغم أنه ليس من المتسامح معه أن تقول إن الأشياء التى يفعلها أبناء البلد لا بأس بها (لكن العادة تتغير؛ فمن المسموح به تمجيد العادات القديمة أحيانًا، بشرط أن يقول الشخص كم أصبح أبناء البلد فاسدين ومنحرفين منذ ذلك العهد).

ومن ثم فإن هذا الجانب من الفضيحة تم تجاهله، لكنه ليس أقل أهمية، لأن موسى قد لا يكون

ماتابلى على الإطلاق. لقد كان فى ماشونالاند؛ رغم أن أبناء البلد بالطبع يتجولون فى كل مكان من إفريقيا. وقد يكون قادمًا من أى مكان: منطقة برتغالية، أو نياسالاند، أو اتحاد جنوب إفريقيا. وقد مر وقت طويل منذ أيام الملك العظيم لوبنجولا. ولكن أولئك المآمير من أبناء البلد يميلون للتفكير فى الماضى.

حسنًا، بعد أن أرسل الرسالة إلى معسكر الشرطة، ذهب تشارلى سلاتر إلى بيت آل تيرنر، يقود بسرعة هائلة على طرق المزارع السيئة فى سيارته الأمريكية البدينة.

من هو تشارلى سلاتر؟ إنه هو الذى ـ منذ بداية المأساة حتى نهايتها ـ يجسد المجتمع بالنسبة لآل تيرنر. إنه يلمس القصة فى نصف دستة من النقاط؛ بدونه ما كانت الأمور لتحدث بنفس الطريقة التى حدثت بها، رغم أنه إن آجلاً أو عاجلاً، بطريقة أو بأخرى، كان لابد أن يصل الزوجان تيرنر إلى نهاية مأسوية.

كان سلاتر مساعد بقال فى لندن. كان مغرمًا بأن يقول لأطفاله إنه إن لم يكن يتحلى بالطاقة وحب المغامرة، لكانوا لا يزالون يدورون فى حى الفقراء فى الأسمال البالية. كان لا يزال يتحدث باللهجة الشعبية اللندنية، حتى بعد عشرين عامًا فى إفريقيا. وخرج بفكرة واحدة: أن يكسب ثروة. وقد استطاع أن يفعل هذا. وربح الكثير. كان فجًا، قاسيًا، لا يرحم، ومع

ذلك فقد كان طيب القلب، بطريقته الخاصة، ووفقًا لنبضه الخاص، والذى لم يستطع إلا أن يربح النقود. كان يزرع كأنه كان يدير مقبض ماكينة سوف تخرج أوراقًا نقدية من الناحية الأخرى. وكان شديدًا على زوجته، جعلها تتحمل مصاعب لا ضرورة لها فى البداية؛ كان شديدًا على أبنائه، حتى استطاع أن يكوم ثروة، وحتى يحصلوا على كل ما يريدون؛ وفوق كل شىء كان شديدًا على عمال مزرعته. فهم الإوزات التى تضع بيضًا من الذهب، والذين كانوا لا يزالون فى تلك الحالة التى لا يعرفون أن هناك أساليب أخرى للحياة غير مجرد إنتاج الذهب لأناس آخرين. لكنهم يعرفون الآن أفضل، أو بدءوا يعرفون. لكن سلاتر كان يعتقد فى الزراعة بالكرباج. كان الكرباج معلقًا فوق بابه الأمامى، مثل شعار على الجدار: "إنك لا تعبأ بالقتل لو كان ضروريًا". وقد قتل أحد أبناء البلد ذات مرة فى نوبة من الغضب. وتم تغريمه ثلاثين جنيهًا. ومنذ تلك الحادثة أصبح يتحكم فى أعصابه. ولكن الكرباج كان جيدًا جدًا بالنسبة لعائلة سلاتر؛ وليس جيدًا بنفس القدر بالنسبة لمن هم أقل ثقة بأنفسهم. فهو الذى كان قد أخبر ديك تيرنر، منذ زمن طويل، عندما بدأ ديك العمل فى مزرعته، أنه ينبغى أن يشترى كرباجًا قبل أن يشترى المحراث أو الجرافة، ولكن الكرباج لم يكن مفيدًا لآل تيرنر، كما سوف نرى.

كان سلاتر يميل إلى القصر، ربعة، قوى البنية، له كتفان ثقيلتان وذراعان سميكتان. وكان وجهه عريضًا وخشنًا: داهية، يقظًا، ويبدو ماكرًا إلى حد ما. كانت

لديه قصة من الشعر الأشقر تجعله يبدو كأحد المجرمين؛ لكنه لم يكن يهتم بالمظاهر. وكانت عيناه الزرقاوان الصغيرتان لا تكادان تظهران بسبب الطريقة التى يزرّهما بها، بعد سنوات وسنوات من شمس جنوب إفريقيا الساطعة.

كان منحنيًا على عجلة القيادة، يكاد يحتضنها فى إصراره على الوصول إلى بيت آل تيرنر بسرعة، عيناه كانتا شقين زرقاوين فى وجه صارم. كان يتعجب لماذا لم يأت مارستون، المساعد، والذى كان موظفًا لديه على أى حال، لماذا لم يأت إليه بأخبار الجريمة، أو لماذا لم يرسل مذكرة على الأقل. أين هو؟ الكوخ الذى يعيش فيه لا يبعد أكثر من مائتى ياردة من البيت نفسه. ربما انتابه شعور بالجبن وهرب؟ فكر تشارلى أن كل شىء ممكن، من هذا النوع من الشباب الإنجليزى. كان لديه شعور عميق بالازدراء لأولئك الإنجليز ذوى الوجوه الناعمة والأصوات الرقيقة، ولكن مع إعجاب طاغ بسلوكياتهم وتربيتهم. كان ولداه، والآن هما كبيران، من هذا النوع من الجنتلمان. وقد أنفق الكثير من النقود ليجعلهما هكذا؛ لكنه كان يزدريهما لذلك. وفى الوقت نفسه كان فخورًا بهما. هذا التناقض كان يظهر فى موقفه من مارستون: فهو قاس نوعًا ومعتدل نوعًا، خبيث نوعًا ومراعٍ نوعًا. أما فى هذه اللحظة فهو لا يشعر إلا بالتوتر الشديد.

فى وسط الطريق شعر بأن السيارة تتأرجح وتلعن، أوقفها. كان هناك ثقب، لا، ثقبان. كان الوحل الأحمر على الطريق يحتوى شظايا زجاج مكسور.

وعبر توتره عن نفسه فى فكرة نصف واعية، "هذا هو تيرنر، لابد أن يكون طريقه مليئًا بالزجاج". لكن تيرنر الآن كان بالضرورة محل تعاطف، وشفقة كبيرة، وهنا تركز التوتر على مارستون، المساعد الذى شعر سلاتر أنه كان ينبغى بشكل ما أن يمنع هذه الجريمة. فعلى أى شىء يأخذ راتبه؟ ماذا كان يشغله؟ لكن سلاتر كان رجلاً عادلاً بطريقته الخاصة، وحيثما كان الأمر يختص بجنسه. كبح جماح نفسه، وانهمك فى إصلاح أحد الثقبين وتغيير إطار. يعمل فى تلك الطرقات الموحلة الحمراء. أخذ الأمر منه ثلاثة أرباع الساعة، وعندما انتهى، وجمع قطع الزجاج الأخضر من الوحل وألقى بها فى الأدغال، كان العرق يملأ وجهه وشعره.

عندما وصل إلى البيت أخيرًا، رأى وهو يقترب من خلال الأدغال ست دراجات لامعة تميل على الجدران. وأمام البيت، تحت الأشجار وقف ستة من رجال الشرطة الزنوج، وبينهم موسى البلدى، يداه مربوطتان أمامه. كانت الشمس تسطع على الأصفاد، وعلى الدراجات، وعلى أكوام أوراق الأشجار الندية. كان صباحًا ممطرًا، شديد الحرارة والرطوبة. كانت السماء تضطرب فيها سحب خالية من اللون: بدت مليئة بسحب قذرة منتفخة. وكانت البرك الصغيرة فى التربة الشاحبة تعكس لمعان السماء.

سار تشارلى إلى رجال الشرطة، الذين ألقوا إليه بالتحية. كانوا يضعون الطرابيش، ويرتدون زيهم، الذى يميل إلى البهرجة. لم تخطر هذه الفكرة لتشارلى،

الذى كان يحب من يخدمونه من أبناء البلد أن يكونوا شيئًا من اثنين: إما يرتدون ثيابًا لائقة مناسبة لموقع كل منهم، أو يرتدون المآزر الإفريقية الخاصة بأبناء البلد. لم يكن يتحمل مشهد أحد أبناء البلد مرتديًا ثيابًا نصف مدنية. وكان رجال الشرطة، الذين يختارون بناء على بنيتهم الجسمانية، مجموعة من الرجال ذوى بنية جيدة، ولكن وجود موسى جعلهم فى الظل، حيث كان عظيم القوة، أسود مثل مشمع الأرضية الملمع، ويرتدى فانلة تحتية وبنطلونًا قصيرًا، وكانت ثيابه رطبة وموحلة. وقف تشارلى أمام القاتل مباشرة، ونظر إلى وجهه. فبادله الرجل التحديق بنظرات محايدة، خالية من التعبير. كان وجه سلاتر نفسه فضوليًا: يظهر نوعًا من الانتصار، من الحقد المحترس، والخوف. لماذا الخوف؟ من موسى، الذى كان فى حكم المشنوق بالفعل؟ لكنه كان قلقًا، مضطربًا. ثم بدا أنه يهز نفسه ليعود إلى التحكم فى مشاعره، والتفت ورأى ديك تيرنر، يقف على بعد خطوات قليلة، مغطى بالطين.

قال، بصرامة وحزم: "تيرنر!". وتوقف، ناظرًا إلى وجه الرجل. بدا ديك وكأنه لا يعرفه. أمسكه تشارلى من ذراعه وسحبه نحو سيارته. لم يكن يعرف أنه قد أصبح مجنونًا تمامًا فى تلك اللحظة؛ وإلا لكان أكثر غضبًا مما هو بالفعل. وبعد أن وضع ديك فى المقعد الخلفى لسيارته، ذهب إلى البيت. كان مارستون واقفًا فى الغرفة الأمامية، يداه فى جيوبه، فى وضع بدا هادئًا بشكل غريب. لكن وجهه كان شاحبًا وممتقعًا.

سأل تشارلى فى الحال، بصوت يحمل رنة اتهام: "أين كنت؟"

قال الشاب بهدوء: "فى العادة يوقظنى مستر ثيرنر. لكنى استيقظت متأخرًا هذا الصباح. عندما جئت إلى البيت وجدت مسز تيرنر فى الشرفة. ثم جاء رجال الشرطة. كنت أتوقع وصولك". لكنه كان خائفًا: وكان الخوف من الموت هو الذى يرن فى صوته، وليس الخوف، الذى كان يحكم تصرفات تشارلى: لم يعش طويلاً بما يكفى فى هذه البلاد ليفهم هذا النوع الخاص من الخوف الذى يشعر به تشارلى.

زمجر تشارلى: لم يكن يتكلم أبدًا إلا للضرورة. نظر إلى مارستون نظرة طويلة وفضولية، وكأنه يحاول أن يكتشف لماذا لم يقم أهالى المزرعة من أبناء البلد باستدعاء رجل يرقد نائمًا على بعد ياردات قليلة، وإنما أرسلوا له بشكل غريزى. لكن نظرته إلى مارستون الآن لم تكن تحمل الكراهية أو الازدراء، بل كانت أقرب إلى نظرة رجل ينظر إلى شريك مستقبلى ما زال عليه أن يثبت جدارته.

التفت ودخل إلى غرفة النوم. كانت مارى تيرنر قالبًا متخشبًا تحت ملاءة بيضاء قذرة، ناتئ من أحد طرفيها كتلة من الشعر الأشبه بالقش، وفى الطرف الآخر قدم صفراء متجعدة. والآن حدث شىء غريب، فالكراهية والاحتقار اللذان يمكن أن يتوقع المرء ظهورهما على وجهه عندما نظر إلى القاتل، كانا

يظهران على ملامحه الآن وهو يحدق فى مارى. انعقد حاجباه، وللحظات قليلة تكومت شفتاه إلى الوراء على أسنانه فى نظرة شريرة. كان ظهره إلى مارستون، الذى كان من الممكن أن يدهش لرؤيته هكذا. ثم، بحركة جافة غاضبة، التفت تشارلى تاركًا الغرفة، ودافعًا الشاب أمامه.

قال مارستون: "كانت راقدة فى الشرفة، فرفعتها على الفراش". وارتجف عند تذكر شعوره بملمس الجسد البارد. "ظننت أنها لا ينبغى أن تترك راقدة هناك". وتردد، ثم أضاف، وعضلات وجهه تتقلص بشدة: "كان الكلبان يلعقانها".

أومأ تشارلى برأسه، وهو يلقى إليه بنظرة حادة. وبدا غير مهتم بأين ينبغى أن ترقد. وفى الوقت نفسه فقد أعجب بقدرة المساعد على التحكم فى نفسه للقيام بتلك المهمة البغيضة.

"كان هناك دم فى كل مكان... فقمت بتنظيفه... وفكرت فيما بعد أننى كان ينبغى أن أتركه للشرطة".

قال تشارلى شاردًا: "لا فرق هناك". جلس على أحد المقاعد الخشبية الخشنة فى الغرفة الأمامية، وظل غارقًا فى أفكاره، يصفر برقة من خلال أسنانه الأمامية. ووقف مارستون إلى جوار النافذة، منتظرًا وصول سيارة الشرطة. ومن حين لآخر كان تشارلى يجول بنظره فى الغرفة بحذر، وهو يبلل شفتيه بلسانه. ثم يعود إلى صفيره الناعم. ونال ذلك من أعصاب الشاب.

وأخيرًا، قال تشارلى، بحذر، وبنوع من التحذير: "ماذا تعرف 'أنت' عن ذلك؟"

لاحظ مارستون التوكيد على "أنت"، وتساءل فى نفسه، تُرى ماذا يعرف سلاتر. لقد كان متحكمًا فى نفسه جيدًا، ولكنه كان مشدودًا كسلك كهربى. قال: "لا أعرف. لا شىء حقًا. كل شىء كان صعبًا جدًا...". وتردد، ونظر إلى تشارلى مناشدًا.

هذه النظرة من المناشدة الناعمة جعلت تشارلى يشعر بشىء من التوتر، إذ تأتى من رجل، لكنها سرته أيضًا: كان مسرورًا؛ لأن الشاب أذعن له. كان يعرف هذا النوع جيدًا. كثيرون منهم كانوا يأتون من إنجلترا ليتعلموا الزراعة. وهم فى العادة خريجو المدارس العامة، شديدو الاعتداد بجنسيتهم الإنجليزية، ولكن قدرتهم على التكيف مرتفعة جدًا. ومن وجهة نظر تشارلى، كانت القدرة على التكيف تحررهم. كان من الغريب أن ترى السرعة، التى يعتادون بها على الحياة هنا. فى البداية يكونون غير واثقين من أنفسهم، رغم اعتدادهم وانسحابهم، وبحذر يتعلمون الأساليب الجديدة، بحساسية جيدة، ووعى قوى بالذات.

عندما يقول المستوطنون القدامى "على الإنسان أن يفهم البلاد"، فإن ما يعنونه هو "عليك أن تتعود على آرائنا وأفكارنا حول أبناء البلد". وهم يعنون: "تعلم أفكارنا، وإلا فاخرج: إننا لا نريدك". معظم هؤلاء الشباب تربوا بأفكار فجة حول المساواة.

ويشعرون بالصدمة، فى أول أسبوع أو نحوه، تجاه الطريقة التى يُعامل بها أبناء البلد. ويثورون مائة مرة فى اليوم بسبب الطريقة اللامبالية - التى يستخدمها الناس وهم يتحدثون عنهم، وكأنهم عدد كبير من الماشية؛ أو بسبب لعنة، أو نظرة. كانوا قد أعدوا أنفسهم للتعامل معهم كبشر. لكنهم لا يستطيعون الوقوف ضد المجتمع، الذى جاءوا للالتحاق به. ولا يأخذ الأمر منهم وقتًا طويلاً ليتغيروا. كان من الصعب، بالطبع، أن يصبح الإنسان سيئًا. ولكن لا يمر وقت طويل حتى يتوقفوا عن التفكير فى أن الأمر "سيئ". وعلى أية حال، ما قيمة أفكار المرء؟ أفكار مجردة عن اللياقة وحسن النية، هذا كل شىء: مجرد أفكار مجردة. وعندما تأتى لحظة الاصطدام بالواقع العملى، يجد المرء أنه ليست له أية علاقة بأبناء البلد، إلا علاقة السيد والخادم. لا يعرفهم المرء أبدًا فى حياتهم الخاصة، كبشر. وبعد مرور أشهر قليلة، يخشوشن هؤلاء الشباب الحساسون المهذبون ليصبحوا قادرين على تحمل هذا البلد القاحل الصعب المنقوع فى الشمس، الذى أتوا إليه؛ وتنمو لديهم سلوكيات جديدة تناسب أعضاءهم التى غلظت وحرقتها الشمس، وأجسادهم التى أصبحت أكثر متانة وقدرة على الاحتمال.

ولو كان تونى مارستون قد قضى بضعة أشهر أخرى فى البلاد، لكان الأمر سهلاً. هكذا كان يشعر تشارلى. ولهذا نظر إلى الشاب بنظرة تأملية عابسة، لم تكن نظرة إدانة، وإنما فقط نظرة حذرة ومحترسة.

قال: "ماذا تعنى بأن كل شىء كان صعبًا؟"

بدا على تونى مارستون عدم الارتياح، وكأنه لم يكن يعرف ما يدور داخل عقله نفسه. والحق أنه لم يكن يعرف: فالأسابيع التى قضاها فى بيت تيرنر بما يتسم به من جو مأسوى لم تساعده فى جعل ذهنه صافيًا. فقد كانت المعايير المختلفة ـ مجموعة المعايير التى جاء بها معه، ومجموعة المعايير الأخرى التى كان يحاول التكيف عليها ـ كانتا لا تزالان مجموعتين متناقضتين. وكان ثمة خشونة، ورنة تحذيرية فى صوت تشارلى، جعلته فى حالة تساؤل ودهشة. ما الذى يتم تحذيره منه؟ كان ذكيًّا بما يكفى ليعرف أن لهجة تشارلى تحمل تحذيرًا. وفى ذلك كان على عكس تشارلى، الذى كان يتصرف بالغريزة، ولم يكن يعلم أن صوته كان يحمل رنة تهديد. كل شىء كان غريبًا وغير معتاد. أين الشرطة؟ أى حق لتشارلى، الذى كان جارًا، يجعلهم يطلبون حضوره قبله، هو الذى كان عمليًّا عضوًا من أعضاء البيت؟ لماذا كان تشارلى يأخذ القيادة بهدوء؟

لقد اضطربت مقاييس الصواب والخطأ لديه. كان فى حالة تشوش، لكن كانت لديه أفكاره الخاصة عن الجريمة، والتى لا يمكن أن يدلى بها مباشرة، بهذه الطريقة، بالأبيض والأسود. عندما كان يفكر فى الجريمة، كان يجدها منطقية بما يكفى: فإذا ألقى نظرة على الأيام القليلة الماضية، يستطيع أن يرى أن شيئًا كهذا كان محتمل الحدوث، لقد كان يمكن أن

يقول تقريبًا إنه كان يتوقعه، نوع ما من العنف أو القبح. الغضب، العنف، الموت، كلها بدت طبيعية فى هذا البلد الواسع الصعب... لقد فكر كثيرًا منذ الصباح وهو يتجول فى البيت على غير هدى، متسائلاً فى نفسه لماذا كان كل شخص متأخرًا هكذا، التأخر فى العثور على مارى تيرنر راقدة مقتولة فى الشرفة، والشرطة من أبناء البلد فى الخارج، يحرسون الخادم: وديك تيرنر يغمغم ويتعثر فى برك الطين الصغيرة، مجنونًا، ولكن واضح أنه لا أذى منه. أشياء لم يكن يفهمها، وفهمها الآن، وكان مستعدًا للحديث حولها. لكنه كان لا يفهم شيئًا بالنسبة لموقف تشارلى. هناك شىء هنا لم يستطع أن يفقه كنهه.

قال: "الأمر إننى عندما وصلت لم أكن أعلم الكثير عن البلاد".

قال تشارلى، برنة فكهة ولكن مع سخرية لاذعة: "شكرًا على هذه المعلومة". ثم قال: "هل لديك أية فكرة لماذا قتل هذا الزنجى مسز تيرنر؟"

"حسنًا، لدى فكرة عن الأمر، نعم".

"الأفضل أن نترك الأمر للسيرجنت، عندما يأتى إذًا".

كان ازدراء، لقد أخرسه. أمسك تونى لسانه، غاضبًا ولكن متحير.

وعندما جاء السيرجنت، ذهب ليلقى نظرة على القاتل، ولمح ديك من خلال نافذة سيارة سلاتر، ثم دخل إلى البيت.

قال: "لقد ذهبت إلى بيتك يا سلاتر"، وهو يومئ برأسه لتونى، ملقيًا إليه بنظرة حادة. عندما دخل غرفة النوم. وكانت ردود أفعاله مثلما كانت ردود أفعال تشارلى: شعور بالحقد تجاه القاتل، شفقة عطوفة على ديك، أما بالنسبة لمارى، فنوع من الغضب المرير والمفعم بالازدراء: كان السيرجنت دنهام فى البلاد منذ عدة سنوات. وفى هذه المرة، رأى تونى التعبير على الوجه، وقد كان صدمة بالنسبة له. شعر بقلق وتوتر عندما رأى وجهى الرجلين وهما يقفان أمام الجسد يحدقان فيه، بل شعر بنوع من الخوف. فهو نفسه شعر ببعض الغثيان، ولكن ليس كثيرًا؛ كانت الشفقة أساسًا هى التى تحركه، مع معرفته لما يعرفه. كان الغثيان الذى يمكن أن يشعر به أمام أى فوضى اجتماعية، ليس أكثر من النفور الناتج عن الفشل فى التخيل. وأدهشه هذا الرعب الغريزى العميق.

ذهب الثلاثة صامتين إلى غرفة المعيشة. وقف تشارلى سلاتر والسيرجنت دنهام جنبًا إلى جنب كما لو كانا قاضيين، كما لو كانا يقفان هذه الوقفة عن عمد. وأمامهما وقف تونى. وقف ثابتًا، لكنه شعر بنوع من الإحساس العبثى بالذنب يتملكه، لا لشىء إلا بسبب وقفتهما هذه، بهذه الطريقة، ينظران إليه

بوجهين خبيثين متحفظين لا يستطيع أن يفهم ما وراءهما.

قال سيرجنت دنهام باختصار: "عمل شرير".

لم يجب أحد. فتح دفترًا، وضبط أستك فوق إحدى الصفحات، وأمسك بقلم.

وقال: "بضعة أسئلة، إن لم يكن لديك مانع". أومأ تونى برأسه.

"منذ متى أنت هنا؟"

"حوالى ثلاثة أسابيع".

"تعيش فى هذا البيت؟"

"لا، فى كوخ على الممر".

"هل كان المفروض أن تقوم بإدارة هذا المكان وهما غائبان؟"

"نعم، لمدة ستة أشهر".

"وبعد ذلك؟"

"بعد ذلك كنت أنوى العمل فى مزرعة للتبغ".

"متى عرفت هذا الموضوع؟"

"لم ينادونى. لقد استيقظت، ووجدت مسز تيرنر".

كان صوت تونى يظهر أنه الآن كان فى موقف المدافع. شعر بجرح، بل بإهانة لأن أحدًا لم يستدعه: وفوق كل شىء أن هذين الرجلين بدا أنهما يفكران أنه

من الصواب والطبيعى أن يتم تجاوزه بهذه الطريقة، وكأن كونه جديدًا على البلاد يجعله غير كفء لأى نوع من المسئولية. كما كره الطريقة التى كان يستجوب بها. لم يكن لديهم حق فى فعل ذلك. وكان قد بدأ يمتلئ بالغضب، رغم أنه يعرف تمامًا أن الرجلين لم يكونا على وعى بما فى سلوكهما من شكل سيادى، وأنه سيكون من الأفضل له أن يحاول فهم المعنى الحقيقى لهذا المشهد، بدلاً من أن يتوقف على شعوره بكرامته.

"هل كنت تتناول وجباتك مع آل تيرنر؟"

"نعم".

"وفى غير ذلك، هل كنت دائمًا هنا - اجتماعيًا، إذا جاز التعبير؟"

"لا، على الإطلاق. كنت مشغولاً بتعلم مقتضيات الوظيفة".

"هل كنت على وئام مع تيرنر؟"

"نعم، أظن ذلك. أعنى، هو لم يكن من السهل أن تعرفه. كان مستغرقًا فى عمله. وكان من الواضح أنه تعس جدًا لتركه المكان".

"نعم، المسكين، لقد عانى بشدة منه". كان الصوت فجأة رقيقًا، بل يكاد يكون جياشًا، مليئًا بالشفقة، رغم أن السيرجنت نطق بالكلمات بسرعة، ثم أطبق فمه تمامًا، وكأنما ليظهر وجهًا شجاعًا. شعر تونى

بالارتباك: إن ردود الأفعال المفاجئة لهذين الرجلين تكاد تخرجه عن صوابه. لم يكن يشعر بشىء مما يشعران به: كان شخص من الخارج فى هذه المأساة، رغم أن كلاً من السيرجنت وتشارلى سلاتر بدا أنهما يشعران بأنهما متورطان شخصيًا، لأنهما اتخذا دون وعى موقف من أهدرت كرامته، وظهرا منحنيين تحت أعباء لا يمكن النطق بها، بسبب ديك تيرنر المسكين ومعاناته.

ومع ذلك، فقد كان تشارلى هو الذى حول ديك بعيدًا عن مزرعته؛ وفى لقاءات سابقة، كان فيها تونى حاضرًا، لم يظهر عليه شىء من تلك الشفقة العاطفية.

كانت هناك وقفة طويلة. أغلق السيرجنت دفتره. لكنه لم يكن قد انتهى. كان ينظر إلى تونى بحذر، محاولاً البحث عن صياغة يضع السؤال التالى فى إطارها. أو أن هذا هو ما بدا لتونى، الذى كان يمكنه رؤية أنه حانت لحظة الحديث عن النقطة الحاسمة فى الموضوع كله. كان وجه تشارلى يظهر ذلك، بما يحمله من نظرة حذرة، ماكرة بعض الشىء، وخائفة إلى حد ما.

"هل رأيت أى شىء غير عادى وأنت هنا؟" سأل السيرجنت، بطريقة بدت عرضية، غير مقصودة.

غمغم تونى: "نعم، رأيت". وقد قرر فجأة ألا يستسلم للإرهاب، فقد عرف أنهما يحاولان إرهابه.

رغم الفجوة المكونة من الخبرة والاعتقاد والتى تقطعه عن التواصل معهما. نظرا إليه، مقطبين، وتبادلا نظرة سريعة، ثم نظر كل منهما بعيدًا، وكأنما خشيا أن يعترفا بالتآمر.

"ماذا رأيت؟ أتمنى أن تكون على دراية بمدى بشاعة هذه القضية؟" وبدا هذا السؤال نوعًا من المناشدة المفعمة بالحقد.

قال تونى بجفاء: "أى جريمة قتل هى بالتأكيد بشعة".

"عندما تقضى فى البلاد وقتًا كافيًا، سوف تفهم أننا نكره أن يقوم الزنوج بقتل النساء البيضاوات".

التصقت عبارة "عندما تقضى فى البلاد وقتًا كافيًا" بحلق تونى. لقد سمعها كثيرًا، أكثر من اللازم، وأصبحت تدوى فى أذنه إلى درجة مؤلمة. وفى الوقت نفسه، جعلته يشعر بالغضب. وبأنه غر قليل الخبرة. كان يود لو أدلى فورًا وبدون تفكير بالحقيقة، فى عبارة قاطعة لا جدال فيها؛ ولكن الحقيقة لم تكن هكذا. لم تكن هكذا أبدًا. الواقع الذى يعرفه، أو الذى استنتجه، حول مارى، الحقيقة التى يتآمر هذان الرجلان على تجاهلها، يمكن أن تقال بكل سهولة. لكن الشىء المهم، الشىء الذى له أهمية حقًا، كما بدا له، هو أن يفهم الخلفية، الظروف، شخصية كل من ديك ومارى، نموذج حياتهما. ولم يكن هذا سهلاً. لقد وصل إلى الحقيقة بشكل غير مباشر: ولابد من شرحها

بشكل غير مباشر. وكان ما يشعر به فى الأساس هو نوع من الشفقة الموضوعية على مارى وديك وابن البلد، شفقة كانت أيضًا غضبًا ضد الظروف، وجعلت من الصعب له أن يعرف أين يبدأ.

قال: "انظر، سأقول لك ما أعرفه منذ البداية. إلا إننى أخشى أن ذلك سوف يأخذ بعض الوقت..."

"أتريد أن تقول إنك تعرف لماذا قتلت مسز تيرنر؟" جاء السؤال كضربة دفاعية سريعة قاسية.

"لا، ليس هذا بالضبط. لكنى أستطيع أن أكون نظرية". كان اختيار الكلمات غير موفق على الإطلاق.

"إننا لا نريد نظريات. نريد حقائق. وعلى أية حال ينبغى أن تتذكر ديك تيرنر. هذا كله أمر بشع بالنسبة له. ينبغى أن تتذكره أيها البائس المسكين".

ها هو مرة أخرى: المناشدة الخالية من أى منطق، والتى بالنسبة لهذين الرجلين لم تكن غير منطقية بالمرة. كان الأمر كله منافيًا للعقل! وبدأ تونى يفقد أعصابه.

سأله، ببعض الغضب: "هل تريد أن تسمع ما عندى أم لا؟"

"هيا، قل. تذكر فقط أننى لا أريد أن أسمع تخيلاتك. أريد أن أسمع حقائق. هل رأيت أى شىء محدد يلقى ضوءًا على هذه الجريمة؟ مثلاً، هل رأيت هذا الصبى يحاول الوصول إلى مجوهراتها، أو شىء

من هـذا القـبـيل؟ أى شـىء مـحـدد وواضح. لا تـقل لـى أشياء فى الهواء".

ضحك تونى. ونظر الرجلان إليه بحدة.

"إنك تـعلم جـيـدًا، كـمـا أعـلم، أن هــذه القـضـيـة ليست شيئًا يمكن شرحه مباشرة بهذه الطريقة. أنت تـعلم هـذا. إنهـا لـيست شـيـئًـا يمـكن قـوله بـالأبـيض والأسود، مباشرة".

كان طريقًا مسدودًا تمامًا. ساد الصمت. وكأنما لم يسمع السيرجنت دنهام هذه الكلمات الأخيرة، ران على وجهه عبوس ثقيل، وأخيرًا قال: "مثلاً، كيف كانت مسز تيرنر تعامل هذا الخادم؟ هل كانت تعامل خدمها جيدًا؟"

تونى، الـغـاضـب، والـذى يـتـلمس أن يمـسـك بشـىء فـى هـذه الـفـوضـى من الـعـواطف والـولاءات المبـهـمـة، قبض على هذا كبداية.

"نـعـم، كـانت تـعـامـلـه معـاملـة سيئـة، فـى اعـتـقـادى. رغم أنها من ناحية أخرى..."

"كـانت تـضـايقه بـاستمـرار، هـه؟ آه، حـسـنًـا، الـنسـاء فى هـذه الـبـلاد غـالـبًـا سيئات جـدًا من هـذه الـنـاحـيـة. أليس كـذلك، يـا سـلاتـر؟" كـان الـصـوت سـهـلاً، حـمـيـمًـا، ودودًا. "امـرأتـى تـكـاد تـصـيـبـنـى بـالجـنـون، إنه شـىء فـى هـذه الـبـلاد. فـليس لـديهـن أيـة فـكـرة عن الـتـعـامـل مع الزنوج".

قال تشارلى: "التعامل مع الزنوج يحتاج رجلاً. فالزنوج لا يفهمون أخذ الأوامر من النساء. إنهم يوقفون نساءهم عند حدودهن". وضحك. وضحك السيرجنت. وتلفتوا إلى بعضهم، حتى تونى معهم، بنوع من الارتياح لا تخطئه العين. لقد كُسر التوتر؛ وزال الخطر: ومرة أخرى، تم تجاوزه وتجاهله، فالتحقيق فيما يبدو قد انتهى. لم يستطع أن يصدق.

قال: "لكن انتبه إلى ما أقول". ثم توقف. التفت كلا الرجلين ونظرا إليه، وعلى وجهيهما نظرة ثابتة، قاتمة، ثائرة. وكان التحذير لا تخطئه العين! كان هو ذلك التهديد الذى يمكن أن يوجه لغر على وشك أن يتعثر فى قول ما هو أكثر من اللازم. هذا الاكتشاف كان كثيرًا على تونى. فاستسلم؛ غسل يديه من المسألة. وراح يراقب الاثنين الآخرين بدهشة بالغة: لقد كانا متصلين فى المزاج والمشاعر، يقفان هناك فى حالة فهم كامل؛ الفهم الذى لم يتحققا منه بأنفسهما، التعاطف غير معترف به؛ كانت معالجتهما المدبرة لهذا الموضوع غريزية: كانا غير واعيين على الإطلاق بأنهما يتصرفان بطريقة غير عادية، أو أنها غير قانونية. وهل هناك ما هو غير قانونى، على أية حال؟ كان هذا حديثًا عرضيًا، فى مواجهة الموضوع، لا شىء بدا رسميًا، والآن، والدفتر مغلق، وكان قد تم إغلاقه منذ وصل الكلام إلى أزمة المشهد.

قال تشارلى، ملتفتًا ناحية السيرجنت: "الأفضل إخراجها من هنا. فالجو شديد الحرارة ولا ينبغى الانتظار".

قال الشرطى: "نعم"، وهو يتحرك لإعطاء أوامره بناء على ذلك.

فيما بعد، تبين تونى أن هذه الملحوظة القاسية التى تقرر الواقع كانت هى المرة الوحيدة التى تمت الإشارة فيها مباشرة إلى مارى المسكينة. ولكن لماذا يشار إليها؟ إلا أن هذا كان حقًا نوعًا من الحديث الودى بين مزارع كان أقرب جيرانها، والشرطى الذى كان فى بيتها بدوره كضيف، والمساعد الذى عاش هناك لبضعة أسابيع. لم تكن هذه مناسبة رسمية، "هذه"، توقف تونى عند هذه الفكرة. ما زالت هناك قضية سوف تناقش فى محكمة، وربما تتم إقامتها بشكل لائق.

قال السيرجنت ناظرًا إلى تونى: "القضية ستكون مسألة شكلية، بالطبع". وكأنه يفكر بصوت عالٍ. كان يقف إلى جوار سيارة الشرطة، يراقب رجال الشرطة من أهل البلد يرفعون جسد مارى تيرنر، والذى كان ملفوفًا فى بطانية، ويضعونه فى المقعد الخلفى. كانت متيبسة، واصطدم ذراعها اليابس الممدد على الباب الضيق ليعطى صوتًا مثيرًا للرعب؛ كان من الصعب إدخالها إلى السيارة. وفى النهاية تم الأمر وأغلق الباب. ثم ظهرت مشكلة أخرى: فلا يمكن وضع

موسى القاتل فى نفس السيارة معها؛ فلا يمكن وضع رجل أسود قريبًا من امرأة بيضاء، رغم أنها ميتة، وهو الذى قتلها. ولم يكن هناك إلا سيارة تشارلى، وكان ديك تيرنر المجنون جالسًا يحدق فى مقعدها الخلفى. وبدا أن هناك شعورًا بأن موسى، لأنه ارتكب الجريمة، فهو يستحق أن يؤخذ بالسيارة؛ ولكن لا يوجد حل لذلك، وسوف يكون عليه أن يسير، فى حراسة رجال الشرطة، وهم يسحبون دراجاتهم، حتى المعسكر.

وبعد أن اكتملت كل هذه الترتيبات، كانت هناك وقفة.

وقفوا هناك بجوار السيارتين، فى لحظة الرحيل، ناظرين إلى البيت المبنى من الطوب الأحمر بسقفه الذى يشع بالحرارة، والأدغال الكثيفة المحيطة به، ومجموعة الرجال السود يتحركون تحت الأشجار فى مشوارهم الطويل. كان موسى فى حالة سلبية شديدة، تاركًا نفسه يسوقونه بدون أية حركة من جانبه. وجهه خال من التعبير. وبدا يحدق مباشرة فى الشمس. هل كان يفكر أنه لن يراها كثيرًا بعد ذلك؟ من المستحيل معرفة ذلك. هل يشعر بالندم؟ لا علامة تدل عليه. بالخوف؟ لم يبد عليه هذا. نظر الرجال الثلاثة إلى القاتل، كل منهم تائه فى أفكاره الخاصة، متأمل، عابس، ولكن لم يكن الأمر وكأنه أصبحت له أهمية الآن. لا، لقد كان لا أهمية له: لقد كان هو نفسه الرجل الأسود المعتاد، الذى يمكن أن يسرق، أو يغتصب، أو يقتل، لو أتيحت له نصف فرصة. حتى

بالنسبة لتونى، لم يعد الأمر يهم؛ ومعرفته بعقل الزنجى كانت قليلة للغاية بحيث لا تعطيه أى أساس للحدس أو التخمين.

سأل تشارلى: "وماذا عنه؟"، وهو يشير بإصبعه إلى ديك تيرنر. كان يعنى: أين يمكن أن يكون مكانه فيما يختص بالقضية فى المحكمة؟

قال السيرجنت: "يبدو لى أنه لن يكون مفيدًا كثيرًا"، فقد كان لديه، على أية حال، كثير من الخبرة بالموت والجريمة والجنون.

لا، بالنسبة لهم كان المهم هو مارى تيرنر، التى تخلت عن ذويها؛ ولكن حتى هى، حيث إنها كانت ميتة، لم تعد مشكلة بعد الآن. الحقيقة الوحيدة التى ظل من الممكن التعامل معها هى ضرورة حفظ المظاهر. كان السيرجنت دنهام يفهم هذا: كان ذلك جزءًا من وظيفته، رغم أن هذا الجزء ليس مدونًا فى التعليمات، ولكنه كان كامنًا فى روح البلاد، الروح التى كان منقوعًا فيها. وكان تشارلى سلاتر يفهم ذلك بنفس القدر. ولكن، جنبًا إلى جنب، وكأنما يحركهما نبض واحد، أسف واحد، خوف واحد، وقفا معًا فى تلك اللحظة الأخيرة قبل أن يتركا المكان، موجهين تحذيرهما الصامت الأخير لتونى بنظرات متجهمة.

وكان قد بدأ يفهم. لقد عرف الآن، على الأقل، أن ما كانت تدور حوله الحرب فى الغرفة التى تركوها منذ لحظات لا علاقة له بالجريمة نفسها. الجريمة

نفسها لم تكن شيئًا، كان الصراع الذى تقرر فى كلمات قليلة موجزة ـ أو بالأحرى، فى السكنات بين الكلمات ـ لم تكن له علاقة بالمعنى السطحى للمشهد. سوف يفهم كل ذلك أفضل كثيرًا خلال أشهر قليلة، عندما يصبح "معتادًا على البلاد". وحينئذ، سوف يبذل قصارى جهده لنسيان المعرفة، فالحياة مع وجود حاجز اللون بين البشر، بكل ما يشمله من درجات ومعانٍ ضمنية، يعنى أن يغلق المرء عقله أمام أشياء كثيرة إن كان ينوى أن يظل عضوًا مقبولاً فى المجتمع. ولكن، فى اللحظات البينية، سوف تكون هناك لحظات قصيرة يرى فيها الأمر بوضوح، ويفهم أن الشىء الكامن فى موقف تشارلى سلاتر والسيرجنت هو "الحضارة البيضاء" تحارب دفاعًا عن نفسها. "الحضارة البيضاء"، التى لن تعترف أبدًا، أبدًا، بأن شخصًا أبيض، وعلى وجه الخصوص، امرأة بيضاء، يمكن أن تكون لها علاقة إنسانية، سواء بالطيب أو بالردىء، مع شخص أسود. فمجرد اعتراف تلك "الحضارة البيضاء" بذلك يعنى أنها تنهار، ولن يستطيع شىء إنقاذها. إذًا، فقبل كل شىء، لا يمكن لهذه الحضارة البيضاء أن تتحمل الإخفاق، مثل الإخفاق الذى منيت به عائلة تيرنر.

من أجل تلك اللحظات القليلة التى يصفو فيها تفكيره، ومعرفته المشوشة إلى حد ما، يمكن القول بأن تونى كان هو الشخص الحاضر، الذى لديه أكبر إحساس بالمسئولية فى ذلك اليوم. فلم يكن ليخطر

أبدًا ببال سلاتر أو السيرجنت أنهما قد يكونا على خطأ: فهما، كما فى كل تعاملاتهما مع العلاقات بين السود والبيض، يدعمهما إحساس بنوع من المسئولية الشهيدة من أجل المبدأ. إلا أن تونى أيضًا أراد أن يكون مقبولاً فى هذا البلد الجديد. وعليه أن يتكيف، وإن لم يطع ويعمل وفق مبادئ أهله، فسوف يتم رفضه: كانت القضية واضحة بالنسبة له، لقد سمع عبارة "التعود على أفكارنا" أكثر مما يمكن معه أن يكون لديه أية أوهام حول الهدف منها. وإذا تصرف وفقًا لأفكاره التى أصبحت الآن مشوشة عن الصواب والخطأ، إحساسه بأن ظلمًا فادحًا كان يقع فى تلك اللحظة، ما الفرق الذى سيحدث للمشارك الوحيد فى المأساة الذى لم يمت ولم يصب بالجنون؟ فموسى سوف يشنق على كل الأحوال؛ لقد ارتكب جريمة قتل، تلك الحقيقة هى الباقية. هل كان ينوى أن يستمر فى القتال فى الظلام من أجل مبدأ ما؟ وإن فعل، أى مبدأ؟ لو كان قد تقدم خطوة حينئذ، كما كاد أن يفعل، عندما دخل السيرجنت دنهام برشاقة فى سيارته، وكان تونى على وشك أن يقول له: "انظر، إننى لن أسكت عن هذا"، فماذا كان يجنى؟ من المؤكد أن السيرجنت ما كان ليفهمه. كان ما قد يحدث هو أن ينقبض وجهه، ويظلم جبينه سخطًا، ويرفع قدمه عن دواسة الدبرياج، وكان سيقول: "لن تسكت عن أى شىء؟ ومن الذى طلب منك أن تسكت؟" وفى هذه الحالة، لو تمتم تونى بشىء عن المسئولية، لنظر

السيرجنت نظرة ذات مغزى إلى تشارلى وهز كتفيه بلا مبالاة. وربما كان تونى يستمر، متجاهلاً هزة الكتفين وما تتضمنه من عدم المبالاة: "إن كان هناك شخص يستحق اللوم، فهو مسز تيرنر. لا يمكنك أن تمسك العصا من الطرفين. إما أن البيض مسئولون عن سلوكياتهم أو أنهم غير مسئولين. إن جريمة قتل بحاجة إلى طرفين لتتم. خاصة جريمة قتل من هذا النوع. ومع ذلك، فلا يمكن لومها أيضًا. فهى لم تكن تملك إلا أن تكون ما كانت عليه. لقد عشت هنا، أقول لك، وهو أمر لم يفعله أحد منكما، والمسألة كلها شديدة الصعوبة حتى أنه من المستحيل أن نعرف من هو الملوم". وحينئذ، كان السيرجنت سيقول: "يمكنك أن تقول ما تعتقد أنه الصواب فى المحكمة". كان هذا ما سيقوله، وكأنما القضية لم تكن قد تقررت سلفًا. منذ أقل من عشر دقائق. رغم أن المزعوم فى الظاهر هو عدم الإشارة إلى ذلك أبدًا. وقد يقول السيرجنت: "إنها ليست مسألة من الملوم. هل قال أحد أى شىء عن اللوم؟ لكنك لا تستطيع إنكار حقيقة أن هذا الزنجى قد قتلها، هل تستطيع؟"

وهكذا لم يقل تونى شيئًا، وانطلقت سيارة الشرطة من خلال الأشجار. وتبعها تشارلى سلاتر بسيارته مع ديك تيرنر. وترك تونى وحده فى الخلاء، مع بيت خالٍ من أهله.

وهكذا لم يقل تونى شيئًا، وانطلقت سينارة الشرطة من خلال الأشجار. وتبعها تشارلى سلاتر

بسيارته مع ديك تيرنر. وترك تونى وحده فى الخلاء، مع بيت خالٍ من أهله.

دلف إلى الداخل ببطء، وقد تملكته الصورة الوحيدة الواضحة، التى بقيت له بعد أحداث الصباح، والتى بدت له هى المفتاح لكل شىء: النظرة التى بدت على وجهى السيرجنت وسلاتر عندما نظرا إلى الجثة؛ تلك النظرة الهستيرية المليئة بالكراهية والخوف.

جلس، واضعًا يده على رأسه، الذى كان يعانى من صداع عنيف؛ ثم قام مرة أخرى وبحث على رف مترب فى المطبخ عن زجاجة دواء تحمل بطاقة كُتب عليها "براندى". شربها. وشعر ببعض الاهتزاز فى ركبتيه وأردافه. كان ضعيفًا أيضًا، يشعر بالكراهية نحو هذا البيت القبيح، الذى بدا يحمل بين جدرانه، وحتى داخل أحجاره وأسمنته، مخاوف وأهوال جريمة القتل. وشعر فجأة أنه لا يستطيع أن يتحمل البقاء فيه، ولا لحظة أخرى.

نظر إلى السقف الصفيح العارى المطقطق، الذى اعوج من تأثير الشمس، وإلى الأثاث الذاوى الباهت، وإلى الأرضيات الطوب المغطاة بجلود حيوانات رثة، وتعجب كيف أن هذين الاثنين، مارى وديك تيرنر، استطاعا احتمال الحياة فى مثل هذا المكان، سنة بعد سنة، لفترة طويلة هكذا. لماذا، إن الكوخ الصغير المغطى بسقف من القش الذى كان يعيش فيه فى

الخلف كان أفضل من هذا! لماذا ظلا مستمرين دون حتى أن يقيما سقفًا؟ كانت الحرارة فى هذا المكان تكفى لأن تقود أى شخص إلى الجنون.

ثم، وقد شعر برأسه يدور قليلاً (فالحرارة جعلت البراندى يأتى أثره فى الحال)، تساءل فى نفسه كيف بدأ كل هذا، أين بدأت المأساة. فقد كان يتعلق بعناد باعتقاده، على الرغم من سلاتر والسيرجنت، أن البحث عن أسباب الجريمة لابد أن يتم بالرجوع إلى فترة طويلة ماضية، وأن هذه الأسباب هى المهمة. أى نوع من النساء كانت مارى تيرنر، قبل أن تأتى إلى هذه المزرعة وتخرج قليلاً عن اتزانها بسبب الحرارة والوحدة والفقر؟ وديك تيرنر نفسه، ماذا كان؟ وذلك الزنجى. ولكن هنا توقفت أفكاره بسبب افتقاد المعرفة. لم يكن حتى يستطيع أن يتخيل عقل أحد أبناء البلد.

مرر يده على جبينه فى محاولة يائسة، لآخر مرة، أن يصل إلى نوع من الرؤية التى قد ترفع جريمة القتل عن ارتباكات وتعقيدات الصباح، وتجعل منها، ربما، رمزًا، أو تحذيرًا. لكنه فشل. كان الجو شديد الحرارة. وكان لا يزال يشعر بالغضب من موقف الرجلين. كان رأسه يطن. وفكر غاضبًا وهو يقوم من مقعده، لابد أن درجة الحرارة تزيد على المائة فى هذه الغرفة، ووجد أن قدميه غير ثابتتين. وقد ثمل من ملعقتين من البراندى على أكثر تقدير! وفكر وقد ملأه الغضب، هذا البلد اللعين. لماذا يحدث لى هذا، أتورط

فى فضيحة ملتوية ملعونة كهذه، وأنا قد جئت لتوى، ولا أستطيع حقًا أن أتصرف كقاض وهيئة محكمة ولا كإله عطوف فى هذه القضية!

سار متعثرًا إلى الشرفة، حيث ارتكبت الجريمة فى الليلة الماضية. كان ثمة لطخات محمرة اللون على حجارة السور، وتجمع من مياه الأمطار الملوثة بلون وردى. ونفس الكلبين الدنيئين يلعقان أطراف المياه، وابتعدا بتذلل عندما زعق تونى فيهما. استند إلى الجدار وحدق فى المرج والروابى الصخرية الصغيرة بألوانها البنية والخضراء، والتى كانت لامعة ومزرقة بعد المطر؛ لقد كان المطر ينهمر طوال نصف الليل. واكتشف، عندما تصاعد الصوت عاليًا فى أذنيه، أن حشرات الهاموش كانت تئز وتصرخ فى كل مكان حوله. يبدو أنه لم يكن يسمعها قبل ذلك؛ لأنه كان فى حالة استغراق شديد. كان صوت أزيز ثابت وعنيد يخرج من كل دغل ومن كل شجرة. وراح يضغط على أعصابه. فجأة قال: "سوف أخرج من هذا المكان... سوف أخرج من الموضوع برمته... سوف أذهب إلى الطرف الآخر من البلاد. سوف أرفع يدى عن الموضوع. دع كل سلاتر وكل دنهام يفعلون ما يشاءون. ماذا يعنينى؟"

فى ذلك الصباح، حزم أشياءه، وسار إلى بيت سلاتر ليخبر تشارلى أنه لن يبقى، بدا تشارلى غير مبالٍ، بل وأنه شعر بارتياح: كان يفكر أنه لا حاجة لوجود من يدير المكان طالما أن ديك لن يعود.

بعد ذلك أصبحت مزرعة تيرنر تدار كمرعى لماشية تشارلى. كانت الماشية ترعى فى كل مكان منها حتى التل الذى يقف عليه البيت. وظل البيت خاليًا، وسرعان ما انهار.

عاد تونى إلى المدينة، حيث راح يتلكأ فى البارات والفنادق فترة، منتظرًا أن يسمع عن عمل ما يناسبه. لكن محاولته المبكرة الخالية من الهموم للتكيف ذهبت. وأصبح من الصعب إرضاؤه. زار عدة مزارع، لكنه فى كل مرة كان يذهب: فقدت الزراعة بريقها بالنسبة له. وفى المحاكمة، التى كانت كما قال السيرجنت دنهام تمامًا، مجرد محاكمة شكلية، قال ما كان متوقعًا منه. وكان الإيحاء هو أن الزنجى قتل مارى تيرنر وهو مخمور، بحثًا عن النقود والمجوهرات.

وعندما انتهت المحاكمة، راح تونى يتسكع بلا هدى حتى نفدت نقوده. كانت الجريمة، وتلك الأسابيع القليلة التى قضاها مع عائلة تيرنر، قد أثرت فيه أكثر مما كان يتوقع أو يعرف. لكن نفاد نقوده كان معناه أن عليه أن يفعل شيئًا ليأكل. التقى برجل من روديسيا الشمالية، والذى أخبره عن مناجم النحاس والمرتبات العالية المدهشة. وبدا الأمر رائعًا لتونى. فأخذ القطار التالى إلى حزام النحاس، بنية أن يوفر بعض النقود ثم يبدأ عملاً خاصًا به. لكن ما أن وصل هناك حتى اكتشف أن المرتبات لم تكن بهذه الجودة التى بدت بها عن بعد. فتكاليف الحياة كانت مرتفعة،

وكان الجميع يسكرون كثيرًا .... وسرعان ما ترك العمل تحت الأرض، وأصبح يقوم بنوع من الإدارة. ومن ثم، فى النهاية، كان يجلس فى مكتب ويعمل مع الأوراق، وهو الشىء الذى جاء إلى إفريقيا ليتجنبه. لكن الأمر لم يكن بهذا السوء فى الواقع. لابد أن يتأقلم الإنسان مع الظروف، فالحياة ليست كما يتوقع المرء دائمًا، وما إلى ذلك؛ كانت هذه هى الأشياء التى يقولها لنفسه عندما يشعر بالاكتئاب، ويقيس أحواله بما كانت عليه طموحاته الأولى.

وبالنسبة للناس فى "المنطقة"، الذين كانوا يعرفون كل شىء عنه بتناقل الأقاويل، كان هو الرجل الشاب الذى جاء من إنجلترا، ولم تكن لديه الشجاعة لاحتمال أكثر من أسابيع قليلة فى العمل بالزراعة. لم تكن لديه الشجاعة، هذا ما قالوه. وكان ينبغى أن يتحمل هذه الأقاويل حتى النهاية.

-٢-

على امتداد الخطوط الحديدية التى تمتد وتتفرع وتتشعب فى كل جنوب إفريقيا، على مسافات قصيرة كل بضعة أميال، تنبثق محطات صغيرة تبدو للمسافر ككتل لا أهمية لها من المبانى القبيحة، لكنها مراكز لمناطق المزارع، والتى قد تمتد مائتى ميل عبرها. وهى تضم مبنى المحطة، ومكتب البريد، وأحيانًا فندق، ولكن دائمًا ما يكون فيها دكان.

وإذا كان المرء يبحث عن علامة تعبير عن جنوب إفريقيا، جنوب إفريقيا التى صنعها الرأسماليون وأقطاب التعدين، جنوب إفريقيا التى قد يصاب بالرعب لرؤيتها مبعوثو الإرساليات والمستكشفون الأوائل الذين جابوا القارة السمراء، فلسوف تجدها فى الدكاكين. فالدكان فى كل مكان. قد سيارتك عشرة أميال من أحدها فتصل إلى التالى؛ أخرج رأسك من عربة السكك الحديدية، وسوف تجده؛ كل منجم له دكانه، والعديد من المزارع.

أحيانًا يكون الدكان عبارة عن مبنى من طابق واحد مقسم إلى أقسام مثل قالب من الشيكولاتة، به البقالة، والجزارة، ومخزن الزجاجات تحت أحد الأسطح المصنوعة من الحديد المتعرج. وله طاولة بيع عالية من الخشب الداكن، ووراء الطاولة أرفف تحمل أى شىء من مزيج لعلاج الحيوانات إلى فرش الأسنان، كل شىء مختلط معًا. وهناك بضع معلقات تحمل ثيابًا قطنية رخيصة بألوان زاهية، وربما تجد رفًا من صناديق الأحذية، أو علبة زجاجية لأدوات التجميل أو الحلوى. وهناك تلك الرائحة التى لا يمكن أن تخطيها، رائحة مركبة من الورنيش، والدم المجفف من الذبح، الذى يتم على بعد ياردات خلف المكان، وجلد حيوان مدبوغ، وفاكهة مجففة، وصابون أصفر قوى. وخلف الطاولة يقف رجل يونانى، أو يهودى، أو هندى. وأحيانًا يكون أطفال هذا الرجل، الذين هم فى الغالب مكروهون من جانب المنطقة كلها باعتبارهم أجانب ويثيرون على حساب الجميع، يلعبون بين الخضراوات لأن غرف المعيشة تقع خلف الدكان.

والدكان، بالنسبة لآلاف الناس فى كل مكان من جنوب إفريقيا، خلفية لطفولتهم. أشياء كثيرة تركزت حوله. إنه يثير مثلاً ذكريات تلك الليالى عندما توقفت السيارة فجأة، بعد قيادة طويلة بدت بلا نهاية خلال الظلام المترب المرعب، أمام مربع من الضوء؛ حيث يقف رجال يتسكعون حاملين زجاجات فى أيديهم، وتحمل واحدة إلى الحاجز المضاء من أجل رشفة من

السائل القوى اللافح "للتخفيف من الحمى". أو ربما هو المكان الذى يقود المرء إليه مرتين فى الأسبوع لإحضار البريد، ولرؤية كل المزارعين القادمين من على بعد أميال حول المكان لشراء بقالتهم، وقراءة الرسائل القادمة من الوطن مع إسناد إحدى القدمين إلى جانب السيارة الدائرة، غافلاً للحظات عن الشمس، مربع التراب الأحمر؛ حيث ترقد الكلاب متناثرة مثل الذباب حول اللحم ومجموعات من الأهالى الزنوج المحملقين. والذين نقلوا مؤقتًا عائدين إلى البلد، الذى كانوا يشعرون بشوق مرير إليه، لكن حيث لن يختاروا أن يعيشوا ثانية. قد يقول باكتئاب، أولئك المنفيون بإرادتهم: "جنوب إفريقيا تسكن فيك".

بالنسبة لمارى، كانت كلمة "الوطن" عندما تُنطق بحنين شديد، تعنى إنجلترا، رغم أن والديها كانا من جنوب إفريقيا، ولم يذهبا أبدًا إلى إنجلترا. وهى تعنى "إنجلترا" بسبب أيام البريد تلك، عندما كانت تتسلل إلى الدكان لتراقب السيارات تأتى وتذهب محملة بالمشتريات والرسائل والمجلات القادمة عبر البحار.

و كان الدكان بالنسبة لمارى هو المركز الحقيقى لحياتها، أكثر أهمية إليها من معظم الأطفال. فبداية، كانت تعيش دائمًا على مرأى منه، فى إحدى تلك المحطات الصغيرة المتربة. كان عليها دائمًا أن تقطع الطريق إليه جريًا لإحضار رطل من الخوخ المجفف أو علبة من السلمون لأمها، أو لترى إن كانت الصحيفة

الأسبوعية قد وصلت. وكانت تتلكأ هناك لساعات، تحدق فى أكوام الحلوى الدبقة الملونة، وتجعل الحبوب الناعمة المحفوظة فى الأجولة حول الجدران تنساب من بين أصابعها، وتنظر خفية إلى البنت اليونانية الصغيرة، التى لم يكن مسموحًا لها باللعب معها، لأن أمها قالت إن والديها "داجوس"(). وفيما بعد، عندما أصبحت أكبر، أصبح للدكان معنى آخر، إنه المكان الذى كان والدها يشترى منه مشروبه. أحيانًا كانت أمها تعمل حتى تصل إلى درجة من الغيظ، ثم تسير إلى الرجل الواقف على البار، وتشكو له من أنها لا تستطيع أن تسير أمورها، بينما زوجها يبذر مرتبه على الشرب. كانت مارى تعلم، حتى وهى طفلة، أن والدتها تشكو من أجل التظاهر واستعراض أحزانها: كانت فى الواقع تستمتع بترف وقوفها هناك فى البار بينما الزبائن الموجودون يتطلعون إليها، بتعاطف؛ كانت تستمتع بالشكوى من زوجها بصوت قوى ملىء بالأسف. كانت تقول: "كل ليلة يعود إلى البيت من هنا، كل ليلة، ومطلوب منى أن أتمكن من تربية ثلاثة أطفال على النقود، التى تبقى عندما يعود براحته إلى البيت". ثم تظل واقفة، منتظرة عبارات العزاء من الرجل الذى استولى على النقود التى هى من حقها لتنفقها على الأطفال. لكنه كان فى النهاية يقول: "ولكن ماذا أفعل؟ لا أستطيع أن أرفض أن أبيعه المشروب، هل أستطيع هذا؟" وفى النهاية، بعد أن تؤدى دورها فى هذا المشهد، وتأخذ ما يرضيها من التعاطف، كانت تسير

عبر الفسحة المفروشة بالتراب الأحمر إلى بيتها، ممسكة مارى من يدها - امرأة طويلة عجفاء، غاضبة بعينين غاضبتين معتلتين. لقد حولت مارى فى وقت مبكر من عمرها إلى الشخصية، التى تأتمنها على أسرارها. اعتادت أن تبكى وهى تقوم بالخياطة بينما مارى تواسيها، وتتوق إلى الهروب بعيدًا، ولكنها تشعر بأهميتها أيضًا، وتكره أباها.

وليس معنى هذا أنه كان يسكر إلى درجة بشعة. نادرًا ما كان يسكر كما يفعل بعض الرجال، والذين كانت مارى تراهم خارج البار، يخيفونها ويثيرون رعبها حتى تبتعد عن المكان. كان يشرب كل ليلة حتى يصل إلى حالة من المرح وروح الدعابة الطيبة، ويأتى البيت متأخرًا ليتناول عشاء باردًا، والذى كان يأكله وحده. كانت زوجته تعامله بلا مبالاة باردة. كانت تحتفظ بسخريتها المحتقرة له لحين تأتى صديقاتها لتناول الشاى. وكان الأمر وكأنها لم تكن ترغب فى منح زوجها متعة معرفة أنها تهتم به على الإطلاق، أو تشعر بأى شئ من ناحيته، حتى لو كان هذا الشئ هو الازدراء والسخرية. كانت تتصرف كما لو كان ببساطة ليس موجودًا هنا من أجلها. ومن الناحية العملية، لم يكن بالفعل. كان يحضر النقود إلى البيت، وليس بكمية كافية. وفيما عدا ذلك، كان صفرًا فى البيت، وكان يعرف ذلك. كان رجلاً قليل الحجم، له شعر مشعث كالح اللون، ووجه أشبه بتفاح مسلوق، ويعطى إحساسًا بالقلق رغم مزاحه الخشن. كان يدعو

الموظفين التافهين الزائرين "سيدى"، ويزعق فى الزنوج الذين يعملون تحت يديه، كان يعمل فى السكك الحديدية، عامل مضخة.

وكما كان الدكان هو بؤرة المنطقة، ومصدر ثمل أبيها، كان أيضًا مكانًا قويًا حقودًا يرسل الفواتير فى نهاية الشهر. ولم يكن من الممكن أبدًا دفعها بالكامل: كانت أمها دائمًا تستعطف صاحب الدكان أن يمهلها شهرًا آخر. كان والدها ووالدتها دائمًا يتشاجران على هذه الفواتير اثنتى عشرة مرة فى السنة. ولم يكن هناك ما يتشاجران بسببه أبدًا سوى النقود؛ وفى الواقع، أحيانًا، كانت أمها تعلق بجفاء أنها ربما كانت أسوأ حالا، فعلى سبيل المثال، كان يمكن أن تكون مثل مسز نيومان، التى لديها سبعة أطفال؛ وهى ليس لديها سوى ثلاثة أفواه عليها أن تملأها. ومر وقت طويل قبل أن تفهم مارى العلاقة بين العبارتين، وفى هذا الوقت، لم يعد لديها سوى فم واحد تطعمه، فمها هى؛ فأخوها وأختها ماتا من الدوسنتاريا فى سنة واحدة كان الغبار فيها كثيفًا. ولفترة قصيرة، أصبح والداها صديقين حميمين بسبب هذه المأساة المؤلمة: تتذكر مارى التفكير فى أنها كانت رياحًا شريرة لم تعد بأى شىء طيب على أحد؛ لأن الطفلين الميتين كانا أكبر كثيرًا منها حتى أنهما لم يكونا يلعبان معها، وكانت الخسارة يعوضها سعادة العيش فى منزل أصبح فجأة خاليًا من المشاجرات، أم تبكى، ولكنها فقدت

تلك اللامبالاة الصعبة المرعبة. لكن تلك المرحلة لم تستمر طويلاً. وكانت تنظر إليها كأسعد أيام طفولتها.

انتقلت العائلة ثلاث مرات قبل أن تذهب مارى إلى المدرسة؛ ولكن فيما بعد، لم تستطع أن تفرق بين المحطات العديدة التى عاشت فيها. كانت تذكر قرية مترية خلفها مجموعة مصفوفة من أشجار الصمغ المنتفخة، وبها ميدان مترب دائمًا ما يثور ترابه ويترسب بسبب عربات الثيران المارة؛ مع الهواء الساخن الراكد، الذى يبدو عدة مرات فى اليوم مع صرخات وسعلات القطارات. التراب والدجاج؛ التراب والأطفال، والزنوج المتسكعون؛ التراب والدكان - دائمًا الدكان.

ثم أرسلت إلى مدرسة داخلية، وتغيرت حياتها. كانت سعيدة للغاية، سعيدة لدرجة أنها كانت تكره الذهاب إلى البيت فى الإجازات إلى أبيها السكير وأمها الممرورة، والبيت الصغير الذى كان يشبه صندوقًا خشبيًا على ركائز.

فى السادسة عشرة تركت المدرسة ونالت وظيفة فى مكتب فى مدينة: إحدى تلك المدن الصغيرة النائمة المتناثرة مثل الزبيب على كعكة جافة فوق جسد جنوب إفريقيا. ومرة أخرى، كانت فى غاية السعادة. وبدا أنها ولدت من أجل الكتابة على الآلة الكاتبة والشورت هاند وحفظ الملفات والروتين اليومى للمكتب. أحبت الأشياء أن تحدث بأمان واحدًا بعد الآخر فى نموذج منتظم، وكانت تحب على وجه

الخصوص ما فى هذه الوظيفة من مودة منكرة للذات. وبمرور الوقت، بلغت العشرين ولديها عمل جيد، وأصدقاؤها، وموضع لائق فى المدينة. ثم ماتت أمها، وأصبحت بالفعل وحدها فى العالم، فوالدها كان على بعد خمسمائة ميل، حيث تم نقله إلى محطة أخرى. لم تكن تراه إلا لمامًا: كان فخورًا بها، ولكن (وهذا هو الأهم) تركها وحدها. وحتى الرسائل لم يكونا يتبادلانها؛ فلم يكونا من النوع الذى يكتب الرسائل. وارتاحت مارى للتخلص منه. لم يكن بقاؤها وحيدة فى العالم يحمل لها أية مخاوف، بل إنها أحبت ذلك. وبانقطاع صلتها بأبيها بدا أنها بشكل ما تنتقم لمعاناة أمها. لم يخطر ببالها أبدًا أن أباها ربما عانى أيضًا. كان يمكن أن تقول: "من أى شىء؟"، لو أن أحدًا اقترح ذلك. "إنه رجل، أليس كذلك؟ يستطيع أن يفعل ما يشاء". لقد ورثت من أمها نسوية شديدة، لم يكن لها معنى فى حياتها على الإطلاق، فقد كانت تعيش حياة مرتاحة خالية من الهموم لامرأة وحيدة فى جنوب إفريقيا، ولم تكن تعلم كم كانت محظوظة. كيف لها أن تعلم؟ لم تكن تفهم شيئًا عن الأحوال فى البلدان الأخرى، ولم تكن لديها أداة قياس تستطيع بها تقييم نفسها.

لم يخطر أبدًا ببالها أن تفكر على سبيل المثال أنها، وهى ابنة موظف صغير فى السكك الحديدية وامرأة كانت حياتها شديدة التعاسة بسبب الضغوط الاقتصادية التى جعلتها مرتبطة بالموت بالمعنى

الحرفى للكلمة، كانت تعيش بنفس طريقة بنات الأثرياء فى جنوب إفريقيا، تستطيع أن تفعل ما تشاء، تستطيع الزواج إن أرادت أى شخص تريد. هذه الأشياء لم تكن تخطر ببالها. "الطبقة" ليست كلمة جنوب إفريقية؛ و"العرق" كانت تعنى لها صبى المكتب فى الشركة التى تعمل فيها؛ أو خدم النساء الأخريات، والحشد غير المنتظم من الأهالى الزنوج فى الشوارع، والذين نادرًا ما كانت تلاحظهم. كانت تعلم (والعبارة كانت تدور كثيرًا حولها) أن الأهالى يزدادون "صفاقة". لكنها لم يكن لديها أية صلة بهم فى الواقع. كانوا خارج محيطها.

وحتى كانت فى الخامسة والعشرين لم يحدث شىء يكسر الحياة الناعمة والمريحة التى كانت تعيشها. ثم توفى والدها. وانقطع ذلك الخيط الأخير الذى كان يربطها بطفولتها التى كانت تكره تذكرها. لم يبق لها أى شىء يربطها بالبيت القذر الصغير القائم على الركائز، وصرخات القطارات، والغبار، ونزاعات والديها. لا شىء على الإطلاق، لقد أصبحت حرة. وعندما انتهت الجنازة، وعادت إلى المكتب، تطلعت إلى أن تستمر كما هى حتى الآن. كانت سعيدة للغاية، وربما كانت تلك هى فضيلتها الإيجابية الوحيدة، فلم يكن ثمة شىء آخر متمايز بالنسبة لها، رغم أنها عند الخامسة والعشرين كانت فى أقصى جمالها. وقد أضاف الرضا التام ازدهارًا عليها: كانت فتاة نحيفة، تتحرك بنزق، ولها شعر جميل ذو لون بنى

فاتح، وعينان زرقاوان، وثياب جميلة. وربما كانت صديقاتها يصفنها بالشقراء النحيلة: لقد شكلت نفسها على مثال نجمات السينما ذوات المظهر الطفولى.

وفى سن الثلاثين لم يكن شىء قد تغير. فى عيد ميلادها الثلاثين شعرت بدهشة مبهمة وإن لم ترق إلى الانزعاج، لأنها لم تكن تشعر بأى فرق. كانت دهشتها من أن السنوات مرت بهذه السرعة. ثلاثون عامًا! بدا وكأنها بلغت من العمر أرذله. لكن هذا لا علاقة له بها. وفى الوقت نفسه لم تحتفل بهذا اليوم: سمحت له بأن يمر منسيا. لقد شعرت تقريبًا بالغضب أن يحدث مثل هذا الشىء لها، هى التى لم تكن تختلف عن مارى ذات الستة عشر ربيعًا.

كانت الآن السكرتيرة الشخصية لمديرها، وتكسب نقودًا جيدة. ولو أرادت، لاستطاعت أن تأخذ شقة وتعيش حياة رغدة. كانت حسنة الطلعة. وكان لديها المظهر المستوى تمامًا، الذى لا تخطئه العين لديمقراطية جنوب إفريقيا البيضاء. كان صوتها واحدًا من آلاف: سطحيًا، منغمًا إلى حد ما، رخيما. أى شخص يستطيع أن يرتدى مثلها. لم يكن ثمة ما يمنعها من العيش بنفسها، وحتى قيادة سيارتها الخاصة، والاستمتاع على نطاق صغير. كان يمكن أن تصبح شخصية قائمة بذاتها. لكن هذا كان ضد غريزتها.

اختارت أن تعيش فى نادٍ للبنات، والذى كان قد أقيم فى الحقيقة لمساعدة النساء اللائى لا يستطعن

كسب نقود كثيرة، ولكنها كانت هناك منذ فترة طويلة حتى أن أحدًا لم يفكر فى أن يطلب منها أن ترحل. وقد اختارت هذه الحياة؛ لأنها تذكرها بالمدرسة، وكانت تكره ترك المدرسة. كانت تحب زحمة البنات، وتناول الطعام فى غرفة طعام كبيرة، والعودة إلى البيت بعد مشاهدة السينما لتجد صديقة فى غرفتها بانتظار تبادل بعض الأقاويل. فى النادى كانت شخصًا له بعض الأهمية، خارج المعتاد. والسبب أنها كانت أكبر كثيرًا من الأخريات. لقد أصبحت تقريبًا تقوم بدور العمة العانس المريحة، التى يمكن البوح لها بالمتاعب والمشاكل. لأن مارى لم تكن أبدًا تُصدم، ولا تدين أحدًا، ولا تروى حكايات. كانت تبدو شديدة الموضوعية، فوق المتاعب التافهة. كانت صرامة سلوكها، وخجلها، يحميانها من الكثير من النظرات والغيرة. وبدت مصونة. كان هذا مصدر قوتها، لكنه أيضًا نوع من الضعف، الذى لا تعتبره ضعفًا: كانت تشعر بأنها غير راغبة، بل تشعر تقريبًا بالنفور، فى فكرة العلاقات الحميمة والمشاهد والاتصالات العاطفية. كانت تتحرك بين كل هؤلاء النساء الصغيرات بنوع من التحفظ الذى كان يقول بكل وضوح: لن يتم سحبى إلى هذا الأمر. وكانت غير واعية بذلك على الإطلاق. كانت سعيدة جدًا فى النادى.

خارج نادى الفتيات، والمكتب، الذى كانت فيه أيضًا شخصية لها بعض الأهمية بسبب السنوات

الطويلة التى قضتها فى العمل هناك، كانت تعيش حياة شديدة النشاط. إلا أنها كانت حياة سلبية من نواحٍ عديدة، لأنها تعتمد على الآخرين تمامًا. لم تكن من ذلك النوع من النساء التى تقيم حفلات، أو تكون مركز تزاحم. كانت لا تزال هى الفتاة التى "أُخذت فى نزهة".

كانت حياتها فى الواقع غير عادية إلى حد ما: فالأحوال التى منحتها هذه الحياة تمر الآن، وعندما يكون التغير كاملاً، سوف تنظر النساء إلى هذه الأحوال كما ينظرن إلى عصر ذهبى انقضى.

كانت تستيقظ متأخرة، فى وقت مناسب للمكتب (كانت دقيقة جدًا)، ولكن ليس فى وقت مناسب لتناول طعام الإفطار. كانت تعمل بكفاءة، ولكن بطريقة مرفهة، حتى موعد وجبة الظهيرة. ثم تعود إلى النادى لتناول وجبة الظهيرة. وبعد ساعتين أخريين من العمل فى المساء، تصبح حرة. وحينئذ تلعب التنس، أو الهوكى، أو السباحة. ودائمًا مع رجل، أحد هؤلاء الرجال الكثيرين الذين "خرجوا معها"، ويعاملونها كأخت: كانت مارى رفيقًا طيبًا جدًا! بالضبط كما كانت فيما يبدو لديها مائة صديقة من النساء، لكن ليس لها صديقة معينة، كذلك كان لها (فيما يبدو) مائة رجل، خرجوا معها، أو يخرجون معها، أو من تزوجوا والآن يدعونها إلى منازلهم. كانت صديقة لنصف المدينة. وفى المساء كانت دائمًا تذهب إلى

حفلات غروب الشمس، التى كانت تطول حتى منتصف الليل، أو ترقص، أو تذهب إلى السينما. كانت أحيانًا تذهب إلى السينما خمس مرات فى الأسبوع. ولم تكن تذهب إلى الفراش أبدًا قبل الثانية عشرة أو بعد ذلك. وهكذا استمرت، يومًا بعد يوم، أسبوعًا بعد أسبوع، عامًا بعد عام. إن جنوب إفريقيا مكان رائع: بالنسبة للمرأة البيضاء غير المتزوجة. ولكنها لم تكن تلعب دورها، لأنها لم تتزوج. مرت السنوات؛ وتزوج أصدقاؤها؛ وكانت وصيفة العروس أكثر من عشر مرات؛ وأطفال الآخرين يكبرون؛ لكنها استمرت بنفس الرفقة، بنفس التكيف، وبنفس العزوف كما كانت دائمًا، تعمل بجدية وتستمتع بحياتها كما لم تكن أبدًا تفعل فى المكتب، وليست وحدها ولا للحظة واحدة، إلا عندما تكون نائمة.

وبدا أنها لا تهتم بالرجال. وكثيرًا ما كانت تقول لفتياتها: "الرجال! إنهم يحظون بكل الطيبات". لكن حياتها خارج المكتب والنادى كانت تعتمد بالكامل على الرجال، رغم أنها كانت تنكر هذا الاتهام بسخط شديد. وربما لم تكن شديدة الاعتماد عليهم فى الواقع، فعندما كانت تستمع إلى شكاوى الآخرين وقصص تعاستهم، لم تكن تقدم خبرة خاصة بها. أحيانًا كان أصدقاؤها يشعرون ببعض الكآبة والأسى. لم يكن هذا عدلاً، كانوا يشعرون بالغموض، فإن تستمع، وتنصح، وتتصرف كنوع من الكتف العالمى لكل من يريد البكاء عليه، ثم لا تقدم شيئًا من نفسك.

الحقيقة أنها لم يكن لديها أى متاعب. كانت تسمع القصص المعقدة للآخرين متعجبة، وحتى ببعض الخوف. كانت تهز كتفيها بلا مبالاة أمام كل هذا. كانت تقريبًا ظاهرة نادرة: امرأة فى الثلاثين دون مشاكل عاطفية، ولا صداع، ولا آلام فى الظهر، ولا مشكلة فى النوم أو اضطراب فى الأعصاب. لم تكن تعرف كم كانت نادرة.

وكانت لا تزال "واحدة من البنات" . فإذا جاء إلى المدينة فريق زائر للعبة الكريكيت، وكانوا بحاجة إلى شركاء، كان المنظمون يتصلون بمارى. فهذا هو الشىء الذى كانت تجيده: تكيف نفسها بتعقل وهدوء لأية مناسبة. من الممكن أن تبيع تذاكر لحفلة رقص خيرية أو تقوم بدور شريكة رقص لفريق زائر بكامله بنفس الأريحية.

وكانت لا تزال تطلق شعرها بنفس طريقة الفتاة الصغيرة على كتفيها، وتضع بعض دبابيس الشعر الخاصة بالفتيات الصغيرات بألوان زاهية، واحتفظت بسلوكها الخجول الساذج. ولو كانت تركت لحالها لكانت تفضل الاستمرار هكذا، فى طريقها الخاص، تستمتع بحياتها كاملاً، حتى يجد الناس يومًا أنها قد تحولت دون أن يشعر أحد إلى واحدة من أولئك النساء اللاتى أصبحن عجائز دون المرور بمنتصف العمر: ذابلة إلى حد ما، حادة إلى حد ما، صلبة كالمسامير، طيبة القلب رقيقة العواطف، وقد أدمنت على الدين أو الكلاب الصغيرة.

كان من الممكن أن يكونوا عطوفين عليها، لأنها "فاتتها أفضل الأشياء فى الحياة". لكن فى الوقت نفسه هناك الكثير من الناس الذين لا يريدون أفضل الأشياء هذه: كثيرون سممت أفضل الأشياء هذه حياتهم منذ البداية. عندما كانت مارى تفكر فى "البيت"، كانت تتذكر الصندوق الخشبى الذى يهزه مرور القطارات؛ وعندما كانت تفكر فى الزواج كانت تتذكر والدها عائدًا إلى البيت ثملاً أحمر العينين؛ وعندما كانت تفكر فى الأطفال كانت ترى وجه أمها فى جنازة طفليها - مكروب، ولكن جاف وصلب كأنما هو صخرة. كانت مارى تحب أطفال الناس الآخرين، لكنها كانت تجزع عندما تفكر فى أن يكون لديها أطفال. كانت تشعر بنزعة عاطفية رقيقة فى حفلات الزواج، لكنها كانت لديها كراهية عميقة للجنس؛ كانت الخصوصية فى بيتها قليلة، وكانت ثمة أشياء لم تكن تهتم بأن تتذكرها؛ لقد كانت حريصة على نسيانها منذ سنوات.

وقد شعرت بالتأكيد فى بعض الأوقات بنوع من التململ والقلق، وبنوع من الاستياء الغامض الذى كان يزيل المتعة عن أنشطتها لبعض الوقت. فقد تكون ذاهبة إلى الفراش، مثلاً، راضية، بعد مشاهدة السينما، عندما تطرأ على نفسها فكرة "يوم آخر انتهى!" وهنا يتقلص الوقت، ويبدو لها مجرد حيز للتنفس منذ تركت المدرسة وجاءت إلى المدينة لتكسب عيشها: كانت تشعر ببعض الذعر، كما لو كان ثمة دعامة غير مرئية قد انسحبت من تحتها. ولكن، لأنها

شخصية عاقلة، ومقتنعة تمامًا بأن التفكير فى الذات شىء غير صحى، كانت تدخل فى الفراش، وتطفئ الأنوار. وقبل أن تستسلم للنوم، تتساءل: "أهذا كل شىء؟ هل هذا هو كل ما سوف أحمله من ذكريات عندما أصبح عجوزًا؟" ولكن فى الصباح تكون قد نسيت، وتستمر الأيام فى مرورها، وتكون سعيدة مرة أخرى. فلم تكن تعرف ماذا تريد. شيئًا أكبر، أحيانًا تفكر بشكل مبهم، أريد شيئًا أكبر، حياة من نوع مختلف. لكن هذه الحالة المزاجية لم تكن تستمر طويلاً أبدًا. كانت شديدة الاقتناع بعملها، حيث تشعر بالاكتفاء والبراعة؛ وبأصدقائها، الذين كانت تعتمد عليهم، بحياتها فى النادى، الذى كان لطيفًا واجتماعيًا ومزدحمًا مثل قفص طيور ملىء بالتغريد والسقسقة، حيث هناك دائمًا أشياء مثيرة من ارتباطات الآخرين وزيجاتهم: ومع أصدقائها الرجال، الذين كانوا يعاملونها بالضبط كأحد الرفاق الطيبين، دون أية مهاترات من ذلك الشىء السخيف المسمى بالجنس.

لكن كل النساء يصبح لديهن وعى، إن آجلاً أو عاجلاً، بذلك الضغط غير المدرك، ولكنه فى قوة الصلب لفكرة الزواج، ومارى، التى لم تكن عرضة للاستسلام إلى الجو السائد أو لما يرمى إليه الناس ضمنيًا، وجدت نفسها وجهًا لوجه مع هذا الإحساس فجأة، وبشكل كريه للغاية.

كانت فى بيت إحدى صديقاتها المتزوجات، جالسة فى الشرفة، وهناك غرفة مضاءة خلفها. كانت

وحدها؛ وسمعت الناس يتحدثون بأصوات خفيضة، والتقطت اسمها يتردد بينهم. قامت لتدخل وتعلن عن وجودها: كانت أول فكرة خطرت ببالها، كما هى طبيعتها، أنه كم يكون كريهًا أن يعرف أصدقاؤها أنها اختلست السمع. فغاصت فى مقعدها مرة أخرى، وانتظرت لحظة مناسبة لتتظاهر بأنها قد جاءت لتوها من الحديقة. وكانت هذه هى المحادثة التى استمعت إليها، بينما شعرت بوجهها يحترق ويديها تسرى فيهما برودة رطبة.

"إنها لم تعد فى الخامسة عشرة: هذا شىء مضحك! لابد أن يحدثها أحد عن ثيابها".

"كم عمرها الآن؟"

"لابد أن تكون قد تخطت الثلاثين. لقد كانت مستمرة بقوة. كانت تعمل قبل أن أبدأ العمل بوقت طويل، وهذا منذ ما لا يقل عن اثنى عشر عامًا"

"لماذا لا تتزوج؟ لابد أنها كانت لديها فرص كثيرة".

كانت هناك ضحكة جافة. "لا أظن ذلك. كان زوجى نفسه يفكر فيها ذات مرة، لكنه يظن أنها لن تتزوج أبدًا. فهى ليست من هذا النوع، ليست من هذا النوع على الإطلاق. هناك شىء ما غير موجود فى جانب من شخصيتها".

"أوه، لا أعرف"

"لقد ابتعدت عن المألوف كثيرًا، على أية حال. منذ أيام وقع نظرى عليها فى الشارع، وكدت لا أعرفها. إنها حقيقة! الطريقة التى تلعب بها كل تلك الألعاب، بشرتها أصبحت مثل ورق الصنفرة، وأصبحت شديدة النحافة".

"لكنها فتاة لطيفة جدًا".

"ومع ذلك، فلن تستطيع أن تأتى عملاً خارقًا للعادة".

"إنها يمكن أن تكون زوجة طيبة جدًا. إن مارى من النوع الطيب".

"لابد أن تتزوج شخصًا أكبر منها بسنوات. من الممكن أن يناسبها رجل فى الخمسين... سوف ترى، سوف تتزوج شخصًا فى سن أبيها فى يوم من الأيام".

"لا يمكن للمرء أن يخمن!"

وكانت هناك ضحكة أخرى، ضحكة من القلب، لكنها بدت قاسية وشريرة لمارى. لقد أصيبت بالذهول والغضب؛ ولكن أهم شىء، أنها شعرت بجرح عميق لأن أصدقاءها استطاعوا أن يتناقشوا حولها بهذه الطريقة. لقد كانت شديدة السذاجة، غير مدركة وواعية بالنسبة للآخرين، حتى أنها لم تتخيل أبدًا أن الناس يمكن أن يناقشوها من وراء ظهرها. والأشياء التى قالوها! جلست هناك مغتاظة، تعتصر يديها. ثم تمالكت نفسها، ودخلت إلى الغرفة لتلحق بـ"صديقاتها الخائنات، اللائى حيينها بحرارة وكأنما لم يكن فى

تلك اللحظة نفسها قد غرزن خناجر فى قلبها وأخرجنها عن توازنها؛ لم تستطع أن تتعرف على نفسها فى الصورة التى صورنها لها!

تلك الحادثة الصغيرة، التى هى فى الظاهر قليلة الأهمية، والتى كان يمكن ألا يكون لها أى تأثير على شخص لديه أقل فكرة عن نوع العالم الذى تعيش فيه، كان لها تأثير عميق على مارى. هى التى لم يكن لديها وقت أبدًا للتفكير فى نفسها، والتى اعتادت الجلوس فى حجرتها ساعات أحيانًا تسائل نفسها: "لماذا قالوا تلك الأشياء؟ ماذا جرى لى؟ ماذا يعنون عندما قالوا إننى لست من هذا النوع؟". كانت تنظر بقلق، ورجاء، إلى وجوه الأصدقاء لترى لو كانت تستطيع أن تجد فيها آثارًا لإدانتهم لها. وشعرت بالمزيد من التشوش والتعاسة، لأنهم كانوا يبدون كالعادة دائمًا، يعاملونها بذلك الود المعتاد. بدأت تشك فى وجود معانٍ مزدوجة لم تكن مقصودة، وتجد بعض الحقد فى نظرة شخص لم يكن يشعر ناحيتها إلا بالمودة.

وعندما راحت تدير الكلمات التى سمعتها بالمصادفة فى عقلها، فكرت فى بعض الأشياء لتحسن من نفسها. ففكت الشريط من شعرها، رغم أنها فعلت ذلك آسفة، لأنها كانت تظن أنها تبدو جميلة جدًا مع تلك الخصلات حول وجهها، الذى يميل إلى النحول؛ واشترت لنفسها بعض الملابس المصنوعة عند الترزى، والتى شعرت بأنها غير مستريحة فيها، لأنها كانت تشعر حقًا بالارتياح فى ارتداء الجيليه والتنورات

الطفولية. ولأول مرة فى حياتها شعرت بأنها غير مرتاحة مع الرجال. كان لديها نوع من الازدراء لهم، لكنها لم تكن واعية به، وهو الذى حماها من الجنس بكل تأكيد كما لو كانت بالفعل شخصية لا تشعر بالرغبة على الإطلاق. ما حدث هو أن جزءًا صغيرًا من هذا الازدراء قد ذاب، وفقدت معه رباطة جأشها. وبدأت تنظر حولها باحثة عمن يمكن أن تتزوجه. لم تكن واعية بالأمر هكذا؛ ولكن على أية حال، لم تكن مارى إلا كائنًا اجتماعيًا، رغم أنها لم تفكر أبدًا فى "المجتمع"، كفكرة مجردة؛ وإذا كان أصدقاؤها يرون أنها لابد أن تتزوج، فلابد أن هناك شيئًا. وإن لم تكن قد تعلمت أبدًا أن تضع مشاعرها فى الكلمات، فربما كانت تلك هى الطريقة التى تعبر بها عن نفسها. وكان أول رجل تسمع له بالاقتراب منها أرمل فى الخامسة والخمسين له أطفال فى عمر الصبا. وكان ذلك لأنها شعرت ببعض الأمان معه... لأنها لم تكن تربط بين المشاعر الملتهبة والعناق بالرجال فى منتصف العمر الذين كان موقفهم أبويًا تقريبًا تجاهها.

كان يعرف جيدًا ماذا يريد: صحبة لطيفة، أمًّا لأولاده، وشخصًا يدير بيته له. ووجد فى مارى صحبة طيبة، وكانت طيبة مع أولاده. والواقع أنه لا يوجد ما هو أكثر مناسبة من ذلك، حيث من الواضح أنها تريد الزواج، كان هذا هو نوع الزواج الذى يناسبها جيدًا. لكن الأشياء لم تسر كما يجب. لقد نظر إلى تجربتها بدون تقدير، وبدا له أن المرأة التى استطاعت أن تكون

مستقلة طويلاً هكذا لابد أن لها عقلها الخاص وتفهم ما يقدمه لها. وتطورت علاقة واضحة لكل منهما، حتى تقدم لها، وقبلته، وبدأ يمارس الحب معها. ثم إذا بشعور عنيف بالرفض والنفور يغلبها، وهربت؛ كانا فى غرفة الاستقبال المريحة فى منزله، وعندما بدأ يقبلها، جرت خارجة من البيت فى الليل، وظلت تجرى طوال الطريق فى الشوارع حتى النادى. وهناك سقطت على الفراش وبكت. ولم تكن مشاعره نحوها من النوع الذى يمكن أن تعززه هذه الطريقة الحمقاء، والتى يمكن أن يجدها رجل أصغر فى السن، واقع فى حبها بشدة، ساحرة. فى الصباح التالى شعرت بالرعب من سلوكها هذا. أى سلوك هذا؛ هى التى كانت دائمًا متمالكة لنفسها، والتى كانت تكره المناظر والازدواجية كما لم تكره شيئًا آخر. اعتذرت له، لكن كانت هذه هى النهاية.

والآن، كانت وحدها تمامًا، لا تعرف ماذا تريد. وبدا لها أنها هربت منه لأنه كان "رجلاً عجوزًا"، هكذا انتظمت المسألة فى رأسها. فارتجفت، وبدأت تتجنب الرجال الذين يزيدون على الثلاثين. وكانت هى نفسها فوق الثلاثين؛ لكن رغم كل شىء، كانت تفكر فى نفسها كفتاة لا تزال صغيرة.

كانت طوال الوقت، دونما وعى منها، وبدون أن تعترف بذلك لنفسها، كانت تبحث عن زوج.

وأثناء تلك الأشهر القليلة قبل أن تتزوج، كان الناس يتحدثون عنها بطريقة كان يمكن أن تصيبها

بالمرض لو ارتابت فى الأمر. ويبدو من الصعب أن مارى، التى كانت تشعر بالعطف نحو إخفاقات الآخرين وفضائحهم، والتى كان شعورها هذا ينبع من كراهية حقيقية أصيلة نحو الأشياء الشخصية مثل الحب والعاطفة، كان محكومًا عليها طوال عمرها أن تكون موضوعًا للقيل والقال.

لكن هذا ما حدث. وفى ذلك الوقت، أيضًا، كانت القصة الصادمة والمثيرة للسخرية إلى حد ما، لتلك الليلة عندما هربت من حبيبها العجوز تنتشر بين الدائرة الواسعة من أصدقائها، رغم أنه كان من المستحيل معرفة من الذى عرف بها فى الأساس. لكن عندما سمعها الناس كانوا يومئون برءوسهم ويضحكون وكأنها تؤكد شيئًا كانوا يعرفونه زمنًا طويلاً. امرأة فى الثلاثين تتصرف بهذه الطريقة! كانوا يضحكون، بشكل غير لطيف نوعًا؛ ففى هذا العصر الذى أصبح فيه الجنس علميًا لا شىء يبدو مثيرًا للسخرية أكثر من الرعونة الجنسية. لم يسامحوها على ذلك؛ ضحكوا، وشعروا أنها تستحق ذلك بشكل ما. قالوا إنها تغيرت كثيرًا؛ أصبحت تبدو شديدة الجهامة وغير أنيقة، وكانت بشرتها سيئة جدًا؛ وتبدو وكأنها على وشك المرض؛ لابد أنها تعانى انهيارًا عصبيًا بكل وضوح، وهذا شىء متوقع فى مثل عمرها، بالطريقة التى تعيش بها وكل شىء؛ كانت تبحث عن رجل ولم تستطع أن تحصل عليه. ولكن،

كانت سلوكياتها شديدة الغرابة، فى تلك الأيام....
كانت تلك بعض الأشياء التى يقولونها عنها.

من المريع أن يقوم إنسان بتدمير صورة نفسه لصالح الحقيقة أو شىء آخر مجرد. كيف يمكن أن يعرف المرء أنه سيكون قادرًا على خلق صورة أخرى تمكنه من الاستمرار فى الحياة؟ لقد دمرت فكرة مارى عن نفسها، ولم تكن قادرة على إعادة تشكيل ذاتها. لم تكن قادرة على أن تكون موجودة بدون تلك الصداقة الاتفاقية الموضوعية مع أناس آخرين؛ والآن بدا لها أن ثمة إشفاقًا فى الطريقة التى ينظرون بها إليها، وبعضًا من عدم التحلى بالصبر أيضًا، كما لو كانت حقًّا امرأة تافهة على أية حال. شعرت كما لم تشعر أبدًا من قبل، شعرت بالخواء من الداخل، بالفراغ، وداخل هذا الفراغ يتأرجح نوع من الجزع الهائل الآتى من لامكان، وكأنما لم يكن ثمة شىء فى العالم يمكن أن تمسك به أو تقبض عليه. كانت تخشى لقاء الناس، وتخشى قبل كل شىء، الرجال. فإذا قبلها رجل (وهم كانوا يفعلون هذا، شاعرين بحالتها الجديدة)، كانت تنفر؛ ومن ناحية أخرى، أصبحت تذهب إلى السينما أكثر مما كانت تفعل من قبل، وكانت تعود فى حالة اهتياج وعدم استقرار. وبدا أن لا علاقة هناك بين المرآة المشوهة للشاشة، وحياتها الخاصة؛ كان من المستحيل أن تسوى بين ما تريده لنفسها وما يقدم إليها.

فى سن الثلاثين، كانت تلك المرأة التى نالت تعليمًا من نوعية "جيدة"، والتى تعيش حياة تستمتع بها تمامًا بطريقة متحضرة، ولديها الفرصة للدخول إلى كل معارف عصرها (فيما عدا أنها لم تكن تقرأ سوى الروايات الرديئة)، كانت تلك المرأة لا تعرف عن نفسها إلا القليل لدرجة أنها فقدت توازنها تمامًا بسبب بعض النميمة من نساء قلن إنها ينبغى أن تتزوج.

ثم التقت بديك تيرنر. كان يمكن أن يكون أى شخص. أو على الأصح، كان يمكن أن يكون أول رجل صادفها يعاملها كما لو كانت رائعة ومتفردة. كانت فى أشد الحاجة إلى ذلك. كانت بحاجة إلى ذلك لتستعيد إحساسها بالتفوق على الرجال، والذى كان هو فى الواقع، وفى جوهر الأمر، ما تعيش عليه طوال تلك السنوات.

التقيا مصادفة فى السينما. كان فى المدينة يقضى يومًا قادمًا من مزرعته. وكان نادرًا ما يأتى إلى المدينة، إلا عندما يكون بحاجة لشراء أشياء لا يستطيع أن يجدها فى الدكان المحلى، وكان ذلك يحدث ربما مرتين فى العام. وفى هذه المرة، التقى مصادفة برجل لم يره منذ سنوات، وأقنعه بقضاء الليلة فى المدينة والذهاب إلى السينما. وقد دُهش عندما وجد نفسه يوافق: كل هذا بدا بعيدًا جدًا عنه. اللورى الخاص بمزرعته، يقف خارج السينما، تتكوم عليه أجولة الحبوب وجرافتان، ويبدو فى مكان غير مناسب ومزعج بضخامته وثقله؛ ونظرت مارى من

النافذة الخلفية على هذه الأشياء الغريبة وابتسمت. كان من الضرورى لها أن تبتسم عندما رأتها. كانت تحب المدينة، وتشعر بالأمان فيها، وكانت مرتبطة فى طفولتها بالريف، بسبب تلك المحطات التى كانت تعيش فيها، والطريقة التى كانت كلها محاطة بأميال وأميال من اللاشىء . أميال وأميال من المروج بأشجارها القليلة المتناثرة.

وكان ديك تيرنر يكره المدينة. عندما قاد سيارته داخلاً المدينة وخارجًا من المروج التى يعرفها جيدًا، وخلال تلك الضواحى القبيحة المتناثرة التى تبدو وكأنها خارجة من كتالوجات المنازل؛ بيوت صغيرة قبيحة ملصقة بأى شكل فوق المروج، والتى لا علاقة لها بالتربة الإفريقية السمراء وقبة السماء الزرقاء الممتدة، بيوت صغيرة مريحة كان المقصود بها بلادًا صغيرة مريحة . ثم إلى الجزء الخاص بالأعمال من المدينة الملىء بدكاكين الموضة للنساء اللطيفات والأطعمة الفاخرة المستوردة، كان يشعر بأنه غير مرتاح وعلى غير سجيته، بل ومستهلكًا.

كان يعانى من رهبة الأماكن الضيقة. أراد أن يهرب بسرعة . إما أن يهرب أو يحطم المكان كله. وهكذا كان دائمًا يهرب بأسرع ما يمكن عائدًا إلى مزرعته حيث كان يشعر بالراحة.

ولكن هناك آلاف الناس فى إفريقيا يمكن رفعهم بأجسادهم خارج ضواحيهم ووضعهم فى بلدة فى

الجانب الآخر من العالم دون أن يلاحظوا أى فرق. فالضاحية كالقدر الذى لا مهرب منه ولا سبيل لمقاومته مثلها فى ذلك مثل المصانع، وحتى جنوب إفريقيا الجميل، الذى انتهكت تربته بتلك الضواحى الصغيرة الجميلة التى تزحف فوقه كالمرض، لا يمكنه النجاة. عندما كان ديك تيرنر يرى تلك الضواحى، ويفكر فى الطريقة التى يحيا بها الناس فيها، والطريقة التى يدمر بها العقل الذى يعيش فى الضواحى "بلده"، كانت تنتابه رغبة فى أن يسب وأن يحطم وأن يقتل. لم يكن يستطيع احتمالها. ولم يكن يعبر عن تلك المشاعر بالكلمات، فقد ضاعت منه عادة نسج الكلمات، فى طريقة الحياة التى يعيشها، بالخارج على التربة طوال اليوم. لكن هذا الإحساس كان أقوى المشاعر التى عرفها. كان يشعر أنه قادر على قتل رجال البنوك، ورجال المال، وذوى السلطة والمكانة، والبائعين والموظفين الصغار - كل الناس الذين بنوا بيوتًا صغيرة متكلفة ذات حدائق مسورة مليئة بالزهور الإنجليزية التى يفضلونها.

وقبل كل شىء، كان يعاف السينما. عندما وجد نفسه داخل دار السينما فى هذه المناسبة، فكر متعجبًا أى هاجس تملكه وجعله يوافق على المجىء. لم يكن قادرًا على الاحتفاظ بعينيه على الشاشة. كانت النساء ذوات السيقان والأذرع الطويلة والوجوه الناعمة يشعرنه بالضجر؛ والقصة بدت لا معنى لها. وكان المكان حارًا وخانقًا. بعد قليل تجاهل الشاشة تمامًا،

وبدأ ينظر إلى الجمهور. أمامه، وإلى جانبيه، وخلفه، صفوف وصفوف من الناس يبحلقون ويولون ظهورهم لبعضهم البعض ملتفتين إلى الشاشة ـ مئات من الناس طائرين خارج أجسادهم يعيشون حيوات أولئك الأغبياء الذين يستعرضون هناك. هذا الموقف جعله يشعر بعدم الارتياح والقلق.

تململ، وأشعل سيجارة، وحدق فى الستائر الداكنة الفاخرة المسدلة على منافذ الخروج. وثم، وهو ينظر فى الصف الذى كان جالسًا فيه، رأى شعاعًا من الضوء يسقط من مكان ما فى الأعلى، ليظهر منحنى وجه وخصلة من الشعر المتألق المائل إلى الاصفرار. بدا له الوجه طافيًا، تواقًا إلى الأعلى، متوردًا فى الضوء المخضر الغريب. نخس الرجل الجالس إلى جواره وقال: "من هذه؟" بعد نظرة سريعة، جاءته الإجابة بصوت خشن: "مارى". لكن هذه الإجابة لم تكن مفيدة كثيرًا بالنسبة لديك. حدق فى هذا الوجه الطافى الجميل والشعر الساقط، وبعد انتهاء العرض، نظر باحثًا عنها فى الازدحام خارج الباب. لكنه لم يستطع رؤيتها، فافترض، فى فكرة مبهمة، أنها غادرت مع شخص آخر. وطُلب منه توصيل فتاة، لم يكد ينظر إليها على الإطلاق. كانت ترتدى ثيابًا بدت له مضحكة، وأراد أن يضحك على كعب حذائها المرتفع، والتى كانت تدق به إلى جواره عبر الشارع. وفى السيارة نظرت خلف كتفيها إلى الكومة خلف اللورى، وسألت فى صوت متأثر متعجل: "ما هذه الأشياء المضحكة فى الخلف؟"

سألها: "ألم يسبق لك رؤية الجرافة؟" أنزلها بلا أسف فى المكان الذى تعيش فيه، بناية كبيرة بدت مليئة بالأضواء والناس. ونسيها فى الحال.

لكن الفتاة أتته فى الحلم بذلك الوجه الشاب المتعالى، وموجة الشعر المتألق المتحرر. كان الحلم بامرأة ترفًا، فقد حرم نفسه من هذه الأشياء. كان قد بدأ يزرع قبل خمس سنوات، وكان لا يزال غير قادر على جنى أية أرباح. كان مدينًا إلى بنك لاند، ومدينًا بالكثير للرهن العقارى، فلم يكن يملك أى رأس مال على الإطلاق عندما بدأ. وتخلى عن الشرب والسجائر وكل شىء إلا الضروريات. وكان يعمل فقط كرجل تتملكه رؤية واحدة، من السادسة صباحًا حتى السابعة فى الليل، يتناول وجباته فى الأرض، كل كيانه مركز على المزرعة. كان حلمه هو أن يتزوج وينجب أطفالاً. لكنه لم يستطع أن يطلب من امرأة أن تشاركه فى مثل هذه الحياة. فى البداية يجب أن يخرج من الديون، ويبنى بيتًا، ويكون قادرًا على توفير بعض الرفاهية. ولأنه ظل يرهق نفسه سنوات بالعمل، كان جزءًا من حلمه أن تكون لديه زوجة يدللها. كان يعرف تمامًا أى نوع من البيوت سوف يبنى: ليس واحدًا من تلك البيوت التافهة الأشبه بالكتلة الملتصقة على وجه الأرض. كان يريد بيتًا كبيرًا مسقوفًا بشرفات واسعة مفتوحة أمام الهواء. بل لقد اختار كومة النمل التى سوف يحفرها، لصناعة طوب البيت، وحدد أجزاء المزرعة التى ينمو فيها العشب أعلى ما يكون، أطول

من الرجل الكبير، لكى يستخدمه فى السقف. ولكن كان يبدو له أحيانًا أنه بعيد جدًا عن أن يصل إلى ما يريد. كان الحظ السيئ يلاحقه. كان يعرف أن المزارعين حوله يسمونه "يونان"(*). فإن كان هناك جفاف، يبدو أنه يحمل العبء الأكبر منه، وإذا أمطرت مطرًا شديدًا يحول الأرض إلى مستنقعات، فمزرعته هى أكثر المزارع معاناة منه. وإن قرر أن يزرع قطنًا لأول مرة، تهبط أسعار القطن فى تلك السنة هبوطًا شديدًا، وإذا كان هناك سرب جراد، فإن من المسلم به، مع شعوره بالغضب ولكن بحتمية قدرية، أن هذا السرب سوف يتوجه مباشرة إلى أهم رقعة واعدة من الذرة فى أرضه. وأصبح حلمه أقل فخامة فى الفترة الأخيرة. كان وحيدًا، بحاجة إلى زوجة، وقبل كل شىء، إلى أطفال؛ والطريقة التى تسير بها الأشياء توحى بأن سنوات سوف تمر قبل أن يحقق ذلك. كان قد بدأ يفكر أنه لو استطاع أن يدفع جزءًا من الرهن، وإضافة غرفة إلى منزله، وربما أن يحصل على بعض الأثاث، يمكن حينها أن يفكر فى الزواج. وفى الوقت نفسه، كان يفكر فى فتاة السينما. وأصبحت بؤرة عمله وتخيلاته. ولعن نفسه على ذلك، لأنه كان يعلم أن التفكير فى النساء، وعلى وجه الخصوص امرأة "واحدة"، كان مسألة فى خطورة الشرب بالنسبة له، لكن لا فائدة. بعد شهر واحد من زيارته للمدينة، وجد

(*) يونان، أو النبى، ويطلق الاسم على شخص يعتبر جالبًا للنحس أو مصدر شؤم. (المترجمة).

نفسه يخطط لزيارة أخرى. لم تكن زيارة ضرورية، وكان يعلم هذا. لكنه تخلى عن فكرة إقناع نفسه بأنها ضرورية. فى المدينة، أنهى المهام الصغيرة التى كان عليه أداؤها بسرعة، وذهب ليبحث عن شخص يمكن أن يخبره بالاسم العائلى لـ "مارى".

وعندما قاد السيارة إلى البناية الكبيرة، عرفها، ولكنه لم يربط بين البنت التى أوصلها البيت تلك الليلة بفتاة السينما. حتى عندما جاءت إلى الباب، ووقفت فى الردهة لترى من هو، لم يتعرف عليها. رأى فتاة طويلة، نحيفة، بعينين زرقاوين عميقتين، مراوغتين إلى حد ما، تبدوان متألمتين. كان شعرها فى خصلات مربوطة حول رأسها؛ وترتدى بنطلونًا. كانت النساء لابسات البنطلونات يبدين له خاليات من الأنوثة، ربما كان "دقة قديمة". ثم قالت، "هل طلبت رؤيتى؟" شعر ببعض الحيرة والخجل؛ وفجأة تذكر ذلك الصوت السخيف وهو يسأل عن الجرافتين وحدق فيها مرتابًا. شعر بخيبة أمل حتى أنه بدأ يتمتم ويبدل قدميه. ثم فكر أنه لا يمكن أن يقف هناك إلى الأبد، محدقًا فيها، وسألها أن تخرج معه فى نزهة بالسيارة. لم تكن أمسية لطيفة. كان غاضبًا من نفسه بسبب أوهامه الخادعة وضعفه؛ وهى شعرت بإشباع لكبريائها، ولكن مع حيرة عن السبب الذى جعله يسعى إليها، حيث إنه لم يتحدث تقريبًا بعد أن جلست معه فى السيارة وراح يقودها بلا هدف حول المدينة. لكنه أراد أن يجد فيها الفتاة التى انتابته ولاحقته، وعندما

أوصلها إلى البيت كان قد توصل إلى تحقيق ذلك. ظل ينظر إليها بطرف عينه وهما يعبران تحت مصابيح الطريق، واستطاع أن يرى كيف أن خدعة الضوء يمكنها أن تخلق شيئًا جميلاً وغريبًا من فتاة عادية وليست شديدة الجاذبية. وهنا، بدأ يحبها، لأنه كان من المهم بالنسبة له أن يحب شخصًا ما؛ لم يكن يعرف كم كان وحيدًا. وعندما تركها تلك الليلة، كان آسفًا، قائلاً إنه سوف يعود مرة أخرى سريعًا.

وعندما عاد إلى المزرعة، بدأ يقوم بالمهمة. سوف ينتهى هذا بالزواج إن لم يكن حذرًا، وهو ببساطة لا يستطيع تحمل تكاليف الزواج. إذًا فتلك هى نهاية الأمر؛ سوف ينساها، ويضع الأمر برمته خارج عقله. بالإضافة إلى ذلك، ماذا يعرف عنها؟ لا شىء على الإطلاق! إلا أنها فيما هو واضح، كما قال لنفسه "مدللة تمامًا". لم تكن من النوع الذى يمكن أن يشارك فى حياة مزارع مكافح. وهكذا راح يجادل نفسه، وهو يعمل باجتهاد أشد مما فعل من قبل، ويفكر أحيانًا: "على أية حال، لو كان المحصول جيدًا هذا العام فقد أعود وأراها". كان معتادًا أن يسير عشرة أميال بين المروج ببندقيته بعد يوم العمل ليجهد نفسه. كان يستهلك نفسه تمامًا، وأصبح نحيفًا ويبدو مشغول البال. ظل يجاهد نفسه لشهرين كاملين، حتى وجد نفسه فى أحد الأيام يعد نفسه لأخذ السيارة إلى المدينة، كأنما كان قد قرر ذلك منذ فترة، وكأنما كل محاولاته لإخضاع نفسه وتحذيرها لم تكن إلا درعًا

يخبئ فيه عن نفسه نيته الحقيقية. وبينما كان يرتدى ثيابه كان يصفر برضا عن النفس، ولكن مع نغمة خافتة مكتئبة؛ وارتسمت على وجهه ابتسامة هزيمة حائرة.

أما مارى، فإن هذين الشهرين كانا كابوسًا طويلاً. لقد جاء كل هذا الطريق من مزرعته بعد أن قابلها مرة واحدة لم تدم سوى دقائق، ثم، بعد أن قضى أمسية معها، لم يفكر أن الأمر يستحق أن يعود. كان أصدقاؤها على حق، هناك شىء ينقصها. هناك شىء خطأ فى تكوينها. لكنها التصقت بالتفكير فيه، رغم حقيقة أنها قالت لنفسها إنها لا فائدة منها، إنها شخصية فاشلة، مخلوق مثير للسخرية لا يريده أحد. وتخلت عن الخروج فى الأمسيات، وظلت فى غرفتها تنتظر منه أن يأتى ويسأل عنها. جلست ساعات وساعات وحدها، عقلها فى حالة خدر من التعاسة؛ وفى الليل كانت تحلم أحلامًا رمادية طويلة كانت فيها تناضل وسط الرمال، أو تتسلق سلالم تنهار بمجرد أن تصل إلى قمتها، فتنزلق إلى القاع مرة أخرى. كانت تسير فى الصباح متعبة ومكتئبة، غير قادرة على مواجهة اليوم. طلب منها رئيسها، الذى كان معتادًا على كفاءتها البالغة، أن تأخذ إجازة وألا تعود حتى تشعر بأنها فى حالة أفضل. تركت المكتب، شاعرة وكأنها قد طردت من عملها (رغم أنه لم يستطع أن يكون ألطف من ذلك أمام انهيارها)، وبقيت طوال اليوم فى النادى. إذا ذهبت فى إجازة بعيدة فقد يأتى

ديك وهى غير موجودة. لكن ماذا يكون ديك بالنسبة لها، فى الواقع؟ لا شىء. لم تكن تعرفه بالكاد. لقد كان شابًا تافهًا، لوحته الشمس، بطىء الكلام، عميق العينين، دخل حياتها مصادفة، وكان هذا كل ما تستطيع أن تقوله عنه. ومع ذلك، فقد كان يمكن أن تقول إنها أمرضت نفسها من أجل خاطره. كل قلقها، كل مشاعرها المبهمة بعدم الاكتمال، كانت متركزة عليه، وعندما سألت نفسها، فى فزع وجزع، لماذا هو، وليس أى واحد من الرجال الآخرين الذين تعرفهم، لم تكن تستطيع أن تجد إجابة شافية.

بعد أن تخلت عن الأمل بأسابيع، وبعد أن ذهبت إلى الطبيب ليصف لها علاجًا؛ لأنها "تشعر بتعب"، وبعد أن قيل لها إنها ينبغى أن تأخذ إجازة فى الحال، لو أرادت أن تتجنب الانهيار التام؛ عندما وصلت إلى مرحلة من التعاسة جعلت من المستحيل بالنسبة لها أن تلتقى أيًا من أصدقائها القدامى، ولأن الهاجس الذى يستحوذ عليها بأن صداقتهم كانت مجرد عباءة تختفى تحتها نميمة شريرة وكراهية حقيقية لها، ذات مساء.. قيل لها إن هناك من يطلبها عند الباب. لم تكن تفكر فى ديك. وعندما رأته تطلب الأمر أن تحاول بكل وسيلة التحكم فى الذات لتحييه بهدوء؛ لو كانت أظهرت عاطفتها فمن المحتمل أن يتخلى عنها رغم كل شىء. حتى الآن كان يقنع نفسه بتصديق أنها شخصية عملية، سريعة التكيف، هادئة، ولن تحتاج إلا أسابيع قليلة فى المزرعة لتصبح على ما يريدها أن

تكون. كان يمكن لدموع هستيرية أن تدمر صورتها فى عينيه.

كانت تلك من الواضح أنها مارى الهادئة، الأمومية، التى وجدها أمامه. كان هائمًا، ومتواضع النفس، وشاكرًا عندما قبلت عرضه. وتزوجا بوثيقة خاصة بعد أسبوعين. كانت رغبتها فى الزواج بأسرع ما يمكن قد أدهشته؛ كان يراها شخصية مشغولة وعامة ولها مكان مضمون فى الحياة الاجتماعية للمدينة، وظن أن الأمر سيستغرق بعض الوقت لتستطيع ترتيب شئونها: هذه الفكرة كانت جزءًا من جاذبيتها بالنسبة له. لكن الزواج السريع جاء مناسبًا لخططه، فى الواقع. كان يكره فكرة أن يظل فى المدينة بانتظار امرأة مهووسة بالملابس ووصيفات العرس. لم يكن هناك شهر عسل. وشرح أنه فى الواقع فقير جدًا بحيث لا يستطيع تحمل تكاليفه، رغم أنها لو أصرت لفعل ما يمكنه. لكنها لم تصر. لقد شعرت بارتياح شديد للتخلص من شهر العسل.

-٣-

كان الطريق من المدينة إلى المزرعة طويلاً، أكثر من مائة ميل، وعندما قال لها إنهما عبرا الحدود، كان الوقت قد أصبح متأخرًا فى الليل. كانت مارى نصف نائمة، فرفعت نفسها لتنظر إلى مزرعته، ورأت الظلال القاتمة للأشجار الصغيرة، التى تشبه طيورًا عظيمة ناعمة، تطير إلى الخلف من السيارة العابرة، وخلفها سماء ضبابية انشقت وتناثرت فيها النجوم. كانت أطرافها فى حالة ارتخاء من التعب، مما جعل أعصابها تهدأ. كان رد الفعل على الضغوط التى عانتها فى الأشهر القليلة الماضية هى نوع من الإذعان الفاتر، نوع من الخدر، كان أشبه باللامبالاة. كانت تفكر أنه سيكون من اللطيف أن تعيش حياة هادئة كنوع من التغيير: ولم تفكر كم كانت متعبة، بعد تلك السنوات التى عاشتها كترس معشق بالمطالب المستمرة لما سوف يأتى. قالت لنفسها، بإصرار على المواجهة، إنها سوف "تقترب من الطبيعة". كانت هذه عبارة

استطاعت بها أن تخفف من كراهيتها للمروج. "الاقتراب من الطبيعة"، التى كانت ترسمها، على أية حال، المشاعر الرقيقة اللطيفة فى الكتب من النوع الذى تقرؤه، كان نوعًا من التجريد الذى يجلب شعورًا بالطمأنينة. فى نهايات الأسبوع، عندما كانت تعمل فى المدينة، كانت كثيرًا ما تذهب إلى نزهات مع مجموعة من الشباب، ليقضوا اليوم كله على الصخور الساخنة فى الظل، ويستمعون إلى موسيقى راقصة من أمريكا على جرامافون من النوع المحمول، وقد فكرت فى أن ذلك أيضًا هو نوع من "الاقتراب من الطبيعة". كانت تقول: "من اللطيف أن نخرج من المدينة". لكن مثل معظم الناس، كانت الأشياء التى تقولها لا تحمل أية علاقة على الإطلاق بالأشياء التى تشعر بها: كانت دائمًا تشعر بارتياح عميق عند العودة إلى صنابير المياه الباردة والدافئة، والشوارع، والمكتب.

ومع ذلك، سوف تكون سيدة نفسها، هذا هو الزواج، هذا هو ما تزوجت صديقاتها من أجله - ليكون لديهم بيوتهم الخاصة ولا أحد يقول لهن ماذا يفعلن. شعرت بشعور مبهم أنها فعلت الصواب بالزواج - فقد كان الآخرون جميعًا على صواب. فعندما تنظر إلى الخلف، يبدو لها أن كل الناس الذين قابلتهم كانوا يحثونها بصمت وفى سرية، ولكن بلا هوادة، على الزواج. سوف تكون سعيدة. لم تكن لديها أية فكرة عن الحياة التى ستعيشها. والفقر، الذى حذرها ديك منه ببعض التواضع المشكوك فيه، كان نوعًا آخر من

المجردات، لا علاقة له بطفولتها البائسة المحرومة. كانت تراه نوعًا آخر من الكفاح المبهج ضد الصعاب.

توقفت السيارة أخيرًا، ورفعت مارى نفسها لتنظر. كان القمر قد اختفى خلف سحابة بيضاء كبيرة مضيئة، وفجأة أصبحت الدنيا شديدة الإظلام. أميال من الظلام تحت سماء معتمة تتناثر فيها النجوم. فى كل مكان حولها كانت أشجار، الأشجار المسطحة الجاثمة للمروج المرتفعة، التى تبدو وكأن وطأة الشمس قد جعلتها منحرفة مشوهة، تبدو الآن كأشياء مظلمة مبهمة تقف متناثرة فى الفسحة الصغيرة التى وقفت فيها السيارة. كان ثمة بناء مكعب صغير بدا سقفه المموج يلمع بلون مبيض بينما انزلق القمر ببطء من خلف السحابة وغمر الفسحة بالضوء. خرجت مارى من السيارة وراحت تراقبها وهو يقودها حول البيت إلى الخلفية. نظرت حولها، ترتعش قليلاً، فقد هب نسيم بارد من بين الأشجار وعلق بالفضاء فى المرج حولهما ضباب أبيض بارد. واستمعت وسط الصمت التام إلى أصوات عديدة لضوضاء ضعيفة قادمة من الدغل، وكأن مستعمرات لمخلوقات غريبة قد تحركت لتراقب حضورهما، وهى الآن تعود إلى شئونها. ألقت نظرة إلى البيت؛ كان يبدو مغلقًا ومظلمًا ومكدسًا، تحت ضوء القمر المتدفق. ولمع أمامها صف من الأحجار المتراصة بضوء أبيض، وسارت بمحاذاتها، بعيدًا عن البيت نحو الأشجار، وهى تراها تكبر وتزداد نعومة كلما اقتربت. ثم سمعت صيحة طائر غريب، صوت ليلى برى،

فاستدارت وجرت عائدة فجأة فى رعب، وكأن ريحًا معادية قد هبت عليها، من عالم آخر، من بين الأشجار. تعثرت فى كعبها العالى على الأرض غير المستوية، واستعادت توازنها، وسمعت صوت حركة وصوت دجاج أيقظته أضواء السيارة، وأراحها الصوت الأليف. وقفت أمام البيت، ومدت يدها لتلمس أوراق نبات يقف فى صفيحة على جدار الشرفة. وتعطرت أصابعها بالرائحة الخفيفة لنبات الجيرانيوم. ثم ظهر مربع من الضوء على جدار البيت الأبيض، ورأت خيال ديك الطويل يتحرك داخله، وقد ضببه ضوء الشمعة التى يحملها أمامه. طلعت الدرجات إلى الباب، ووقفت تنتظر. اختفى ديك مرة أخرى، تاركًا الشمعة على المنضدة. وفى الضوء الأصفر الخافت بدت الغرفة صغيرة، صغيرة جدًّا؛ وسقفها واطئ للغاية؛ كان السقف مصنوعًا من الحديد المموج الذى رأته من الخارج؛ وكانت ثمة رائحة عتيقة، أشبه برائحة الحيوانات. عاد ديك يحمل علبة كاكاو قديمة وقد سويت عند قمتها لتكوين طرف لسكب السائل، وتسلق على المقعد تحت المصباح المعلق ليملأه. تقاطر سائل البارافين بالأسفل وتناثر على الأرضية، وشعرت بالغثيان من الرائحة القوية. وتوهج الضوء، واضطرب بشدة، ثم استقر على شكل لهب أصفر خفيض. والآن استطاعت أن ترى جلود الحيوانات على الأرضية المبلطة بالطوب الأحمر: جلد نوع من القطط البرية. أو ربما نمر صغير، وجلد نوع من الغزلان بلون بنى

فاتح. جلست، متحيرة إزاء ما رأته من غرابة فى كل شىء. كان ديك يراقب وجهها، كانت تعرف ذلك، باحثًا عن علامات من خيبة الأمل، حملت نفسها على الابتسام، رغم أنها شعرت بضعف منذر بالشر: لم تكن تلك الغرفة الصغيرة المزدحمة والأرض القرميد البسيطة والمصباح الدهنى هى ما تتخيله. ويبدو أن ديك شعر بالرضا لابتسامتها، فرد عليها بابتسامة شاكرة، وقال: "سوف أصنع بعض الشاى". واختفى ثانية. وعندما عاد، كانت واقفة بجوار الجدار، تنظر إلى صورتين معلقتين هناك. واحدة لسيدة تظهر على علبة الشيكولاتة تحمل وردة فى يدها؛ والأخرى لطفل فى حوالى السادسة من عمره، مقصوصة من إحدى الأجندات.

تورد وجهه عندما رآها، وجذب الصورتين من على الجدار. وقال: "لم أنظر إلى هذه الصور منذ سنوات"، وقام بتمزيقها نصفين. قالت: "ولكن، اتركها"، وقد شعرت بأنها دخيلة على الحياة الحميمة لهذا الرجل: فالصورتان، المعلقتان بعفوية على الحائط باستخدام دبابيس المكتب، أعطيتاها لأول مرة نظرة على وحدته، وجعلتاها تفهم تسرعه فى مغازلتها وحاجته الشديدة إليها. لكنها شعرت بأنها غريبة عليه، غير قادرة على أن تكون مناسبة لحاجته. ونظرت إلى الأرض، فرأت الوجه الطفولى الجميل، تحيط به خصلات الشعر الملفوفة، ممزقًا من منتصفه، راقدًا حيث رمى الصورتين. فالتقطتهما، مفكرة أنه لابد مغرم بالأطفال. لم يناقشا أبدًا هذا

الموضوع، فلم يكن ثمة وقت لمناقشة الكثير. وبحثت عن سلة للمهملات، فقد كانت تتضايق لرؤية قصاصات الورق على الأرض. لكن ديك أخذها منها، وجعدها حتى أصبحت كالكرة، وألقى بها إلى ركن الغرفة. وقال بخجل: "يمكننا أن نعلق شيئًا آخر". كان خجله، ومراعاته لها، هو ما جعلها تتراجع عن خجلها. شاعرة بأنها فى حالة حماية معه، وهى ما كانت تشعر به حينما ينظر إليها هكذا، بخجل ومناشدة، لم تكن بحاجة لأن تفكر أنه الرجل الذى تزوجته والذى له حق عليها. جلست، بهدوء ورباطة جأش، أمام الصينية التى أحضرها، وراقبته يصب الشاى. كانت على الصينية الحديدية قطعة قماش بالية، وكوبان مشروخان من حجم ضخم. وأمام موجة الضيق جاء صوته: "لكن هذا عملك الآن"، وتناولت براد الشاى منه وصبت، وهى تشعر به يراقبها بفرحة وفخر.

ها هى الآن هنا، المرأة، تغطى بيته الصغير العارى بوجودها، إنه لا يستطيع أن يتمالك نفسه من الفرح والسعادة. وبدا له أنه كان من الحمق أن ينتظر طويلاً هكذا، يعيش وحده، يخطط مستقبلاً كان الوصول إليه بهذه السهولة. ولإخفاء فرحته، بدأ يتحدث عن البيت، بحياء بسبب فقره، دون أن يرفع عينيه عن وجهها. أخبرها كيف بناه بنفسه، طوبة طوبة، رغم أنه لم يكن يعرف شيئًا عن البناء، لكى يوفر أجور البنائين من الأهالى؛ وكيف أثثه ببطء، فى البداية لم يكن لديه سوى سرير لينام عليه واستخدم

صندوقًا من صناديق العبوات ليأكل عليه؛ وكيف أن أحد جيرانه أعطاه منضدة، وأعطاه آخر مقعدًا، وبالتدريج بدأ المكان يأخذ شكلاً. كانت الدواليب عبارة عن صناديق الوقود وقد تم تلوينها، وغطيت بستائر مطرزة، لم يكن هناك باب بين هذه الغرفة والغرفة الأخرى، لكن تم تعليق ستارة من قماش الأجولة هناك، وقد طرزتها زوجة تشارلى سلاتر، جاره فى المزرعة التالية، بالصوف الأحمر والأسود. وهكذا، سمعت تاريخ كل شىء، ورأت أن ما بدا لها هزيلاً ومثيرًا للرثاء كان بالنسبة له يمثل انتصارات على الصعاب، وبدأت ببطء تشعر أنها لم تكن جالسة فى هذا البيت مع زوجها، وإنما مع أمها، تلاحظها فى كل ما كانت تفعله من اختراعات وترميم وإصلاح. حتى انتفضت فجأة على قدميها بحركة خرقاء، غير قادرة على الاحتمال؛ وقد تملكتها فكرة أن أباها، من قبره، قد أرسل إرادته، وأجبرها على العودة إلى نوع الحياة التى جعل أمها تعيشها.

قالت فجأة: "هيا نذهب إلى الغرفة الأخرى"، كان صوتها مختنقًا. قام ديك، مندهشا وشاعرًا ببعض الإهانة، إذ قطعته وسط روايته لقصص حياته. كانت الغرفة الأخرى هى غرفة النوم. كان هناك دولاب معلق، أيضًا من الأجولة المشغولة؛ ومجموعة من الأرفف، من صناديق الوقود، وتوجد مرآة متوازنة على قمتها: والسرير الذى اشتراه ديك من أجل المناسبة. كان سريرًا مناسبًا من طراز قديم، مرتفعًا وضخمًا:

كانت هذه هى فكرته عن الزواج. كان قد اشتراه فى فرصة تخفيض للأسعار، وشعر وهو يدفع النقود وكأنه يمتلك السعادة نفسها.

وعندما رآها واقفة هناك، تنظر حولها بوجه ضائع عطوف، وهى تمسك يده دون وعى إلى خدها وكأنما تشعر بألم، شعر بالأسف من أجلها، وتركها وحدها لتغير ثيابها. وغير ثيابه خلف الستارة، وبينما يفعل شعر مرة أخرى بوخزة مريرة من الإحساس بالذنب. لم يكن من حقه أن يتزوج، لم يكن من حقه. قالها من تحت أنفاسه، معذبًا نفسه بتكرارها؛ وعندما دق بخفة على الجدار، ودخل الغرفة، وجدها راقدة فى السرير وظهرها إليه، اقترب منها بهيام رقيق وكانت هذه هى اللمسة الوحيدة التى يمكن أن تحتملها.

لم يكن الأمر سيئًا، فكرت فى ذلك عندما انتهى: ليس سيئًا كما توقعت. لم يعن شيئًا بالنسبة لها، لا شىء على الإطلاق. كانت تتوقع هجومًا أقرب إلى الاغتصاب، وعبئًا ثقيلاً، لكنها شعرت بالارتياح لأنها لم تشعر بشىء. كانت قادرة على أن تمنح نفسها وتنعم بها على هذا الغريب المتواضع، وتظل دون أن تتأثر بشىء. إن النساء لهن قدرة غير عادية على الانسحاب من العلاقة الجنسية، على تحصين أنفسهن ضدها، بطريقة تجعل الرجال يشعرون بأنهم تعرضوا للخذلان والإهانة دون أن يكون لديهم شىء محسوس يستطيعون الشكوى منه. ولم تكن مارى بحاجة لأن

تتعلم ذلك، لأنه كان شيئًا طبيعيًا بالنسبة لها، ولأنها لم تكن تتوقع شيئًا فى المقام الأول. ليس من هذا الرجل، الذى كان من لحم ودم، ولهذا يبدو مثيرًا للسخرية إلى حد ما. لم يكن هو المخلوق الذى تحفظه فى خيالها، والذى وقفت نفسها عليه، وإن كان دون تجسيد حى. وإذا كان ديك قد شعر بأنه قد رُفض، وأُنكر، وفرض عليه مظهر المسىء الأحمق، فإن شعوره بالذنب كان دليلا على أن ما ناله هو ما يستحق. ربما كان يحتاج إلى الشعور بالذنب؟ ربما لم يكن الأمر بهذا السوء، ولم يكن الزواج خطأ كبيرًا فى المقام الأول؟ هناك زيجات كثيرة جدًا يجتمع فيها شخصان، كلاهما منزوٍ على نفسه، يشعران بالخطأ فى أعماقهما، ولكن وكأن بينهما اتفاقًا تامًا على أن يجعل كل منهما الآخر تعيسًا بالدرجة التى هما بحاجة إليها، بالطريقة التى يتطلبها نموذج حياتهما. وعلى كل حال، عندما مال ليطفئ المصباح، ورأى حذاءها الصغير ذا الكعب مقلوبًا على جلد النمر الذى اصطاده بالبندقية فى السنة الماضية، كرر لنفسه مرة أخرى، ولكن مع نوع من الرضا فى قرارته: "لم يكن من حقى".

راقبت مارى الضوء المتراقص بشدة للمصباح المتخافت يتراقص فوق الجدران والسقف وإطارات النافذة اللامعة، وسقطت فى النوم وهى تمسك يده كنوع من الحماية، كما يمكن أن تفعل حين تمسك بيد طفل تسببت هى فى جرحه.

ـ ٤ ـ

عندما استيقظت وجدت نفسها وحدها فى الفراش، وكان هناك جرس يقرع فى مكان ما خلف البيت. استطاعت أن ترى ضوءًا ذهبيًا ناعمًا على الأشجار من خلال النافذة، وشعاعات وردية خافتة من الشمس تقع على الجدران البيضاء، وتظهر خشونة الطلاء الأبيض. وعندما حدقت فيها ازدادت عمقًا وتحولت إلى لون أصفر حيوى، ملأ الغرفة بلون ذهبى، وجعلها تبدو أصغر، وأقل ارتفاعًا، وأكثر فراغًا مما بدت عليه فى الليل، فى ضوء المصباح الخافت. بعد لحظات قليلة عاد ديك فى بيجامته، ولمس خدها بيده، فشعرت ببرد الصباح المبكر على جلده.

"نمت جيداً؟"

"نعم، أشكرك".

"الشاى قادم حالاً".

كانا مهذبين ويتعاملان بارتباك، فى جحود للعلاقة التى قامت بينهما ليلاً. جلس على حافة السرير يأكل بعض البسكويت. ثم دخل عجوز من أهل البلد بصينية، ووضعها على المنضدة.

قال له ديك: "هذه هى السيدة الجديدة".

"وهذا سامسون يا مارى"

ظل الخادم العجوز ينظر إلى الأرض وقال: "صباح الخير يا سيدتى". ثم أضاف بأدب موجهًا الحديث إلى ديك، وكأن هذا هو المتوقع منه: "حسنة جدًا، حسنة جدًا يا سيدى".

ضحك ديك، قائلاً: "سوف يعتنى بك، إنه ليس خنزيرًا عجوزًا سيئًا".

شعرت مارى بضيق شديد من هذا السلوك السوقى اللامبالى، ثم رأت أن المسالة لا تزيد عن كونها مسألة شكلية، وهدأت نفسها. وبقى لديها شعور بالسخط، قائلة لنفسها: "ومن يظن نفسه هو؟" لكن ديك لم يكن واعيًا بذلك، وكان سعيدًا بغباء.

شرب كوبان من الشاى متعجلاً، ثم ذهب ليرتدى ثيابه، وعاد مرتديًا شورتًا وقميصًا من اللون الكاكى ليقول لها إلى اللقاء قبل أن يذهب إلى الأرض. قامت مارى أيضًا، عندما كان قد ذهب، ونظرت حولها. كان سامسون ينظف الغرفة التى كانا قد دخلاها أولا فى الليلة الماضية، وكان كل الأثاث قد تم دفعه إلى وسط

الغرفة، ومن ثم سارت عابرة إياه إلى الشرفة الصغيرة التى كانت مجرد امتداد للسقف الحديدى، قائمة على ثلاثة أعمدة من الآجر وحولها سور واطئ. كان هناك بعض علب الوقود ملونة بلون أخضر غامق، وكان الدهان يبدو مشققًا، وفيها كانت نباتات الجيرانيوم وشجيرات مزهرة. وخلف سور الشرفة كانت مساحة من الرمل الباهت، ثم الأدغال الواطئة الضئيلة، والتى كانت تنحدر إلى مرج ملىء بالأعشاب اليانعة الطويلة. وخلف هذه الأعشاب تمتد مروج أخرى، آجام ومروج متماوجة، تحيط بها عند الأفق الروابى الصخرية الإفريقية المتميزة "الكوبى". ونظرت حولها فرأت أن البيت مبنى على مرتفع صغير متضخم فى غور هائل يمتد بضعة أميال، وتحيط به الروابى الصخرية التى تتكور بلون بنى وأزرق جميل، كانت على مسافة بعيدة من الناحية الأمامية، ولكنها قريبة من البيت عند الخلفية. فكرت أن الجو سيكون حارًا هنا، حيث إنه محاط بالمرتفعات التى تغلق عليه بهذه الطريقة. ولكنها ظللت عينيها وحدقت عبر الدغل، ووجدته غريبًا وجميلاً بما فيه من زروع خضراء قاتمة، تلك الامتدادات اللانهائية من العشب المصفر يلمع كالذهب فى ضوء الشمس، والسماء كالقبة الزرقاء. وهناك كورس من الطيور المغردة، أصوات زقزقة وسقسقة حادة لم تسمع مثلها من قبل.

سارت حول البيت إلى الخلفية. ورأت أنه كان على شكل مستطيل، كانت الغرفتان اللتان رأتهما فى

المقدمة، وخلفهما المطبخ، وغرفة الخزين، والحمام. وفى نهاية ممر قصير، كان المرحاض، والذى كان عبارة عن مبنى أشبه بصندوق ضيق، يحجبه حاجز من كسور الزجاج المقوسة. وفى أحد جانبيه كان بيت الدجاج، وله جدار عظيم من السلك ملىء بالدجاج الأبيض المهزول، وعبر الأرض الصلبة العارية مجموعة قليلة متناثرة من الديوك الرومى. دخلت البيت من الخلف من خلال المطبخ، حيث كان يوجد موقد للخشب ومنضدة كبيرة الحجم من خشب الأكمات المصنفر، تأخذ تقريبًا نصف مساحة الأرضية. كان سامسون فى غرفة النوم، يرتب الفراش.

لم تكن قد تعاملت بشكل مباشر مع الزنوج من قبل، كموظفة تعتمد على نفسها. كان من غير المسموح لها أن تتكلم مع خدم أمها؛ وفى النادى كانت تتعامل مع عمال البوفيه بلطف؛ ولكن "مشكلة الأهالى" كانت تعنى بالنسبة لها شكوى نساء أخريات من خدمهن فى حفلات الشاى. كانت خائفة منهم، بالطبع. فكل امرأة فى جنوب إفريقيا تربت لتكون كذلك. فى طفولتها كانت ممنوعة من السير وحدها، وعندما سألت لماذا، تم إخبارها بذلك الصوت الخافت، المختلس، ولكن الواثق الذى ربطته دائمًا بأمها، أنهم كانوا سيئين، وقد يفعلون أشياء فظيعة لها.

والآن كان عليها أن تواجه الأمر. هذا الموضوع الخاص بالكفاح مع الزنوج. كانت تعتبر من المفروغ منه أنه سيكون كفاحًا. وشعرت ببعض التردد، ولكن مع

التصميم ألا يتم فرض شىء عليها. ولكنها كانت ميالة لأن تحب سامسون، الذى كان عجوزًا من الأهالى وله وجه طيب ويعاملها باحترام، وسألها، وهى تدخل غرفة النوم: "هل تحب سيدتى أن ترى المطبخ؟"

كانت تأمل أن يقوم ديك بهذا الدور، يريها كل ما يختص بالمكان، ولكنها عندما رأت أن الزنجى كان يتلهف على فعل ذلك، وافقت. سار خارجًا من الغرفة أمامها بقدميه الحافيتين، وأخذها إلى الخلف. وهناك فتح لها غرفة الخزين. كانت مكانًا معتمًا، مرتفعًا ذا نوافذ، مليئًا بالإمدادات من كل الأنواع، بعلب معدنية كبيرة للسكر والدقيق والذرة، متراصة على الأرض.

وشرح قائلاً: "السيد معه مفاتيح"، وتعجبت لقبوله المذعن لأمر لا يمكن أن يعنى إلا أنه وضع خشية أن يسرق.

كان هناك تفاهم تام بين سامسون وديك. كان ديك يغلق على كل شىء، لكنه يترك للاستخدام ما يوازى المطلوب ثلاث مرات، وهو ما يستخدمه سامسون، الذى لم يكن ينظر إلى ذلك باعتباره سرقة. ولكن لم يكن هناك الكثير ليسرق فى ذلك البيت، الذى يعيش فيه عازب، وكان سامسون يأمل فى أشياء أفضل الآن بعد أن أصبحت للبيت سيدة. راح يفرج مارى باحترام ولطف الإمدادات القليلة من الكتان، والأوانى، الطريقة التى يعمل بها الموقد، وكومة الخشب فى الخلفية. كل ذلك بجو من المراعاة

المخلصة لشخص أمين يعطى المفاتيح للمالك صاحب الحق. وعندما سألت أراها قرص المحراث الكبير المعلق على غصن شجرة فوق كومة الخشب، والكتلة الخشبية المحاطة بصدأ الحديد المأخوذة من عربة والتى يُضرب بها القرص. وهذا هو الصوت الذى سمعته وهى تستيقظ فى الصباح؛ كان يضرب فى الساعة الخامسة والنصف لإيقاظ العمال فى المنطقة المجاورة، ثم يضرب مرة أخرى فى الثانية عشرة والنصف وفى الثانية لتحديد وقت تناول الغداء. كان يصدر صوتًا ثقيلاً طنانًا ويصل إلى أميال فى السكون.

عادت إلى البيت بينما كان الخادم يجهز الإفطار؛ وكانت شدو الطيور قد هدأ بسبب الحرارة المتزايدة؛ فى السابعة صباحًا وجدت مارى رأسها رطبًا وأطرافها لزجة.

عاد ديك بعد نصف ساعة، سعيدًا برؤيتها، ولكنه مشغول. دخل من البيت مباشرة إلى الخلف، وسمعته يزعق على سامسون باللغة الكفيرية(*). لم

(*) الكفيرى، أو الكافير: كلمة مستمدة أصلا من «كافر» العربية، أطلقها العرب على الأفارقة لأنهم يدينون بديانات وثنية، ثم أصبحت اسمًا يطلقه ازدراء على الشعوب الناطقة بلغة البانتو فى جنوب إفريقيا، واللغة الكفيرية، وتسمى أيضًا اللغة الفناجلية، لغة مبسطة قائمة على لغات الزولو والإنجليزية والإفريكانية، وهى لغة لا تستخدم إلا للتواصل بين اثنين يتحدثان لغتين مختلفتين، وتستخدم فى الأساس فى مناجم الذهب والألماس والفحم فى جنوب إفريقيا. وكذلك إلى حد ما في الكونغو، ناميبيا، زامبيا، وزيمبابوى. (المترجمة).

تفهم كلمة مما قاله. ثم عاد قائلاً: "ذلك العجوز الغبى أطلق الكلبين مرة أخرى، قلت له ألا يفعل".

"أى كلبين؟"

شرح لها: "إنهما يشعران بالقلق ويخرجان وحدهما للصيد عندما لا أكون موجودًا هنا. أحيانًا أتغيب لبضعة أيام. ودائمًا عندما أكون غير موجود. ولكنه أطلقهما اليوم. وتحدث لهما متاعب فى الأحراش، لأن الملعون كسول جدًا فى إطعامهما"

جلس ثقيلاً وصامتًا طوال تناول الطعام، بين عينيه توتر عصبى. لقد توقفت البذارة، وعربة المياه فقدت إحدى عجلاتها، والسيارة تمت قيادتها صاعدة التل وعصا الفرامل مرفوعة، بمنتهى الإهمال واللامبالاة. وقد عاد فيها، على أم رأسه فيها، بنفس التوترات المألوفة والشعور المعتاد باليأس فى مواجهة عدم الكفاءة البالغة. لم تقل مارى شيئًا: كل هذا كان غريبًا جدًا بالنسبة لها.

وبعد الإفطار مباشرة، أخذ قبعته من على الكرسى، وخرج مرة أخرى. نظرت مارى بحثًا عن كتاب فى الطهى، وأخذته إلى المطبخ. وفى منتصف الصباح عاد الكلبان، كانا كلبين كبيرين من النوع المهجن، وراحا يعاملان سامسون بنوع من البهجة المعتذرة لتغيبهما بدون إذن، ولكن تجاهلاها، الغريبة. وراحا يشربان كمية كبيرة من الماء، يلوثان أرض المطبخ بما يقع من فمهما أثناء الشرب، ثم ذهبا ليناما

فوق الجلود فى الغرفة الأمامية تفوح منهما رائحة القتل فى الأحراش بقوة.

عندما انتهت من تجاربها المطبخية - والتى راقبها سامسون بنوع من التحمل المهذب - استقرت على الفراش ومعها كتاب حول اللغة الكفيرية. كان هذا أول شىء ينبغى أن تتعلمه: لأنها لم تستطع أن تجعل سامسون يفهمها.

- ٥ -

اشترت مارى بنقودها الخاصة التى كانت تدخرها أقمشة مطبوعة بالزهور، وغطت الوسائد، وصنعت ستائر، واشترت ملاءة صغيرة، وأوانى فخارية، وبعض الأقمشة للثياب. وبدأ البيت تدريجياً يفقد جوه الذى ينم عن الفقر المدقع، وبدأ يكتسب جمالاً بسيطًا، بمعلقات زاهية، وبعض الصور. كانت مارى تعمل بجدية، وتطلعت إلى نظرات التأييد من ديك، وإبدائه للدهشة عندما يعود من العمل ويلاحظ كل تغيير جديد. بعد شهر من وصولها سارت داخل البيت، ورأت أنه لم يعد هناك المزيد مما يمكن عمله. بالإضافة إلى أنها لم يعد لديها المزيد من النقود.

لقد استقرت بسهولة فى الإيقاع الجديد. وبدأت ترى أن التغيير لطيف جداً لدرجة أنها بدت كما لو كانت شخصًا جديدًا تمامًا. كل صباح كانت تستيقظ مع قرع قرص المحراث، وتشرب الشاى فى الفراش

مع ديك. وعندما يخرج إلى أعماله فى الأرض، كانت تخرج البقالة للاستخدام اليومى. كانت شديدة الحرص وخالصة الضمير حتى أن سامسون وجد الأشياء قد ساءت بدلاً من أن تتحسن: فحتى الثلث المفهوم والمسموح به قد اختفى، وكانت تضع المفاتيح مربوطة فى حزامها. وعندما يحين وقت الإفطار تكون قد أنجزت ما ينبغى إنجازه فى البيت، فيما عدا الطبخ الخفيف؛ لكن سامسون كان طباخًا أفضل منها، وبعد فترة تركت الطبخ له. كانت تقضى الصباح فى الخياطة، حتى موعد الغداء؛ ثم تقضى الوقت بعد الغداء فى الخياطة، ثم تذهب إلى الفراش بعد العشاء مباشرة، وتنام كطفل طوال الليل.

فى الدفقة الأولى من الطاقة والعزيمة، استمتعت بالحياة بالفعل، وهى تحاول وضع الأشياء على وجهها الصحيح، وأن تخطو الخطوة الأولى فى طريق طويل. كانت تحب على وجه الخصوص الصباح الباكر قبل أن تنال منها الحرارة بالخدر والتعب؛ وأحبت الفراغ والراحة الجديدة على حياتها، أحبت تأييد ديك. فقد كان فخره وامتنانه المحب لما تفعله (لم يكن ليصدق أبدًا أن بيته البائس يمكن أن يبدو بهذا الشكل) يخفيان خيبة أمله الصبورة. وعندما رأت ذلك الألم المتحير على وجهه، أبعدت عن رأسها التفكير فيما قد يكون يعانى منه، فقد كان يجعله بغيضًا إليها مرة أخرى.

ثم، بعد أن فعلت كل ما تستطيع للبيت، بدأت تعمل على أقمشة الملابس، فقامت بصناعة جهاز للعروس رخيص الثمن. وبعد بضعة أشهر من زواجها، وجدت أنه لا يوجد المزيد لتفعله. فجأة، بين يوم وليلة، وجدت نفسها غير مشغولة. وغريزيًا كانت تعتبر الفراغ شيئًا خطيرًا، فعادت إلى ملابسها الداخلية، وقامت بتطريز كل شىء يمكن تطريزه. جلست طوال اليوم، تخيط وتطرز، ساعة بعد ساعة، وكأن التطريز الجيد سوف ينقذ حياتها. كانت امرأة ماهرة فى شغل الإبرة، والنتائج كانت تدعو إلى الإعجاب. كان ديك يثنى على عملها، وشعر بالدهشة، فقد توقع فترة صعبة حتى تستقر، وظن أنها سوف تعتبر حياة الوحدة صعبة فى البداية. لكنها لم تظهر أية علامات تدل على شعورها بالوحدة، وبدا أنها مكتفية تمامًا بالتطريز طوال اليوم. وطوال هذا الوقت كان يعامله كما لو كانت أخاه، فقد كان رجلاً حساسًا، وينتظر منها أن تلتفت إليه من نفسها. لكن الارتياح الذى لم تستطع إخفاءه إزاء أن إعزازه لها لم يكن أكثر عاطفية، جرحه بشدة، ومع ذلك ظل يفكر: سوف يكون كل شىء جيدًا فى النهاية.

وجاءت نهاية للتطريز؛ مرة أخرى وجدت نفسها بيدين فارغتين. مرة أخرى راحت تنظر حولها باحثة عن شىء تفعله. قررت أن الجدران شديدة القذارة. وسوف تعيد طلاءها كلها بنفسها، لتوفير النقود. وهكذا، ظل ديك لمدة أسبوعين يعود إلى البيت ليجد الأثاث مكومًا فى وسط الغرفة وعلى الأرض دلاء

مملوءة بالطلاء الأبيض الثقيل. لكنها كانت تعمل بمنهجية بالغة. تنتهى من غرفة تمامًا قبل أن تبدأ فى الأخرى؛ وبينما كان معجبًا بقدرتها وثقتها بنفسها، للقيام بهذا العمل الذى لم تكن لديها خبرة أو معرفة به، شعر بالقلق أيضًا. ماذا سوف تفعل بكل تلك الطاقة والكفاءة؟ إن رؤيتها بهذه الطريقة قللت شعوره بالطمأنينة أكثر وأكثر، فقد كان يعرف، فى أعماقه، أن هذه النوعية هى شىء يفتقده. وسرعان ما كانت الجدران تتلألأ بلون أبيض يميل إلى الزرقة، كل بوصة منها قامت مارى بنفسها بطلائها، وهى واقفة على سلم خشن لعدة أيام فى كل غرفة.

والآن وجدت أنها متعبة. وجدت أنه من اللطيف أن تستريح قليلاً، وأن تقضى بعض الوقت على الأريكة الكبيرة وقد طوت يديها. لكن ليس لوقت طويل. كانت تشعر بالملل، ملل شديد حتى أنها لم تعرف ماذا تفعل مع نفسها. فبدأت تخرج الروايات التى جاءت بها معها، وقلبت فيها. كانت هذه هى الكتب التى جمعتها على مر سنوات من حشد الروايات التى وجدتها فى طريقها. وقد قرأت كل منها أكثر من عشر مرات، وتكاد تحفظها غيبًا، وتتابع القصص المألوفة مثل طفل يستمع إلى أمه تحكى له قصة خيالية يعرفها جيدًا. كانت قراءتها فى الماضى نوعًا من المخدر، من المنوِّم: أما الآن، وهى تقلبها وتقرأ العناوين، تعجبت لماذا فقدت متعتها. وتشتت عقلها وهى تقلب الصفحات بعناد؛ واكتشفت، بعد أن ظلت تقرأ لمدة ساعة تقريبًا،

أنها لم تتابع كلمة واحدة. ألقت بالكتاب جانبًا، وحاولت كتابًا آخر، لكن بنفس النتيجة. ولعدة أيام، امتلأ البيت بكتب متناثرة ذات أغلفة باهتة متربة. شعر ديك بالسرور، لقد أشبع كبرياءه التفكير فى أنه تزوج امرأة تقرأ الكتب. فى إحدى الأمسيات تناول كتابًا بعنوان "السيدة الحسناء"، وفتحه فى وسطه، وقرأ:

"... ارتحلت الرحلة شمالاً، نحو الأرض الموعودة، حيث لا تستطيع يد البريطانيين الكريهين الباردة أن تقبض عليهم أو تصل إليهم. والتف طابور السائرين مثل حية باردة فى الأراضى الدافئة. انطلقت برونيلا فان كويتزى بنعومة على جوادها متابعة الطابور، مرتدية عباءة بيضاء فوق وجهها اللؤلؤى الجميل وخصلات شعرها المجعدة. راقبها بييه فان فريزلاند، وقلبه ينبض لقلب جنوب إفريقيا العظيم الملوث الدم. هل يمكنه أن يفوز بها، برونيلا الجميلة، التى ترى نفسها مثل ملكة بين أولئك المواطنين من السادة والسيدات الهولنديين الممتلئين فى صداريهم وعباءاتهم. هل يستطيع؟ راح يحدق وينعم النظر. "تانت أنَا" تضع الكعيكات وقديد اللحم من أجل وجبة وسط اليوم، وهى ترتدى صدارى بلون زهور الأشجار الكفيرية، هزت وسطها البدين بالضحك، وقالت لنفسها: "هذان متناسبان تماماً".

وضع الكتاب، ونظر إلى مارى، التى كانت جالسة وعلى حجرها كتاب، تحدق فى السقف.

سألت بصوت يمتلئ بالأسى: "ألا نستطيع أن نقيم سقفًا يا ديك؟".

قال متشككًا: "من الممكن أن يكلف الكثير جدًا، ربما فى السنة القادمة، إذا كانت الأحوال جيدة".

فى مدى أيام قليلة، جمعت مارى الكتب وأبعدتها؛ لم تكن هذه الكتب هى ما تحتاج إليه. وتناولت الكتاب الخاص باللغة الكفيرية مرة أخرى، وقضت كل وقتها عليه، تتدرب على سامسون فى المطبخ، تحبطه بانتقاداتها اللاذعة الخالية من روح الدعابة، ولكن بسلوك يبدو عدالة باردة لا تنطوى على مودة من أى نوع.

بدا سامسون أكثر تعاسة كل يوم. كان معتادًا كثيرًا على ديك، وكانا يفهمان بعضهما تمامًا. كان ديك يسبه كثيرًا، لكنه يضحك معه بعدها. هذه المرأة لم تضحك أبدًا، وقد خزنت بحرص شديد الكثير من الحبوب والكثير من السكر؛ وراحت تراقب بقايا الطعام بكفاءة غير عادية ومهينة، متذكرة كل قطعة بطاطس وكل كسرة خبز، تسأل عنها كما لو كانت مفقودة.

وبعد أن اهتزت مكانته التى كانت مريحة نسبيًا، أصبح عابسًا. كان بالمطبخ بضعة أرفف، وذات مرة عاد ديك ليجد مارى باكية. كانت متأكدة أن هناك ما يكفى من الزبيب لعمل البودينج، لكن عندما تفقدتها ساعة الأكل، لم تجد شيئًا. وأنكر الخادم أنه سرقها...

قال ديك متعجبًا: "يا إلهى، لقد ظننت أن مصيبة حدثت".

نهنهت مارى: "لكنى أعرف أنه أخذها".

"ربما فعل ذلك، لكنه خنزير عجوز طيب بشكل عام".

"سوف أقتطع ثمنها من راتبه".

تعجب ديك من حالتها الانفعالية، وقال: "إن كنت ترين أن ذلك ضروريًا بالفعل"، وفكر أن تلك كانت هى المرة الأولى التى يراها تبكى فيها.

ومن ثم تم خصم شلنين من راتب سامسون، الذى كان جنيهًا فى الشهر. وتقبّل المعلومة بوجه مكتئب صامت، ولم يقل لها شيئًا، لكنه كان ينظر متطلعًا إلى ديك، الذى قال له إن عليه أن يأخذ الأوامر من مارى. وفى ذلك المساء أخبرهما سامسون أنه سيترك العمل، على أساس أن هناك حاجة إليه فى العزبة. بدأت مارى تستجوبه بحرص لماذا هو مطلوب هناك؛ لكن ديك لمس ذراعها محذرًا، وهز رأسه.

قالت بإصرار: "لماذا لا أسأله؟ إنه يكذب، أليس كذلك؟"

قال ديك بتوتر: "بالطبع هو يكذب، بالطبع. ليس هذا هو الموضوع، فلا يمكنك استبقاءه على غير إرادته".

قالت مارى: "ولماذا أقبل أن يكذب؟ ما الذى يرغمنى على قبول كذبه؟ لماذا لا يقول مباشرة أنه لا يريد العمل عندى، بدلاً من الكذب حول العزبة؟"

هز ديك كتفيه، ناظرًا إليها نافد الصبر؛ لم يستطع أن يفهم إصرارها غير المنطقى: كان يعرف

كيف ينسجم مع الزنوج؛ كان التعامل معهم أحيانًا مسليًا، وأحيانًا كان لعبة مثيرة للضيق، لعبة يسير فيها اللاعبون من الجانبين على أساس قواعد معينة غير مكتوبة.

"سوف تغضبين لو قال لك ذلك"، قال ذلك بجفاء، ولكن بتعاطف أيضًا، لم يستطع أن يأخذها على محمل الجد، بدت له كطفل عندما تصرفت بهذه الطريقة. والواقع أنه شعر بالحزن الشديد أن خادمه العجوز، الذى عمل لديه كل تلك السنوات، سوف يذهب الآن. وقال أخيرًا، بنوع من التفلسف: "حسنًا، كان ينبغى أن أتوقع ذلك. كان ينبغى أن أحضر خادمًا جديدًا منذ البداية. هناك دائمًا متاعب مع تغيير الإدارة".

وقفت مارى فى فتحة الباب تراقب مشهد الوداع، والذى جرى على الدرجات الخلفية، وامتلأت بالعجب، بل بالغيظ. كان ديك آسفًا حقًا أن يرى هذا الزنجى لآخر مرة! لم تستطع أن تفهم لماذا يشعر أى شخص أبيض بأية مشاعر تجاه أحد الأهالى؛ وذلك جعل ديك يبدو مريعًا بالنسبة لها. سمعته يقول: "عندما تنتهى من عملك فى العزبة، سوف تعود وتعمل لدينا مرة أخرى؟" قال الزنجى: "نعم، يا رئيس"، لكنه كان قد استدار بالفعل ليذهب؛ وعاد ديك إلى داخل البيت صامتًا وواجمًا. وقال: "لن يعود".

سألت بغيظ وكراهية: "هناك الكثير من الزنوج الآخرين، أليس كذلك؟"

قال متنازلاً: "نعم، بالطبع".

مرت بضعة أيام قبل أن يتقدم طباخ جديد للعمل، وكانت مارى تقوم بشئون البيت بنفسها. ووجدت أنه عمل ثقيل بشكل غير متوقع، رغم أنه لم يكن هناك، فى الواقع، الكثير لتعمله. إلا أنها أحبت الشعور بوجودها وحدها طوال اليوم، مسئولة عنه. راحت تنظف وتكنس وتلمع؛ كان شغل البيت شيئًا جديدًا بالنسبة لها؛ فطوال حياتها كان الزنوج يقومون بالعمل لها بصمت وبتواضع وبشكل خفى كالجنيات الأسطورية. ولأن شغل البيت كان جديدًا، فقد استمتعت به حقًا. ولكن عندما أصبح كل شىء نظيفًا ولامعًا، وأصبحت الخزانة مليئة بالطعام، جعلت تجلس على الأريكة القديمة القذرة فى الغرفة الأمامية، تنهار فجأة عليها وكأن قدميها قد فقدتا قوتهما. كانت الحرارة شديدة! لم تتخيل أبدًا أن يكون الجو بهذه الحرارة. كان العرق يتصبب منها طوال اليوم؛ وكانت تشعر به يسيل على ضلوعها وفخذيها تحت ثيابها، وكأنه نمال تزحف فوقها. واعتادت أن تجلس بهدوء، بسكون تام، وعيناها مغلقتان، وتشعر بالحرارة تسقط من السقف الحديدى فوق رأسها. والحق أن الأمر كان شديد السوء لدرجة أنها ينبغى أن تلبس قبعة حتى فى البيت. وفكرت أنه لو كان ديك يعيش فى هذا البيت حقًا، بدلاً من أن يكون فى الأراضى طوال اليوم، لأقام سقفًا. من المؤكد أنه لا يكلف كل هذا؟ وبمرور الأيام، وجدت نفسها تفكر فى نكد أنها كانت غبية أن تنفق مدخراتها القليلة على الستائر بدلاً من أن تنفقها على السقف. لو طلبت من

ديك مرة أخرى، وشرحت له أهمية السقف بالنسبة لها، ربما يلين ويحاول إيجاد النقود اللازمة؟ لكنها كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تسأل بسهولة، وتتسبب فى جلب تلك النظرة المعذبة على وجهه. لأنها الآن قد أصبحت معتادة على تلك النظرة. رغم أنها فى الحقيقة، فى أعماقها، أحبت هذه النظرة كثيرًا. عندما يأخذ يدها بإعزاز، ويقبلها بخضوع، ويقول متضرعًا: "حبيبتى، هل تكرهيننى لأننى جئت بك هنا؟" كانت تجيب: "لا يا عزيزى، إنك تعلم أننى لا أكرهك". كان ذلك هو الوقت الوحيد الذى يمكنها أن تشعر فيه بإعزاز له، عندما كانت تشعر بالانتصار والمغفرة. كان تطلعه للمغفرة، وتواضعه أمامها، هو أعظم شىء يشعرها بالرضا، رغم أنها كانت تحتقره لذلك.

وهكذا اعتادت أن تجلس على الأريكة وعيناها مغلقتان، تعانى بسبب الحرارة، وتشعر فى الوقت نفسه ببعض الأسى الخفيف، وأنها ملكة... بسبب استعدادها للمعاناة.

ثم، فجأة، أصبحت الحرارة لا تحتمل. خارج البيت فى الدغل، كانت حشرات الهاموش تئز على نحو متواصل أزيزًا حاد النغمة، وشعرت برأسها تتصدع؛ وأطرافها ثقيلة ومشدودة. كانت تقوم وتدخل غرفة النوم، وتفحص ملابسها، لترى إن كان هناك ما يمكن أن تفعله، لا يوجد ما يمكن تطريزه، أو أى شىء آخر. راحت تنظر فى أشياء ديك لترى ما يحتاج إلى

إصلاح أو تعديل؛ لكنه لم يكن يلبس إلا القمصان والبنطلونات القصيرة، وإن كانت أحيانًا تجد زرًا مقطوعًا تكون محظوظة. وبعد أن تجد أن لا شيء هناك لتفعله، كانت تخرج إلى الشرفة، تجلس تراقب تغير الأضواء على الروابى الزرقاء البعيدة، أو تذهب إلى خلف البيت، حيث توجد رابية صغيرة، مرتفع خشن من الصخور العملاقة، وتراقب موجات الحرارة ترتد من الصخر الساخن، حيث تندفع "سحالى الحرارة"، ذات الألوان اليانعة، الحمراء والزرقاء والزمردية، فوق الصخور كاللهب. وأخيرًا يصاب رأسها بالدوار، ولابد أن تعود إلى البيت لتتناول كأسًا من الماء.

ثم جاء أحد الزنوج إلى الباب الخلفى، سائلاً عن عمل. أراد أن يحصل على سبعة عشر شلنًا فى الشهر. وراحت تفاصله حتى خفضت شلنين، شاعرة بالرضا عن نفسها؛ لأنها انتصرت عليه. كان قادمًا مباشرة من عزبته، شابًا، ربما لم يبلغ العشرين بعد، نحيفًا بسبب السير الطويل جدًا فى الأدغال من بيته فى نياسالاند، على بعد مئات الأميال. لم يكن قادرًا على فهمها، وشديد العصبية. كان يقف ثابتًا، كتفاه متيبستان، فى وقفة منحنية شديد الانتباه، لا يبعد عينيه عنها، يخشى أن تفوته أقل نظرة منها. وشعرت بالتوتر لهذا الخضوع الذليل، واكتسى صوتها بالشدة. وأرته كل مكان فى البيت، ركنًا ركنًا، دولابًا دولابًا، شارحة له كيف ينبغى تأدية كل شىء باللغة الكفيرية

التى تتقنها الآن. تابعها ككلب أمين. لم يكن قد رأى الملاعق والسكاكين والأطباق من قبل، رغم أنه سمع أساطير عن هذه الأشياء الغريبة من أصدقائه العائدين من الخدمة فى بيوت البيض. لم يكن يعرف ماذا يفعل بها؛ وكانت تتوقع منه أن يعرف الفرق بين طبق البودينج وطبق الغداء. كانت تقف لتشرف عليه وهو يعد المنضدة؛ وطوال فترة بعد الظهر ظلت تشرح له، وتوجه له النصائح، وتستحثه بعنف. فى تلك الليلة، عند العشاء، أعد المنضدة بشكل سيئ، وثارت عليه، فى نوبة ضيق غاضبة، بينما جلس ديك يراقبها مغتاظًا. وعندما خرج الزنجى، قال لها: "لابد أن تأخذى الأمور ببساطة مع خادم جديد، كما تعلمين".

"لكنى قلت له! وليس مرة، لقد قلت له خمسين مرة!"

"لكن ربما هذه هى المرة الأولى التى يدخل فيها بيت رجل أبيض!"

"لا يهمنى. لقد قلت له ما ينبغى أن يفعله. فلماذا لا يفعل كما قلت له؟"

نظر إليها بانتباه، وانقبضت جبهته، وزم شفتيه. كانت تبدو وقد تملكها التوتر، لم تكن على طبيعتها على الإطلاق.

"مارى، استمعى لى لحظة. إذا وضعت نفسك فى حالة مراقبة شديدة لخدمك، فلن تستطيعى أن تفعلى شيئًا. لابد أن تتنازلى قليلاً عن بعض المعايير الصارمة. لابد أن تأخذى الأمور ببساطة".

"لن أتنازل عن معاييرى. لن أفعل! لماذا أفعل ذلك؟ ألا يكفى سوءًا ...." .. وأوقفت نفسها. كانت بسبيلها لأن تقول: "ألا يكفى سوءًا العيش فى حظيرة الخنازير هذه...".

لكنه أحس بما كانت على وشك أن تقول، وأحنى رأسه وحدق فى طبقه. لكن هذه المرة لم ينظر إليها مستعطفًا. لقد كان غاضبًا؛ لم يشعر بأنه مستسلم وأنه مخطئ، وعندما استمرت: "لقد قلت له كيف يعد هذه المائدة"، وهى تتحدث بصوت غاضب، أعمى، متعب، قام من أمام الطعام، وسار إلى الخارج، ورأت وهج عود ثقاب وتوهج سريع لسيجارة. هكذا! كان متضايقًا، هل كان فعلاً؟ متضايقًا لدرجة أن يكسر القاعدة التى وضعها لنفسه بألا يدخن أبدًا حتى ما بعد الغداء! حسنًا، فليتضايق.

فى اليوم التالى عند وجبة الظهيرة، أوقع الخادم طبقًا لشدة عصبيته، فطردته فى الحال. ومرة أخرى، كان عليها أن تقوم بعملها بنفسها، وفى هذه المرة شعرت بأنها مكدرية، وكارهة له، وتلقى اللوم على الزنجى الغبى الذى طردته دون أن تدفع له شيئًا. راحت تنظف وتلمع المناضد والمقاعد والأطباق، كما لو كانت تفرك جلدًا من وجه أسود. استولت عليها الكراهية. وفى الوقت نفسه، كانت تقرر فى سرها ألا تكون بهذه الدقة وصعوبة الإرضاء مع الخادم الجديد الذى وجدته.

كان الخادم التالى مختلفًا تمامًا. كانت لديه سنوات طويلة من الخبرة يعمل مع النساء البيض اللائى كن يعاملنه كما لو كان آلة؛ وقد تعلم أن يظهر وجهًا حياديًا خاليًا من التعبير، وأن يجيب فى صوت ناعم محايد. كان يجيب برقة على كل ما تقوله: "نعم يا ميسوس، نعم يا ميسوس"، دون أن ينظر إليها. وقد أغضبها أنه لا يواجه عينيها أبدًا. لم تكن تعلم أن إحدى القواعد الاصطلاحية للسلوك المهذب عند الزنوج ألا ينظر أحدهم إلى من هم أعلى منه فى وجهه مباشرة؛ فظنت أن هذا مجرد دليل آخر على طبيعتهم المراوغة والخائنة. كان الأمر يبدو وكأنه لم يكن هناك حقًا، مجرد جسد أسود مستعد لتلبية طلباتها. وقد أغضبها هذا أيضًا. شعرت أنها تريد أن تمسك بطبق وتلقيه فى وجهه لكى تجعله إنسانًا ومعبرًا، حتى عن الألم. لكنها كانت تسير بشكل صحيح هذه المرة، فرغم أنها لم ترفع عينيها لحظة واحدة عنه، وتابعته فى كل مكان بعد انتهاء العمل، وجعلت تناديه لكل ذرة من تراب أو لطخة من دهن، فقد كانت حريصة على ألا تتجاوز المدى كثيرًا. سوف تحتفظ بهذا الخادم، هكذا قالت لنفسها. لكنها لم تهدأ أبدًا، ولم تلن إرادتها؛ وكانت إرادتها أن يفعل ما قالته، كما أرادته، فى كل شىء مهما كان صغيرًا.

رأى ديك كل هذا بهاجس متزايد منذر. ماذا حدث لها؟ كانت معه تبدو على سجيتها، هادئة، تعامله بطريقة أقرب إلى طريقة أم تعامل طفلها. أما مع

الزنوج فكانت سليطة مشاكسة. سألها، محاولاً أن يبعدها عن البيت، أن تأتى إلى الأرض معه لترى كيف يعمل. كان يشعر أنها إن استطاعت أن تكون قريبة منه فعلاً فى مشاكله وهمومه، ربما يستطيعان أن يتقاربا أكثر. بالإضافة إلى أنه كان يشعر بالوحدة، كل تلك الساعات من السير المتواصل فى الأرض وحده، يراقب العمال أثناء العمل.

وافقت، بشىء من التردد، فلم تكن تريد الذهاب فى الواقع. عندما كانت تفكر فى أنه هناك فى تلك الحرارة الحارقة، قريبًا من الأرض الحمراء التى تنبعث منها الأبخرة الثقيلة، بجوار الأجساد الكريهة للعمال من الزنوج ، كانت كأنها تفكر فى رجل يعيش فى غواصة، شخص نزل طواعية إلى عالم غريب وعدائى. لكنها أحضرت قبعتها وصحبته فى سيارته كنوع من أداء الواجب.

طوال صباح واحد تبعته فى كل مكان، من حقل إلى حقل، من مجموعة من العمال إلى الأخرى؛ وطوال الوقت، فى أعماق عقلها، كانت تفكر أن الخادم الجديد كان وحده فى البيت ومن المحتمل أنه يحاول كل أنواع الأذى. من المؤكد أنه يسرق من وراء ظهرها: ربما كان يمسك بثيابها، وينظر فى أشيائها الخاصة! وبينما كان ديك يشرح لها بصبر أنواع التربة والتصريف وأجور الزنوج ، كانت تفكر بنصف عقلها فى ذلك الزنجى وحده مع "أشيائها" . وعندما عادت فى وقت وجبة الظهيرة كان أول شىء فعلته هو أن

تدور حول البيت لترى ما الذى تركه دون أن يؤديه، وتفحص أدراجها، التى بدا أنها لم تلمس. ولكن، لا يمكن للمرء أن يعرف - فقد كانوا خنازير ماكرة! فى اليوم التالى، عندما سألها ديك إن كانت تريد أن تأتى مرة أخرى، قالت بعصبية: "لا يا ديك، إن لم يكن لديك مانع. إن الجو شديد الحرارة هناك، وأنت معتاد عليه". وقد بدا لها فعلاً أنها لا تستطيع أن تتحمل صباحًا آخر تحت الشمس الحارقة، ولفحة الحرارة على عينيها، رغم أنها كانت تشعر بأن الحرارة تمرضها عندما تبقى فى البيت. لكنها كان لديها ما تفعله فى البيت، الإشراف على هذا الزنجى.

وبمرور الوقت، أصبحت الحرارة هاجسًا يتملكها. لم تستطع أن تحتمل تلك الموجات الخاطفة المتوالية التى تضرب من السقف الحديدى. حتى الكلاب النشيطة فى العادة كانت معتادة على الرقاد طوال اليوم فى الشرفة، تتحرك من مكان إلى مكان عندما تجد الأرضية قد أصبحت ساخنة تحتها، وألسنتهما تتدلى مبللة، حتى أن الأرض كانت مغطاة ببرك صغيرة. كانت مارى تسمعهما يلهثان لهاثًا خافتًا، أو يعويان فى سخط بسبب الذباب. وعندما كانا يأتيان لوضع رأسيهما على ركبتها، يتوسلان بعض التعاطف بسبب الحرارة، كانت تبعدهما عنها بنزق. لقد كان الحيوانان الضخمان تنبعث منهما رائحة عفنة، ويثيران توترها، يدخلان تحت قدميها وهى تتحرك فى البيت الصغير، ويتناثر شعرهما على الوسائد،

ويتنشقان بصوت مرتفع وهما يبحثان عن البراغيث بينما هى تحاول أن تستريح. كانت تغلق عليهما خارج المنزل، وفى وسط الصباح، كانت تطلب من الخادم أن يحمل علبة وقود مليئة بالماء الفاتر إلى غرفة النوم، وبعد أن تتأكد من أنه خارج البيت، كانت تخلع ثيابها وتقف فى حمام على الأرض العارية، وتصب الماء على نفسها. كانت القطرات المتناثرة تقع على الآجر المنفذ للسوائل، والذى كان يصدر عنه صوت هسهسة من الجفاف.

سألت ديك: "متى يأتى المطر؟"

أجاب ببساطة: "أوه، أمامنا شهر على الأقل قبل أن تمطر". لكنه دهش من سؤالها. من المؤكد أنها تعرف متى يأتى موسم الأمطار؟ لقد كانت فى البلاد وقتًا أطول منه. لكن بدا لها أنه فى المدينة لم يكن هناك فصول، حقًا، ليس كما هو الحال هنا. لقد خرجت من إيقاع البرد والحر والمطر. لقد كان الجو حارًا، لقد أمطرت، وجاء المناخ البارد - نعم، بالتأكيد؛ ولكن كل ذلك كان شيئًا غريبًا بالنسبة لها، شيئًا يحدث بمعزل عنها. كان جسدها وعقلها خاضعين للحركات البطيئة للفصول: لم تراقب أبدًا فى حياتها سماء عنيدة بحثًا عن علامات للمطر كما تفعل الآن، تقف فى الشرفة، وتدير عينيها فى السحب البيضاء المتجمعة، ككتل من بلورات الكوارتز المتلألئة الهائلة تسبح وسط الزرقة.

فى أحد الأيام، قال ديك، عابسًا: "المياه تذهب بسرعة".

كانت المياه تأتى مرتين فى الأسبوع من أسفل التل حيث كانت توجد البئر. كانت مارى تسمع صراخًا وصياحًا، وكأن شخصًا يعانى ألمًا سافرًا، فتخرج إلى مقدمة البيت، وتراقب عربة المياه تأتى من خلال الأشجار، يجرها ثوران جميلان بطيئا الحركة، يجاهدان بكفليهما للصعود فوق المنحدر. كانت العربة عبارة عن برميلى بترول مربوطين فى إطار خشبى وفى المقدمة عمود خشبى يرتكز على النير على رقبة الحيوانين الكبيرين القويين. كانت تراقب العضلات الكثيفة تتحرك تحت الجلد، وترى كيف وضعت فروع من الأشجار فوق البرميلين لتظل المياه باردة. أحيانًا كانت المياه تتناثر وتصنع رذاذًا رقيقًا تحت الشمس الساطعة، وكان الثوران يدفعان برأسيهما ويهزان أنفيهما، متنسمين المياه. وطوال الوقت الذى يصيح فيه السائق الزنجى، راقصًا بجوار الحيوانين، ويفرقع كرباجه الطويل الذى كان يلتف ويهس فى الهواء، لكنه لا يلمسهما أبدًا.

سأل ديك: "فيم تستهلكين كل هذا الماء؟" فأخبرته. اسود وجهه، ونظر إليها برعب، كما لو كانت قد ارتكبت جريمة.

"ماذا؟ أتبددينه بهذه الطريقة؟"

قالت بهدوء: "أنا لا أبدده، إننى أشعر بحرارة شديدة ولا أستطيع تحملها. وأريد تبريد نفسى".

ابتلع ديك ريقه، محاولاً الاحتفاظ بهدوئه. وقال بغضب، فى صوت لم يستخدمه معها أبدًا من قبل:

"استمعي لي.. استمعي لي! كل مرة أطلب عربة المياه لإحضار مياه للبيت. فإن ذلك يعني أن الأمر بحاجة إلى سائق، وخادمين للعربة، وثورين، يتركون عملهم طوال الصباح. إن إحضار المياه يكلف نقودًا. ثم تلقين بها إلى الأرض! لماذا لا تملئين حوض الاستحمام بالمياه وتدخلين فيه، بدلاً من تبديدها وإلقائها كل مرة؟"

تملكها الغضب. وبدا أن هذه هي القشة الأخيرة. ها هي ذي، تعيش هنا دون شكوى، تعاني من كل هذه المصاعب؛ ثم لا يمكنها استخدام صفيحتين من المياه! فتحت فمها لتزعق فيه، لكن قبل أن تفعل، إذا به فجأة يبدو نادمًا، بسبب الطريقة التي تحدث بها إليها؛ وكان هناك مشهد آخر من تلك المشاهد الصغيرة التي تشعرها بالراحة والهدوء: هو يعتذر، ويستعطف، وهي تصفح وتغفر.

لكن عندما رحل، ذهبت إلى الحمام، وحدقت في حوض الاستحمام، وهي لا تزال تشعر بكراهية نحوه بسبب ما قال. كان الحمام قد بُني بعد انتهاء بناء البيت. كان بناء مستندًا على جدار البيت له جدران من الطين (طين تم تمليطه فوق عصي من الأشجار) وله سقف حديدي. وفي المناطق التي تسربت منها مياه الأمطار من خلال الوصلات في السقف ترك سقوط المياه أثرًا فاتح اللون وتشقق الطين. كان حوض الاستحمام نفسه من الزنك، شكل زنكي ضحل موضوع على أرضية من الطين المجفف. وكان المعدن

لامعًا فى البداية؛ وكان يمكنها معرفة ذلك؛ لأن الخدوش على السطح الكثيب كانت تلمع بوضوح. على مدى سنوات كانت بقايا الصابون والقذارة قد تشكلت، والآن، عندما يتم فركه، كان يظهر رقيقًا فى أماكن منه فقط. كان قذرًا، شديد القذارة! كانت مارى تبحلق فيه وقد تجمدت من الاشمئزاز. وعندما كانت تستحم، وكان ذلك مرتين فى الأسبوع بسبب التعب وتكلفة إحضار المياه، كانت تجلس بحذر على طرف الحمام، محاولة ألا تلمسه بقدر الإمكان، وأن تخرج منه بأسرع ما يكون. كان الحمام هنا نوعًا من الدواء لابد من تناوله، وليس رفاهية يمكن الاستمتاع بها.

كانت الترتيبات التى ينبغى إجراؤها قبل الحمام لا يصدقها عقل، بكت، وشعرت بنفسها تتمزق من الغضب. فى ليالى الحمام، كان يتم تسخين صفيحتين من المياه على الموقد، وتحملان إلى الحمام، وتوضعان على الأرض. وكان يتم تغطيتهما بأجولة المزرعة الثقيلة لتظل المياه ساخنة، وكانت الأجولة تصبح ساخنة ويصدر عنها بخار تنبعث منه رائحة عفنة. وقد علقت قطعة من الخشب عبر قمة كل صفيحة لحملها، وكان الخشب قذرًا ودهنيًّا من كثرة الاستعمال. أخيرًا قالت إنها لا يمكنها تحمل ذلك، وهى تستدير لترك الحمام فى غضب واشمئزاز. ودعت الخادم، وطلبت منه أن يفرك الحمام، أن يفركه حتى يصبح نظيفًا. وظن أنها تقصد التنظيف العادى، وفى خمس دقائق كان قد انتهى. ذهبت لتفحص ما

فعل، ولكن الحمام كان كما هو. وعندما تحسست بأصابعها الزنك، شعرت بطبقة القذارة. فدعته مرة أخرى، وطلبت منه أن ينظفه كما يجب، أن يظل يفركه حتى يلمع، كل بوصة منه.

كان ذلك فى حوالى الحادية عشرة صباحًا.

كان يومًا منحوسًا بالنسبة لمارى. ففى ذلك اليوم كانت أول صلة لها "بالمنطقة"، ممثلة فى شخص تشارلى سلاتر وزوجته. ويستحق الأمر أن نصف بالتفصيل ما حدث فى ذلك اليوم، لأن هذه التفاصيل يمكن أن تفسر لنا أشياء كثيرة: فقد مضت مارى من خطأ إلى خطأ، برأس مرتفع وفم مزموم، وقد ملأها الكبرياء والتصميم ألا تظهر ضعفها. عندما عاد ديك لتناول وجبة الظهيرة، وجدها فى المطبخ تقوم بالطهى، وتبدو مليئة بالغضب، الذى أضفى عليها مسحة قبيحة، كان وجهها متوردًا وشعرها غير مصفف.

سأل: "أين الخادم؟"، مندهشًا عندما وجدها تقوم بعمله.

قالت باختصار وبحدة غاضبة: "ينظف الحمام".

"ولماذا الآن؟"

قالت: "لأنه قذر".

ذهب ديك إلى الحمام، والذى كان يسمع منه صوت فرشاة الفرك، ووجد الزنجى منحنيًا على

حوض الاستحمام، يفرك بشدة، ولكن بلا نتائج كبيرة. عاد إلى المطبخ.

سألها: "لماذا يبدأ فى هذا العمل الآن؟ لقد ظل بهذا الحال لسنوات. إن أى حوض استحمام من الزنك يتحول إلى هذه الحالة. هذا ليس قذارة يا مارى، ليس قذارة بالضبط، إن لونه يتغير".

دون أن تنظر إليه ملأت صينية بالطعام وسارت إلى الغرفة الأمامية. قالت: "إنها قذارة، أنا لن أستحم فى هذا الحمام مرة أخرى حتى يصبح نظيفًا حقًا. كيف يمكن لك أن تسمح بأن تصل حالة الأشياء إلى هذه القذارة، هذا شىء لا أفهمه".

قال بجفاء: "لقد استخدمته بنفسك لأسابيع دون شكوى". وبآلية بدأ يخرج سيجارة ويضعها بين شفتيه. لكنها لم ترد.

هز رأسه عندما قالت إن الطعام جاهز، وخرج إلى الحقول مرة أخرى، وهو ينادى على الكلبين. عندما تكون فى هذه الحالة، لم يكن يتحمل أن يكون قريبًا منها. أزالت مارى الأشياء من على المنضدة، دون أن تأكل هى نفسها، وجلست لتستمع إلى صوت فرشاة الفرك. ظلت هناك لساعتين، رأسها مصدع، تستمع لكل عضلة من جسدها المتوتر. كانت مصممة ألا يهمل فى عمله. فى الساعة الثالثة والنصف، كان هناك فجأة صمت، واعتدلت فى جلستها، بنية أن تقوم للذهاب إلى الحمام وأن تجعله يبدأ العمل مرة أخرى.

لكن الباب فتح، ودخل، وبدون أن ينظر إليها، متوجهًا إلى قرينها الخفى، الذى يقف إلى جانب منها، قال إنه ذاهب إلى كوخه لتناول بعض الطعام، وسوف يستمر فى الحمام عندما يعود. كانت قد نسيت طعامه. لم تكن تفكر فى أن الزنوج بشر، يمكن أن يكونوا بحاجة إلى الطعام أو النوم: لقد كانوا إما هناك، أو ليسوا هناك، أما حياتهم عندما يكونون بعيدًا عن ناظريها فهو أمر لم تتوقف أبدًا للتفكير فيه. أومأت برأسها، شاعرة بالذنب. ثم نفضت هذا الشعور بالذنب وهى تفكر: "إنها غلطته، لأنه لم يكن ينظفه جيدًا منذ البداية".

هدأ التوتر الناتج عن الاستماع إلى عمله هذا، خرجت للنظر إلى السماء. لم تكن هناك أية سحب على الإطلاق. كانت السماء قبة زرقاء صافية، مشوبة بلون فوسفورى متوهج، بسبب الدخان الذى كان يجعل الهواء معتمًا. وكانت التربة الرملية الباهتة أمام البيت تخرج منها موجات متألقة من الضوء، وتتموج خارجة منها السيقان اليانعة من شجيرات البوينستيا، تنفجر فى خطوط من اللون القرمزى غير المنتظم. نظرت بعيدًا فوق الأشجار، التى كانت داكنة وتميل إلى البنى، والمتناثرة فوق مساحات من الحشائش اللامعة المتماوجة الممتدة حتى التلال. كانت مساحات ضبابية وباهتة. كانت النيران فى المروج تحترق منذ أسابيع، فى كل مكان حولها، وشعرت بطعم الدخان على لسانها. أحيانًا تقع على بشرتها جزيئات من

الحشائش المتفحمة، تاركة لطخة دهنية سوداء. وارتفعت أعمدة الدخان على البعد، تخرج منها أشكال ملتفة مزرقة معلقة بلا حركة، لتصنع أشكالاً هندسية معقدة فى الهواء الكئيب.

فى الأسبوع السابق اجتاحت النار جزءًا من مزرعتهما، فدمرت اثنتين من حظائر الأبقار وفدادين من حشائش الرعى. وفى الأماكن التى احترقت كانت تمتد أرض سوداء خربة، ورغم ذلك، هنا وهناك كانت بعض الرقع يخرج منها بعض الدخان وسط السواد، وكانت السحابات الصغيرة الباهتة من الدخان تظهر رمادية على الخلفية المتفحمة. أدارت عينيها إلى الناحية الأخرى، لأنها لم تكن تريد أن تفكر فى النقود التى ضاعت، ورأت أمامها، حيث يمتد الطريق، سحبًا من الأتربة المحمرة. كان مسار هذا الطريق يمكن دائمًا معرفته، لأن الأشجار على امتداده كانت بلون الصدأ كما لو كان الجراد مستقرًا عليها. راقبت الغبار المثار وكأنما هناك خنفساء تحفر بين الأشجار، وفكرت: "ما هذا، إنها سيارة!" وبعد بضع دقائق اكتشفت أن السيارة قادمة إليهم، وشعرت بالجزع. زوار! لكن ديك قال إنها لابد أن تتوقع أن يأتى زوار. جرت إلى خلف المنزل، لتخبر الخادم أن يعد الشاى، لكنه لم يكن هناك. وكانت الساعة حينئذ الرابعة: وتذكرت أنه منذ نصف ساعة كانت قد قالت له إنه يمكنه الذهاب. جرت نحو كومة القطع الخشبية، سحبت الكتلة الخشبية من فوق فرع الشجرة، وضربت

إسطوانة المحراث. كانت عشر ضربات هى الإشارة التى تقول إن خادم البيت مطلوب. ثم عادت إلى البيت. كان الموقد مطفأ؛ ووجدت من الصعب أن توقده؛ ولم يكن هناك شئ يمكن أكله. لم تكن قد تجشمت مشقة عمل بعض الكعك حيث إن ديك لم يكن موجودًا أبدًا فى موعد الشاى. فتحت علبة من البسكويت، ونظرت إلى شعرها، لم يكن من الممكن أن يراها الناس فى هذه الثياب المهلهلةً لكن الوقت كان متأخرًا جدًا. كانت السيارة تصعد التل الآن. اندفعت إلى مقدمة البيت، وهى تعتصر يديها. كانت الطريقة التى تصرفت بها توحى بأنها ربما كانت معزولة لسنوات، وغير معتادة على الناس، وليست امرأة عاشت سنوات وسنوات دون أن تكون لديها دقيقة واحدة وحدها. رأت السيارة تقف، وينزل منها شخصان. كان هناك رجل قصير، قوى البنية، بلون رملى، وامرأة ذات جسد مكتمل أسمر، بوجه لطيف. انتظرتهما، مبتسمة بخجل ردًا على وجهيهما الودودين. وهنـ ـارتياحها، رأت سيارة ديك تأتى صاعدة التل! شكرته فى نفسها لمراعاته، ومجيئه ليساعدها فى أول زيارة لها. كان قد رأى الغبار المثار فوق الأشجار أيضًا، وجاء بأسرع ما يستطيع.

شد الرجل والمرأة على يدها، ووجها إليها التحية. لكن ديك هو الذى طلب منهما الدخول. وجلسوا أربعتهم فى الغرفة الصغيرة، فبدت أصغر حتى وأكثر ازدحامًا مما هى. تحدث ديك وتشارلى

سلاتر من ناحية، وهى ومسز سلاتر فى الناحية الأخرى. كانت مسز سلاتر شخصية طيبة القلب، وشعرت بالأسف من أجل مارى التى تزوجت رجلاً فاشلاً مثل ديك. كانت قد سمعت أنها من فتيات المدينة، وهى تعرف عن نفسها ما معنى ضيق ذات اليد والوحدة، رغم أنها هى نفسها قد تجاوزت منذ زمن طويل مرحلة الكفاح. كان لديها الآن بيت كبير، وثلاثة أبناء فى الجامعة، وحياة مستريحة. لكنها تذكرت جيداً المعاناة والمهانة بسبب الفقر. نظرت إلى مارى برقة حقيقية، متذكرة ماضيها نفسه، وكانت مستعدة لعقد صداقة. لكن مارى كانت جافة وممتلئة ازدراء، لأنها لاحظت أن مسز سلاتر تنظر بمكر حولها فى الغرفة، محاولة تقدير كل قطعة أثاث، وملاحظة الطلاء الأبيض الجديد، والستائر.

قالت: "لقد جعلت البيت جميلاً للغاية"، بإعجاب حقيقى، حيث كانت تعلم كيف كان الحال عند استخدام أجولة الدقيق بدلاً من الستائر، وعلب الوقود المطلية كدواليب. لكن مارى أخطأت فهمها. ولم تلن على الإطلاق. لم تكن ترغب فى مناقشة منزلها مع مسز سلاتر، التى كانت تحاول مراعاتها. بعد لحظات قليلة، نظرت مسز سلاتر متفحصة وجه الفتاة، واحمر وجهها، وبصوت متغير أصبح رسمياً ومتباعداً، بدأت تتحدث فى أشياء أخرى. ثم جاء الخادم بالشاى، وشعرت مارى بالمزيد من الألم بسبب الأكواب والصينية الصفيح. وحاولت أن تفكر فى شىء

تتحدث فيه لا يتعلق بالمزرعة. السينما؟ كان عقلها يبحث بتركيز فى مئات الأفلام التى شاهدتها فى السنوات القليلة الماضية ولم تستطع أن تتذكر أسماء أكثر من فيلمين أو ثلاثة. الأفلام، التى كانت فى يوم من الأيام شديدة الأهمية بالنسبة لها، بدت الآن شيئًا غير حقيقى؛ وعلى أية حال، فقد كانت مسز سلاتر تذهب إلى السينما مرتين فى العام تقريبًا، عندما تكون فى المدينة فى رحلات الشراء النادرة التى تقـ بها. المحلات فى المدينة؟ لا، هذه مسألة نقود مرة أخرى، وهى ترتدى رداء قطنيًا باهتًا تخجل منه. ونظرت إلى ديك طلبًا للمساعدة، لكنه كان منصرفًا بكليته إلى الحديث مع تشارلى، يتناقشان فى المحاصيل والأسعار، وفى المقام الأول، يتناقشان حول العمالة الأهلية. متى يجتمع مزارعان أو ثلاثة معًا، فمن المقرر أنهم لن يتحدثوا فى شىء إلا فى قصور وعدم كفاءة عمالهم من الأهالى. كانوا يتحدثون عن عمالهم وفى أصواتهم توتر أكيد: وهم قد يحبون بعض الأفراد من الزنوج ، ولكن كجنس بشكل عام، فإنهم يكرهونهم لدرجة العصاب. ولا يتوقفون أبدًا عن الشكوى من سوء حظهم إذ يضطرون إلى التعامل مع الزنوج الذين لا قيمة لهم ولا يكترثون على الإطلاق لرفاهية الإنسان الأبيض، ولا يعملون إلا لإرضاء أنفسهم. وليس لديهم فكرة عن كرامة العمل، ولا فكرة عن تحسين أحوالهم بالعمل الشاق.

استمعت مارى إلى حديث الرجال متعجبة. كانت هذه أول مرة تسمع الرجال يتحدثون عن الزراعة.

وبدأت ترى ما يحتاج ديك إليه، وشعرت بأنها كانت أنانية إذ كان ما تعرفه قليلاً جدًا، ولم تستطع المساعدة فى إراحة عقله بمناقشة المزرعة معه. والتفتت إلى مسز سلاتر، التى كانت صامتة، شاعرة بأنها جرحت لأن مارى لا تقبل عطفها ومساعدتها. وأخيرًا وصلت الزيارة إلى نهايتها، مع الأسف من ناحية ديك، لكن مع الارتياح من جانب مارى. خرج مستر ومسز تيرنر إلى الخارج لتوديعهما، وراقبا السيارة الكبيرة باهظة الثمن تتهادى نازلة التل وتبتعد إلى الأشجار بين نثار الغبار الأحمر.

قال ديك: "إننى سعيد لأنهما أتيا. لابد أنك تشعرين بالوحدة".

قالت مارى بصدق: "أنا لا أشعر بالوحدة". كانت الوحدة بالنسبة لها هى أن تكون مشتاقة إلى صحبة الآخرين. لكنها لم تكن تعلم أن الوحدة يمكن أن تكون حالة غير ملحوظة من تدنى الروح المعنوية، بسبب الحاجة إلى الصحبة.

قال ديك، بسذاجة حمقاء: "لكنك لابد أن تتحدثى أحاديث النساء أحيانًا".

ألقت إليه نظرة مندهشة: هذه النغمة جديدة بالنسبة لها. لقد كان يحدق خلف العربة الذاهبة، ووجهه ملىء بالأسف. لم يكن آسفًا على تشارلى سلاتر، الذى لم يكن يحبه، ولكن على الحديث، الحديث الذكورى الذى أعطاه بعض الثقة بالنفس فى

علاقته مع مارى. لقد شعر وكأنه قد تلقى شحنة من القوة والنشاط، لأن تلك الساعة التى قضاها فى الغرفة الصغيرة، الرجلان فى ناحية، يناقشان اهتماماتهما، والمرأتان فى الناحية الأخرى، تتحدثان، كما يفترض، عن الثياب والخدم. فهو لم يسمع كلمة مما كانت تقوله مسز سلاتر ومارى. ولم يلاحظ كم كان الأمر مريكًا لهما .

وأعلن: "لابد أن تذهبى وتزوريها يا مارى. سوف أعطيك السيارة فى عصر أحد الأيام عندما يكون العمل خفيفًا، ويمكنك أن تذهبى وتتبادلى معها بعض النميمة" . كان يتحدث بأريحية وحرية، ووجهه خالٍ من ثقل الهم، ويداه فى جيبيه.

لم تفهم مارى لماذا بدا غريبًا وعدوانيًا بالنسبة لها، لكنها شعرت بالإهانة بسبب هذا الاختصار لحاجاتها. ولم تكن لديها رغبة فى صحبة مسز سلاتر. لم تكن تريد صحبة أى أحد.

قالت برعونة: "لا أريد".

"لماذا لا؟"

لكن عند تلك النقطة خرج الخادم إلى الشرفة خلفهما، حاملاً عقد الخدمة الخاص به دون كلمة. أراد أن يترك الخدمة: لأن عائلته فى العزبة بحاجة إليه. وفقدت مارى أعصابها فى الحال: وجد توترها مخرجًا متاحًا فى هذا الخادم الزنجى المثير للسخط. وشدها ديك إلى الخلف ببساطة، وكأنها كانت شيئًا لا

حساب له، وذهب إلى المطبخ مع الخادم. وسمعت الخادم يشكو من أنه ظل يعمل منذ الخامسة فى ذلك الصباح دون أى طعام، لأنه لم تمر لحظات على وصوله إلى المجمع حتى تم استدعاؤه مرة أخرى بالجرس. وهو لا يستطيع العمل بهذه الطريقة؛ إن طفله فى العزبة مريض، وهو يريد أن يذهب فى الحال. ورد ديك، متجاهلاً القواعد غير المكتوبة، أن السيدة الجديدة لا تعلم الكثير عن إدارة البيت بعد، وأنها سوف تتعلم، وهذا لن يحدث مرة أخرى. كان الكلام بهذه الطريقة مع أحد أهل البلد، استعطافه، كان ضد فكرة ديك عن العلاقة بين البيض والسود، ولكنه كان غاضبًا من مارى بسبب قلة مراعاتها وافتقادها إلى الذوق واللباقة.

شعرت مارى بالغضب يعميها. كيف يجرؤ على أن يأخذ جانب الزنجى ضدها! عندما عاد ديك كانت واقفة فى الشرفة ويداها معقودتان ووجهها جامد.

جاء صوتها مختنقًا وهى تقول: "كيف تجرؤ!"

قال ديك بتعب: "إن كان ينبغى لك أن تفعلى هذه الأشياء، فلابد لك أن تتحملى العواقب. إنه إنسان، أليس كذلك؟ ولابد له أن يأكل. لماذا لابد أن يتم تنظيف الحمام كله مرة واحدة؟ من الممكن أن يتم ذلك على عدة أيام، لو كان الأمر بهذه الأهمية بالنسبة لك".

قالت مارى: "هذا بيتى، وهذا خادمى وليس خادمك. لا تتدخل".

قال ديك باقتضاب: "استمعى لى، أنا أعمل بجدية وصعوبة بالغة، أليس كذلك؟ طوال اليوم أقضى الوقت فى الأرض مع أولئك الهمج السود الكسالى، أحاربهم لآخذ منهم بعض العمل. أنت تعلمين هذا. ولا أريد العودة إلى البيت لأجد هذه الحرب اللعينة، حرب، حرب فى البيت. هل تفهمين؟ لن أتحمل هذا. وينبغى أن تتعلمى بعض المنطق. لو كنت تريدين أن تأخذى منهم عملاً فلابد أن تعرفى كيف تديرينهم. ولا ينبغى أن تتوقعى أكثر من اللازم. فعلى أية حال، هم ليسوا إلا مخلوقات همجية". وهكذا، فإن ديك لم يتوقف أبدًا، لحظة واحدة، ليتأمل أن هؤلاء الهمج كانوا يطبخون له أفضل مما تفعل زوجته، ويديرون بيته، ويوفرون له وجودًا أفضل، بقدر ما كان يمكن لحياة الحرمان التى يعيشها، لسنوات.

لكن مارى لم تستطع أن تتمالك نفسها. قالت، رغبة فى إيذائه، حقًا كانت ترغب فى إيذائه لأول مرة، بسبب هذه الغطرسة التى تحدث بها: "إنك تتوقع الكثير منى، أليس كذلك؟" وعلى حافة كارثة، تمالكت نفسها، لكنها لم تستطع التوقف كاملاً. وبعد بعض التردد، استمرت قائلة: "إنك تتوقع الكثير جدًا! إنك تتوقع منى أن أعيش كفقيرة بيضاء فى بيتك هذا الصغير الأشبه بالسجن. إنك تتوقع منى أن أطبخ بنفسى كل يوم لأنك لا تريد أن تركب سقفًا...". كانت تتحدث بصوت جديد عليها، صوت لم تستخدمه من قبل فى حياتها. كان يأتى مباشرة من أمها، عندما

كانت تدور تلك المشاهد حول النقود مع أبيها. لم يكن صوت مارى، الشخصية (التى لم تكن رغم كل شىء تهتم إلى هذه الدرجة بالحمام أو ببقاء الزنجى أو ذهابه)، لكنه صوت الأنثى التى تعانى، التى أرادت أن تظهر لزوجها أنها لن تقبل هذا النوع من المعاملة. وفى لحظة سوف تبدأ بالبكاء، كما كانت أمها تبكى فى مثل هذه المناسبات، فى نوع من الغضب الاستشهادى المعبر عن الكرامة.

قال ديك بجفاء، وغضب: "قلت لك عندما تزوجتك ما يمكن أن تتوقعيه. لا يمكنك اتهامى بأنى قلت لك أكاذيب. لقد شرحت لك كل شىء. وهناك زوجات مزارعين فى كل مكان من البلاد يعشن بنفس الطريقة، ولا يصنعن كل هذه الضجة. أما بالنسبة للسقف، فهيهات أن تحصلى عليه.. لقد عشت فى هذا البيت ست سنوات ولم يتسبب لى فى أذى. حاولى أن تتقبليه بصبر".

لهثت فى دهشة. لم يتحدث أبدًا معها بهذه الطريقة من قبل. وفى داخلها شعرت بجفاء وبرودة تجاهه، ولم يكن هناك شىء ليستطيع أن يلينها حتى يقول إنه آسف ويرجو صفحها.

قال ديك: "هذا الخادم سوف يبقى الآن، لقد تكفلت بذلك. والآن عامليه بما يليق ولا تجعلى نفسك عرضة للسخرية مرة أخرى".

ذهبت مباشرة إلى المطبخ، وأعطت الخادم النقود التى له، وهى تعد الشلنات وكأنها تحقد على كل واحد

منها، وصرفته. وعادت باردة ومنتصرة. لكن ديك لم يعترف بانتصارها.

قال: "إنك لا تؤذينني، بل تؤذين نفسك، إذا استمريت بهذه الطريقة، فلن تجدى أى خدم. إنهم يعرفون بسرعة النساء اللائى لا يعرفن كيفية التعامل مع الخدم".

قامت بإعداد طعام العشاء بنفسها، بعد أن كافحت مع الموقد، وفيما بعد، عندما ذهب ديك إلى الفراش مبكرًا، كما هى عادته، ظلت وحدها فى الغرفة الأمامية الصغيرة. وبعد قليل، شعرت بأنها مختنقة فخرجت إلى الظلام خارج البيت، وسارت ذهابًا وإيابًا فى الطريق بين صفى الحجارة البيضاء التى كانت تلمع بخفوت فى الظلام، محاولة أن تحصل على نفس من الهواء البارد ليهدئ وجنتيها الملتهبتين. كان البرق يومض بخفة فوق الروابى؛ وكان هناك وهج أحمر كئيب فى المنطقة المحترقة؛ وفوق رأسها، كانت السماء مظلمة وخانقة. كانت متوترة ومفعمة بالكراهية. ثم بدأت تتصور نفسها تسير هناك ذهابًا وإيابًا فى الظلام، وكل تلك الشجيرات الكريهة حولها، خارج حظيرة الخنازير هذه التى يسميها بيتًا، وعليها أن تقوم بكل هذا العمل. بينما منذ أشهر قليلة كانت تعيش حياتها الخاصة فى المدينة، محاطة بأصدقائها الذين يحبونها ويحتاجونها. بدأت تبكى، وشعرت بالإشفاق على نفسها. ظلت تبكى لساعات، حتى أصبحت غير قادرة على السير أكثر من ذلك. ترنحت

عائدة إلى الفراش، شاعرة بأنها مخدوشة مجروحة. استمر التوتر بينهما لأسبوع لا يحتمل، حتى سقطت الأمطار أخيرًا، وأصبح الهواء باردًا ومسترخيًا. ولم يعتذر. مرت الحادثة دون ذكر لها. دون حل، ودون اعتراف، وضعا الصراع خلفهما، واستمرا وكأن شيئًا لم يكن. لكن هذا اليوم غيرهما كليهما. ورغم أن اطمئنانه لم يستمر طويلاً، وسرعان ما تراجع إلى اعتماده السابق عليها، وأثر اعتذار واهن فى صوته دائمًا، فقد ترك الأمر فى قلبه بعض الاستياء منها. ومن أجل حياتهما معًا كان عليها أن تخفف من كراهيتها له بسبب الطريقة التى تصرف بها، ولكن لم يكن من السهل أن تفعل ذلك، وتجمعت هذه المشاعر ضد الزنجى الذى غادر، وبشكل غير مباشر، ضد جميع الزنوج .

وقرب نهاية الأسبوع جاءت مذكرة من مسز سلاتر، تدعوهما معًا لحفل مسائى.

والحق أن ديك كان مترددًا فى الذهاب، لأنه كان قد ابتعد عن أسلوب تنظيم الحفلات؛ لم يكن يرتاح وسط زحمة الناس. لكنه أراد أن يقبل من أجل خاطر مارى. لكن مارى رفضت الذهاب. وكتب مذكرة رسمية من الشكر قائلة إنها يؤسفها، إلخ.

كانت مسز سلاتر قد دعتهما بناء على بواعث ود حقيقية، لأنها كانت لا تزال تشعر بالأسف من أجل مارى، رغم كبريائها الجاف المضجر. لكن المذكرة

ضايقتها: كانت تبدو منقولة من دليل لكتابة الرسائل. هذا النوع من الرسميات لم يكن يناسب السلوكيات المتبسطة للمنطقة، وأرت المذكرة لزوجها رافعة حاجبيها، دون أن تقول شيئًا.

قال تشارلى سلاتر: "دعيها، سوف تنزل من عليائها. وسوف يمتلئ رأسها ببعض التفكير، هذه هى مشكلتها. سوف تفيق. ولا أعنى أنها ضائعة تمامًا. إنهما بحاجة إلى أن يهزهما أحد لينظرا إلى الأمور بشكل أكثر منطقية. تيرنر يبحث عن المتاعب دائمًا. إنه شديد التعالى لدرجة أنه لا يستطيع حتى أن يحرق حاجزًا للنار! وهو يزرع الأشجار. الأشجار! إنه يبدد النقود بزراعة الأشجار وهو غارق فى الديون".

لم تكن قد بقيت أشجار تقريبًا فى مزرعة مستر سلاتر. كانت صرحًا لنموذج الزراعة الضار بالبيئة، وكانت هناك أخاديد تقطعها، وماتت أفدنة من التربة السمراء الجيدة بسبب سوء الاستعمال. لكنه استطاع أن يكسب نقودًا، هذا هو الأمر. وكان يثيره أن يفكر أن كسب النقود كان بهذه السهولة، وأن ذلك الغبى ديك تيرنر يلعب لعبة بلهاء بالأشجار. وبدافع من طيبة القلب، والتى كانت محملة ببعض السخط، قاد سيارته فى صباح أحد الأيام لرؤية ديك، متجنبًا البيت (لأنه لم يكن يريد مقابلة تلك الحمقاء اللزجة، مارى) باحثًا عنه فى الأرض. وقضى ثلاث ساعات محاولاً إقناع ديك بزراعة التبغ، بدلاً من الذرة والقمح والمحاصيل الصغيرة. وكان ساخرًا للغاية فى حديثه

حول تلك "المحاصيل الصغيرة"، الفول والقطن والقنب التى يحبها ديك. ورفض ديك بثبات أن يستمع إلى تشارلى. كان يحب محاصيله، والإحساس بأنه يضع البيض فى سلال عديدة. وكان التبغ يبدو له محصولاً غير إنسانى: كان أقرب إلى الصناعة وليس الزراعة، بكل ما يحتاجه من مخازن ومظلات التخزين والتصنيف والاستيقاظ فى الليل لملاحظة درجات حرارة المخازن.

سأله تشارلى وعيناه الواقعيتان مركزتان عليه: "ماذا سوف تفعل عندما تبدأ عائلتك فى النمو؟"

قال ديك بعناد: "سوف أخرج من الأزمة بطريقتى الخاصة".

قال تشارلى: "إنك أحمق. أحمق. لا تقل إننى لم أخبرك. ولا تأتِ لى طلبًا لقرض عندما تبدأ بطن زوجتك فى الانتفاخ وتكون بحاجة إلى النقود".

أجاب ديك، وقد شعر بإهانة، واسود وجهه كبرياء: "لم أطلب منك شيئًا فى حياتى". ومرت لحظة من الكراهية المحضة بين الرجلين. ولكن، فى مكان ما داخل كل منهما، وبطريقة ما، كان كلاهما يحترم الآخر، رغم اختلاف طباعهما. ربما لأنهما كانا يشتركان فى نفس الحياة، رغم كل شىء؟ وانفصلا بود كافٍ، رغم أن ديك لم يستطع أن يجارى تشارلى فى قدرته على الدعابة التى يخفى بها مشاعره.

وعندما ذهب تشارلى، عاد ديك إلى البيت، وقد ملأه القلق. كان الضغط والقلق المفاجئ دائمًا يتجه

إلى أعصاب معدته، وكان يريد أن يتقيأ. لكنه أخفى هذا عن مارى، بسبب الدافع إلى هذا القلق. كان ما يريده هو الأطفال الآن وقد بدا زواجه فشلاً ذريعًا ومن المستحيل إصلاحه. فمع وجود الأطفال قد يحدث تقارب بينهما وتكسر هذا الحاجز الخفى. لكنهما لا يستطيعان ببساطة أن يتحملا تكاليف أطفال. عندما قال لمارى (ظنًا منه أنها قد تكون مشتاقة للإنجاب) إنهما سوف يضطران إلى الانتظار، وافقت بنظرة ارتياح. ولم تفته هذه النظرة. لكن ربما عندما يخرج من الضائقة الشديدة، فقد يسرها أن تنجب أطفالاً.

وانهمك فى العمل بهمة أعلى، لكى تصبح الأشياء أفضل، ويصبح من الممكن إنجاب أطفال. كان يخطط ويرسم ويحلم طوال اليوم، واقفًا على أرضه، مراقبًا العمال يعملون. وفى الوقت نفسه، لم تتحسن الأحوال فى البيت. لم تستطع مارى أن تعتاد على التعامل مع الزنوج ، وتوقف الأمر عند ذلك. كان عليه أن يقبل ذلك، فهذه هى طبيعتها، ولا يمكن تغييرها. فالطباخ لا يستمر أبدًا أكثر من شهر واحد، وطوال الوقت هناك مشاهد وعواصف من الغضب. وقد أرغم نفسه على تحمل ذلك، شاعرًا فى داخله أن الأمر بشكل ما خطأه هو، فهو السبب فى المصاعب التى تعانى منها فى حياتها؛ ولكن أحيانًا كان يندفع من البيت مليئًا بالثورة. لو فقط كان لديها ما يملأ وقتها - كانت تلك هى المشكلة.

-٦-

بالصدفة البحتة، التقطت مارى كتيبًا صغيرًا حول تربية النحل من فوق طاولة أحد المحلات ذات يوم، وأخذته البيت معها؛ ولكن حتى لو لم تفعل، فلا شك أن هذا كان سوف يحدث بطريقة أو بأخرى. ولكن تلك الفرصة هى التى أعطتها أول فرصة لمعرفة حقيقة شخصية ديك، بالإضافة إلى كلمات قليلة سمعتها مصادفة فى نفس اليوم.

كانا نادرًا ما يذهبان إلى المحطة التى تقع على بعد سبعة أميال؛ ولكنهما كانا يرسلان أحد الزنوج مرتين فى الأسبوع لإحضار بريدهما وبقالتهما. كان يغادر فى حوالى العاشرة صباحًا، حاملاً كيس سكر فارغ يتأرجح على كتفيه، ويعود بعد أن تظلم الدنيا بالكيس منتفخًا، وينز دمًا من قطعة اللحم. لكن الزنجى، رغم أن الطبيعة منحته القدرة على السير مسافات طويلة دون أن يشعر بالتعب، لا يستطيع أن

يحمل أجولة الدقيق والحبوب؛ ومن ثم فلابد من عمل الرحلة بالسيارة مرة كل شهر.

أعطت مارى أوامرها، ورأت الأشياء توضع فى السيارة، وكانت واقفة على الشرفة الطويلة للدكان بين الكراتين والأجولة المتراصة، بانتظار أن ينتهى ديك من عمله. وبينما هو خارج، أوقفه رجل لا تعرفه، وقال: "حسنًا، يا يونان، هل غمر الفيضان مزرعتك مرة أخرى هذا الموسم؟" التفتت بحدة لتنظر: منذ سنوات قليلة لم تكن لتلاحظ النغمة التحتية من الازدراء فى مثل هذا الصوت الكسول الساخر. ابتسم ديك وقال: "كانت الأمطار جيدة هذا العام، والأمور ليست سيئة جدًا".

"هل تغير حظك إذًا؟"

"يبدو هذا!"

جاء ديك ناحيتها، وقد اختفت الابتسامة، وتجهم وجهه.

سألته: "من كان هذا؟"

"اقترضت منه مائتى جنيه منذ ثلاث سنوات، بعد زواجنا مباشرة".

"لماذا لم تخبرنى؟"

"لم أرد أن أشعرك بالقلق". وبعد لحظة توقف، سألته: "هل سددتها؟"

"كلها ما عدا خمسين جنيهًا."

"فى الموسم القادم، على ما أظن؟" كان صوتها رقيقًا جدًا، ومراعيًا جدًا.

"بضربة حظ".

رأت على وجهه تلك الابتسامة الغريبة، والتى كانت أقرب إلى كشف الأسنان منها إلى الابتسامة: ناقدة للذات، تقييمية، منهزمة. كانت تكره رؤيتها.

انتهيا مما جاءا من أجله: إحضار البريد من مكتب البريد، وشراء لحم الأسبوع. وبينما يسيران فوق الأرض الطينية الجافة، والتى كانت تظهر فيها آثار تجمعات المياه منذ بداية فصل المطر وحتى نهايته، وبينما كانت تظلل على عينيها بيدها، شعرت مارى بنفور من النظر إلى ديك، وراحت تلقى بملاحظات مرحة بصوت متكلف. وحاول أن يجيب بنفس النغمة؛ الأمر الذى كان غريبًا عليهما حتى أنه عمق من التوتر بينهما. وعندما عادا إلى شرفة الدكان، التى كانت مزدحمة بالأجولة وعلب التعبئة، ارتطمت قدمه ببدال دراجة واقفة مستندة على السور، وبدأ يسب بعنف لا يتناسب مع الحادثة الصغيرة. التفت الناس لينظروا، واستمرت مارى فى سيرها، وقد تغير لونها. فى صمت تام ركبا السيارة وقادها ديك بعيدًا على طريق السكك الحديدية، وعبرا مكتب البريد فى طريقهما إلى البيت. كانت تمسك فى يدها بذلك الكتيب الإرشادى عن النحل. كانت قد أخذته من على الطاولة؛ لأنها فى معظم

الأيام، فى وقت تناول وجبة الظهيرة، كانت تسمع أزيزًا يتزايد حول البيت، وكان ديك قد قال لها إنها أصوات أسراب من النحل تمر بالمكان. فكرت أنها يمكن أن تكسب بعض النقود من النحل. لكن الكتيب كان مكتوبًا عن الظروف الإنجليزية. ولم يكن مفيدًا جدًا. فاستخدمته كمروحة تبعد بها الذباب، الذى كان يئز حول رأسها ويتجمع فى النهاية على سقف العربة المصنوع من القماش. كانا قد جاءا من عند الجزار باللحم. وظلت تفكر فى الملحوظة المحملة بالازدراء فى صوت الرجل، والتى تتناقض مع كل أفكارها الماضية عن ديك. بل إن تلك الملحوظة لم تكن حتى ازدراء، بل كانت أقرب إلى من يتسلى بالسخرية منه. كان موقفها الخاص نحوه فى جوهره هو موقف الازدراء، لكن فقط كرجل؛ كرجل لا تهتم به، كرجل خرج من حسابها كُلِّيا. أما كمزارع، فقد كانت تحترمه. كانت تحترم اجتهاده الشديد وضغطه على نفسه، وانهماكه التام فى عمله. كانت تعتقد أنه يمر بفترة كفاح لابد منها قبل أن يصل إلى بعض اليسر الذى ينعم به معظم المزارعين. كان شعورها نحوه، فيما يتعلق بعمله، هو الإعجاب، بل والميل العاطفى.

هى التى كانت تأخذ كل شىء بقيمته السطحية، ولم تلاحظ أبدًا ما قد تحمله عبارة من معان ضمنية، أو النظرة التى بظهورها على الوجه تعنى تناقضها مع ما يُقال، قضت ساعة العودة إلى البيت فى السيارة تفكر فى المعانى التى يمكن أن تكون متضمنة فى

العبارة الساخرة اللطيفة التى قالها الرجل لديك. لأول مرة تتساءل فى داخلها ما إذا كانت تخدع نفسها. ظلت تنظر من جانب عينها إلى ديك، وتلاحظ أشياء قليلة فيه أنبت نفسها؛ لأنها لم تلاحظها من قبل. فبينما هو يمسك بعجلة القيادة، كانت يداه الهزيلتان المحترقتان بلون القهوة بسبب الشمس، ترتعشان على الدوام، ولو أن ذلك كان بدرجة غير محسوسة. وبدا لها ذلك الارتعاش علامة على الضعف؛ الفم كان مزمومًا بشدة. كان ميله إلى الأمام وهو يمسك بعجلة القيادة، يحدق إلى الطريق الضيق المتعرج بين الشجيرات كما لو كان يحاول أن يرى مستقبله هو نفسه.

وفى البيت، ألقت بالكتيب على المنضدة وذهبت لفض البقالة وترتيبها. وعندما عادت كان ديك مستغرقًا فى قراءة الكتيب. لم يسمعها عندما تكلمت. كانت معتادة على هذا الاستغراق منه: أحيانًا يجلس طوال تناول الطعام دون أن يتكلم، ودون أن يلاحظ ما يأكله، أحيانًا يضع شوكته وسكينه قبل أن يفرغ طبقه، وهو يفكر فى إحدى مشكلات المزرعة، وقد أثقلت الهموم حاجبيه. كانت قد تعلمت ألا تضايقه فى تلك الأوقات. كانت تلجأ إلى أفكارها الخاصة؛ أو على الأصح كانت ترتد إلى حالتها الطبيعية، وهى حالة بلادة غافلة. أحيانًا كانت تمر بهما أيام لا يتبادلان فيها كلمة واحدة.

بعد العشاء، بدلاً من الذهاب إلى الفراش كالعادة فى حوالى الساعة الثامنة، جلس إلى المنضدة تحت مصباح البارافين المتأرجح برقة، وبدأ عمل بعض الحسابات على قصاصة من الورق. جلست تراقبه، وقد طوت يديها. وكان هذا الوضع الآن هو الخاصية المميزة لها: الجلوس بهدوء، وكأنها بانتظار شىء يدفعها إلى الحركة. وبعد حوالى ساعة، دفع قصاصات الورق بعيدًا عنه، وشد بنطلونه لأعلى بحركة مرحة صبيانية لم ترها من قبل.

"ما رأيك فى النحل، يا مارى؟"

"لا أعرف شيئًا عنه. إنه فكرة غير سيئة".

"سوف أذهب غدًا لرؤية تشارلى. لقد قال لى مرة إن أخا زوجته يربى نحلاً فى الترانسفال". كان يتحدث بحيوية، وبدا أنه قد اكتسب حياة جديدة.

قالت، وهى تقلب الكتاب بريبة: "ولكن هذا الكتاب خاص بإنجلترا". وبدا لها أساسًا واهيًا لمثل هذا التغيير بالنسبة له؛ أساسًا واهيًا حتى لهواية مثل تربية النحل.

ولكن فى اليوم التالى، بعد الإفطار، ذهب ديك بالسيارة لرؤية تشارلى سلاتر. وعاد متجهمًا، وعلى وجهه عناد ولكنه يصفر راضيًا. تلك الصفارة روعت مارى: فقد كانت مألوفة لديها. كانت خدعة منه يلجأ إليها عندما تفقد أعصابها وتثور عليه بسبب البيت أو بسبب سوء ترتيبات المياه؛ فكان يضع يديه فى جيبيه

بطريقة صبيانية، ويصفر برضا يدعو إلى الرثاء. وكان ذلك يجعلها دائمًا تشعر بأنها تكاد تجن، لأنه لم يكن قادرًا على الصمود أمامها والاحتفاظ برباطة جأشه.

سألته: "ماذا قال؟"

"إنه يشوش على الأمر كله. وفشل أخى زوجته لا يعنى أننى سوف أفشل أنا أيضًا".

وذهب إلى المزرعة بشكل غريزى متجهًا إلى المنطقة التى زرعها بالأشجار. كانت هذه المنطقة عبارة عن مائة فدان تقريبًا من أفضل الأراضى فى مزرعته، وقد زرعها بأشجار صمغ صغيرة منذ حوالى عامين. وكانت هذه المنطقة هى أكثر ما أثار ضيق تشارلى سلاتر - ربما لأنه يشعر شعورًا داخليًا بالذنب لأنه هو نفسه لم يحاول أبدًا أن يعيد إلى أرضه ما أخذه منها.

كان ديك غالبًا ما يقف على حافة الحقل، ويراقب الرياح تهب على قمم أشجاره اللامعة الصغيرة، والتى كانت تميل وتتأرجح وتهتز طوال اليوم. ومن الواضح أن زراعته لها كانت نزوة؛ لكنها كانت تحقق أحد أحلامه. فقبل شرائه للمزرعة بسنوات، كانت إحدى شركات التعدين قد قطعت كل شجرة فى هذا المكان، وتركته أرضًا خاوية إلا من بعض الحشائش الخشنة الذاوية. كانت الأشجار تعود إلى النمو مرة أخرى، ولكن على مدى ثلاثة آلاف

فدان هى كل أرضه لم يكن ثمة ما يُرى إلا نموًّا ثانيًا متقزمًا: أشجارًا قصيرة قبيحة تنمو من بقايا الجذوع المبتورة. لم تكن هناك شجرة طيبة واحدة متروكة على أرض المزرعة. ولم تكن زراعة مائة فدان بالأشجار الطيبة التى عندما تصل إلى كامل نموها ستصبح أشجارًا عملاقة بيضاء الجذوع بالشىء الكثير، لكنه كان نوعًا من المكافأة؛ وكان هذا المكان هو مكانه المفضل فى المزرعة. عندما كان يشعر بالقلق والضيق، أو بعد مشاجرة مع مارى، أو يريد أن يفكر تفكيرًا صافيًا، كان يقف وينظر إلى تلك الأشجار؛ أو يتجول على الممرات الطويلة بين تلك الأفرع اللامعة المتأرجحة التى تتألق عليها أوراق صغيرة لامعة مثل قطع العملة. واليوم كان يفكر فى النحل؛ حتى اكتشف، متأخرًا للغاية، أنه لم يمر بأعمال المزرعة طوال اليوم، وترك المكان متنهدًا وذهب ليلقى نظرة على العمال.

وفى وقت وجبة الغداء لم يتكلم كلمة واحدة. كان النحل هاجسًا يتملكه. وأخيرًا شرح لمارى التى كانت مرتابة أنه يعتقد أن من الممكن أن يكسب مائتى جنيه فى السنة بكل بساطة. كانت هذه صدمة بالنسبة لها، فقد تخيلت أنه يفكر فى بضع خلايا للنحل كهواية مربحة. ولكن المناقشة معه لم تكن مجدية: فلا يمكنك أن تجادل أمام الأرقام، وكانت حساباته دليلاً لا يمكن دحضه على أن هذه الجنيهات المائتين أكيدة وكأنها قد أصبحت موجودة بالفعل. وماذا يمكنها أن تقول؟ لم تكن لديها خبرة فى هذا الشىء؛ لكن غريزتها كانت تقول لها ألا تثق بالنحل فى هذه المناسبة.

وطوال شهر كامل كان ديك فى حالة من الغفلة، غاب فى حلم جميل من ثراء عسل النحل والخلايا السمراء الثقيلة من النحل المثمر. بنى عشرين خلية بنفسه؛ وزرع فدانًا بنوع معين من الحشائش بالقرب من القطعة المخصصة للنحل. وأخذ بعض عماله من عملهم المعتاد، وأرسلهم إلى المروج للبحث عن أسراب النحل، وقضى ساعات كل مساء فى الغسق الذهبى، يدخن حول الأسراب محاولاً القبض على ملكة النحل. وقد قيل له إن هذه هى الطريقة الصحيحة. لكن كثيرًا من النحل مات، ولم يجد الملكات. ثم بدأ يزرع خلاياه فى كل مكان من البرارى بالقرب من خلايا النحل، أملاً فى أن تجتذب النحل. لكن لم تذهب نحلة واحدة نحو خلاياه؛ ربما لأن هذا النحل كان نحلاً إفريقيًا، ولم يكن يحب الخلايا المصنوعة على الطراز الإنجليزى. من يعلم؟ من المؤكد أن ديك لم يكن يعلم السبب. وأخيرًا استقر سرب من النحل فى إحدى الخلايا. لكن لا يستطيع المرء أن يكسب مائتين فى العام من سرب واحد من النحل. ثم أصيب ديك بقرصة نحلة، وكانت سيئة للغاية، وبدا أن سم النحلة شفاه من الهاجس الذى تملكه. ورأت مارى، أن حالة الذهول والتفكير الطويل قد اختفت من وجهه، وأصابها الاستغراب بل والغضب، فقد قضى أسابيع من الوقت وكثير من المال. إلا أنه فى يوم وليلة فقد اهتمامه بالنحل. وعلى وجه العموم، شعرت مارى بالارتياح لعودته إلى المعتاد، يفكر فى محاصيله

ومزرعته مرة أخرى. كانت حالة من الاكتئاب المؤقت التى كان فيها مختلفًا تمامًا عن طبيعته.

وبعد حوالي ستة أشهر حدث نفس الشىء مرة أخرى. حتى حينئذ لم تستطع مارى أن تصدق عندما رأته يحدق فى مجلة من مجلات الزراعة، التى كان فيها مقال مغرٍ للغاية حول المكاسب التى يمكن جنيها من تربية الخنازير، وسمعته يقول: "مارى، سوف أشترى بعض الخنازير من تشارلى".

قالت بحدة: "أتمنى ألا تكون بسبيلك لفعل ذلك مرة أخرى".

"فعل أى شىء؟"

"إنك تعلم جيدًا ما أعنيه. بناء قلاع فى الهواء حول كسب النقود. لماذا لا تلتزم بمزرعتك؟"

"تربية الخنازير نوع من الزراعة، أليس كذلك؟ وتشارلى جنى الكثير من خنازيره". ثم بدأ يصفر. وبينما كان يسير عابرًا الغرفة إلى الشرفة، للهرب من وجهها الغاضب المتهم، بدا لها أن الواقف أمامها ليس فقط هذا الرجل الطويل النحيل، الذى تنحنى أكتافه بعض الانحناء؛ ولكنه كان يحمل داخله أيضًا فتى صغيرًا متكبرًا، يحاول أن يحتفظ برأسه عاليًا بعد أن صُبَّ ماء بارد على حماسه. استطاعت أن ترى بوضوح ذلك الصبى الصغير، مختالاً بردفيه ويصفر، ولكن مع نظرة منهزمة حول ركبتيه وفخذيه. سمعت الصفارة من الشرفة، نوعًا من الضوضاء السوداوية الكئيبة،

وفجأة شعرت بالرغبة فى البكاء. ولكن لماذا، لماذا؟ فقد يتمكن بالفعل أن يربح من الخنازير. لقد ربح آخرون. ولكن على كل الأحوال، علقت آمالها إلى نهاية الموسم، عندها سوف يريان كم من النقود استطاع أن يربحها. لا ينبغى أن يكون الأمر بهذا السوء، لقد كان الموسم جيداً، وكانت الأمطار رحيمة بديك.

بنى ديك زرائب الخنازير خلف البيت بين صخور الرابية. وكان ذلك رغبة فى توفير الطوب كما قال؛ وفرت له الصخور جزءاً من الجدران؛ واستخدم الجلاميد الكبيرة كإطار يثبت فيه شاشات من الحشائش والخشب. ووفر الكثير من النقود عندما بناها بهذه الطريقة، هكذا قال لها.

سألت مارى: "ولكن ألن يكون الجو شديد الحرارة هنا؟". كانت تقف بين الزرائب التى لم يكتمل بناؤها، فوق الرابية. لم يكن من السهل الصعود إلى هنا، من خلال الحشائش والأعشاب المتشابكة التى تلتصق بسيقان السائرين بينها، تاركة إياها وقد امتلأت بالأشواك الخضراء الصغيرة العالقة كمخالب القط. كانت هناك شجرة إفوربيا تمتد فروعها إلى السماء من قمة الرابية، وقال ديك إنها سوف توفر الظل والبرودة. لكنهما كانا يقفان الآن فى ظل دافئ تحت الأغصان اللحمية السميكة الشبيهة بالقناديل، وكانت مارى تشعر بأن رأسها بدأ يؤلمها. كانت الصخور شديدة السخونة بحيث لا يمكن لمسها: فأشعة الشمس المتراكمة لأشهر بدا وكأنها مختزنة

فى ذلك الجرانيت. نظرت إلى كلبى المزرعة، اللذين رقدا منهكين على أقدامهما، يلهثان، وقالت: "أتمنى ألا تشعر الخنازير بالحرارة".

قال: "لكنى أقول لك، لن يكون الجو حارًا، وخاصة لأننى وضعت بعض واقيات الشمس".

"إن الحرارة تبدو منبعثة من الأرض".

"حسنًا يا مارى، النقد لا بأس به، ولكنى وفرت نقودًا بهذه الطريقة. لم يكن من الممكن أن أنفق خمسين جنيهًا على الطوب والأسمنت".

وبسبب النغمة الدفاعية فى صوته، قالت مارى باستعجال: "إننى لا أنتقد".

واشترى ستة خنازير مرتفعة الثمن من تشارلى سلاتر، ووضعها فى الزرائب المثبتة فى الصخر. لكن الخنازير لابد من إطعامها؛ وهو أمر مكلف إن كان ينبغى شراء طعام لهذا الغرض. ووجد ديك أنه قد يضطر لطلب أجولة كثيرة من الذرة. وقرر أن يطعمها كل اللبن الذى تنتجه أبقاره فيما عدا أقل كمية يحتاجها البيت. ثم ذهبت مارى ذات صباح إلى مكان حلب الأبقار لتشرف على إحضار اللبن من حظائر الأبقار، ولتصب منه حوالى باينت(*) لهما. وكان الباقى مقررًا أن يترك ليروب على المنضدة فى المطبخ؛ لأن ديك قرأ فى مكان ما أن اللبن الرائب يتمتع بمزايا تساعد على تربية اللحم يفتقدها اللبن

(*) (نصف لتر تقريبًا)

الطازج. وتجمع الذباب على السائل الأبيض المبقبق، وأصبح البيت كله له رائحة مزعجة قليلاً.

وهنا، عندما تصل الخنازير الصغيرة، وتكبر، سوف تكون هناك مشكلة نقلها وبيعها، وهكذا... لكن تلك المشكلات لم تظهر، لأن الخنازير عندما ولدت ماتت تقريبًا فى الحال. قال ديك إن مرضًا أصاب خنازيره: إنه حظه السيئ؛ لكن مارى علقت بجفاء أنه تظن أن الخنازير كانت تكره أن تُشوى قبل الأوان. وشكر لها هذه الملحوظة الفكاهية البشعة: فقد جعلت من الممكن أن يضحكا، وأنقذت الموقف. وقد ضحك بارتياح، وهو يهرش فى رأسه بحزن ويجذب بنطلونه لأعلى؛ ثم بدأ يصفر لحنه المتفجع السوداوى المكتئب. سارت مارى خارجة من الغرفة، واكتسى وجهها بالجمود. إن النساء اللائى يتزوجن رجلاً مثل ديك يتعلمن إن آجلا أو عاجلا أنه ليس أمامهن سوى أمر من اثنين: أن يصبن بالجنون، ويمزقن أنفسهن فى نوبات من الغضب والتمرد التى لا جدوى منها؛ أو أن يتماسكن جيدًا مع شعور بالمرارة. ومع تكرار معاودة ذكرى أمها كصورة تهكمية أكبر سنًا منها وهى تسير إلى جوارها، اتخذت مارى المسار الذى كان حتميًا نتيجة تربيتها. كان الغضب على ديك يبدو لها هزيمة لكبريائها؛ وبدا وجهها الذى كان فى السابق لطيفًا ولكن عديم الملامح يتخذ خطوطًا من الثبات والجلد؛ ولكنه بدا وكأنه تلبس قناعين متناقضين؛ أصبحت شفتاها رفيعتين ومزمومتين، ولكن كان يمكن أن

ترتعشا توترًا؛ وتقارب حاجباها، ولكن بينهما كانت رقعة هشة حساسة من الجلد يمكن أن تشتعل بلون أحمر كئيب عندما تكون فى نزاع مع خدمها. أحيانًا كانت تظهر سيماء متعبة لامرأة عجوز لا تقهر، تعلمت أن تقبل أسوأ الأشياء من الحياة، وأحيانًا كانت تبدو بوجه هستيرى غير قادر على الدفاع. لكنها كانت لا تزال قادرة على السير خارجة من الغرفة، صامتة، فى انتقاد أبكم.

ولم تمر سوى أشهر قليلة بعد بيع الخنازير عندما لاحظت فى أحد الأيام، بإحساس بالبرودة يسرى فى بطنها، ذلك التعبير الجذل المألوف على وجه ديك. رأته يقف فى الشرفة، يحدق إلى أميال من البرارى السمراء الباهتة على التلال، وتساءلت أية رؤية تملكه الآن. ولكنها ظلت صامتة، منتظرة أن يلتفت إليها، بانفعال صبيانى بسبب النجاح الذى رآه فى خياله. وحتى حينئذ لم تكن فى الواقع قد استسلمت لليأس الكامل. وقالت لنفسها، محتجة ضد حس التحذير الداخلى الباهت، بأن الموسم كان جيدًا، وأن ديك مسرور جدًّا؛ لقد دفع مائة جنيه من الرهن العقارى، ولديه ما يكفى فى يده لعام قادم دون قروض. دون أن تدرى، كانت قد أصبحت متكيفة على طريقته السلبية فى الحكم على الموسم بمعدل الديون التى لم يقترضها. وعندما أشار ذات يوم، بنظرة متحاشية لها، أنه كان يقرأ عن الديوك الرومى، أجبرت نفسها على أن تبدو مهتمة. وقالت لنفسها إن

المزارعين الآخرين يفعلون هذه الأشياء ويجنون أرباحًا. وإن عاجلاً أو آجلاً سوف يجد ديك ضربة حظ، والسوق سوف يحابيه، ربما؛ أو الجو فى مزرعته قد يناسب الديوك الرومية بشكل خاص، وقد يجد أنه جنى ربحًا طيبًا. ثم بدأ يذكرها، وهو يدافع عن نفسه ضد الاتهامات التى لم توجهها إليه، إن ما خسره فى موضوع الخنازير كان قليلاً جدًّا على أية حال (يبدو أنه نسى موضوع النحل)؛ وأنها كانت تجربة غير مكلفة. فالزرائب لم تكلف شيئًا على الإطلاق، وأجور العمال لم تكن إلا بضعة شلنات. والطعام كان من إنتاجه كله عمليًّا. وتذكرت مارى أجولة الذرة التى اشتروها، وأن أكبر قلق أقض مضجعهما حينها كان يجد نقودًا لدفع أجور العمال، ومع ذلك ظلت محتفظة بفمها مغلقًا وعينيها تنظران بعيدًا، مصممة على ألا تثير فيه المزيد من الأحاسيس العدائية التى تضعه فى موقف الدفاع عن النفس.

فى الأسابيع القليلة من هاجس الديوك الرومى، كانت ترى ديك لفترات أطول مما حدث منذ تزوجته، أو مما سيحدث بعد ذلك أبدًا. كان نادرًا ما يذهب إلى المزرعة على الإطلاق؛ وكان يقضى اليوم بطوله يشرف على بناء البيوت من الطوب والحظائر العظيمة المحاطة بالأسلاك. كلفت الشبكة السلكية الجيدة أكثر من خمسين جنيهًا. ثم تم شراء الديوك الرومى، والحضانات مرتفعة الثمن، وآلات الوزن، وكل المعدات الأخرى التى رأى ديك أنها ضرورية؛ ولكن

قبل أن تفقس أول مجموعة من البيض، أشار فى أحد الأيام أنه يفكر فى استخدام البيوت والأفنية لتربية الأرانب وليس الديوك الرومى. فالأرانب يمكن إطعامها على حفنة من الحشائش، وهى تتكاثر مثل... حسنًا، مثل الأرانب. وصحيح أن الناس لا يحبون طعم لحم الأرانب كثيرًا (وهذا أحد تحيزات جنوب إفريقيا)، لكن مسألة الطعم يمكن الحصول عليها، ولو باعا الأرانب بخمسة شلنات للواحد، فإنه يتوقع أن يربحا خمسين أو ستين جنيهًا فى الشهر بكل ارتياح. ثم، عندما تستقر الأرانب، يمكنهما شراء سلالة من أرانب الأنجورا، لأنه سمع أن صوفها يباع بستة شلنات للأوقية.

وعند هذه النقطة، لم تستطع مارى أن تمسك نفسها، وكرهت نفسها لذلك، ففقدت أعصابها. فقدتها نهائيًا وبلا رجعة. وحتى وهى تثور غاضبة عليه، كان شعورها بالإدانة الباردة لنفسها؛ لأنها كانت تعطيه الإحساس بالإشباع عندما يراها بهذه الطريقة. لكنه ما كان ليفهم هذا الشعور. كان غضبها مريعًا بالنسبة له، رغم أنه كان يقول لنفسه باستمرار إنها كانت على خطأ وليس لديها حق في أن تخذل نواياه الطيبة رغم سوء الحظ الذى يواكب جهوده. غضبت مارى، وبكت، وشتمت، حتى أصبحت غير قادرة على الوقوف فى النهاية، وظلت مستلقية فى ركن الأريكة، تنهنه، محاولة أن تأخذ أنفاسها. ولم يشد ديك بنطلونه، ولا بدأ بصفر أو يبدو مثل صبى عنيد. لقد

نظـر إليـها وقتًا طويلة وهى تجلـس هـناك، تتهـنـه؛ ثم قـال بسـخـريـة: "حسـنًـا يـا ريس"، لـم يـعـجـب هـــذا مـارى؛ لم يعجبها على الإطلاق؛ فملاحظـته الساخرة كانت تقول عن زواجهما أكثر مما سمـحت لنفسها بأن تـفـكـر فـيه، وكـان من غـيـر المحـتـمل أن ازدراءهـــا له يمكن أن يوضع بكل بسـاطة فى كلمات: إن زواجهما نـفسه يسـتـدعى أن تـنـظـر إليه بإشـفـاق كـبـيـر، لا أن تحتقره.

ولكن لم يعد هـنـاك المزيد من الكلام عن الأرانب أو الـديـوك الـرومى. بـاعـت الـديـوك الـرومى، وملأت الأفنيـة السلكية بالدجاج. قـالت إن ذلك لكى تحصل على بعض النقود لتشترى لنفسها ثيابًا. هل توقع منها أن تعيش فى أسمال مثل الكفيريين. لكن الواضح أنه لم يكن يتوقع أى شىء، لأنه لم يرد حتى على تحديها له. لـقـد انـشـغل مـرة أخـرى. ولم يـكن ثـمـة تـلـمـيح بالاعتذار أو فى الدفاع عن النفس عندما أخبرها أنه ينوى أن يقيم دكانًا كفيريًا على مزرعته. وصرح بالأمر ببسـاطة، دون أن ينظـر إليـهـا، بصوت يوحى بـالأمـر الـواقـع شـئـت أم أبـيـت. قـال إن الجـمـيـع يـعـرفـون أن الـدكـاكـين الـكـفـيـريـة تـكـسـب أكـومًـا من الـنـقـود. كـان تـشـارلى سـلاتـر لـديـه دكـان فـى مـزرعـتـه، كـثـيـر من المزارعين لديهم هذه الدكاكين. إنها مناجم للأرباح. شـعـرت مـارى بـالانـقـبـاض من كـلـمـة "مـنـاجـم"، لأنـهـا وجـدت ذات يـوم سـلـسـلـة من الحـفـر المنـهـارة المغطاة بالأعشاب خلف البيت، وقد أخبرها أنه حفرها منذ

سنوات لاكتشاف السيارة الإلدورادو التى كان مقتنعًا بأنها مخبأة تحت تربة مزرعته. قالت بهدوء: "إن كان هناك دكان فى مزرعة سلاتر، على بعد خمسة أميال فقط، فلا معنى لإقامة دكان آخر هنا".

"إن لدى مائة من الزنوج هنا دائمًا".

"إن كانوا يكسبون خمسة عشر شلنا فى الشهر، فلن تصبح روكفلر من إنفاقهم".

قال بعناد: "هناك دائمًا زنوج يمرون من هنا".

وتقدم بطلب لترخيص تجارى، وحصل عليه بدون صعوبة. ثم بنى دكانًا. وبدا لمارى شيئًا مرعبًا، نذير شؤم وتحذير، أن الدكان، ذلك المكان القبيح الكئيب لطفولتها، يتبعها إلى هنا، حتى إلى بيتها.

ولكنه بنى على بعد بضع مئات من الياردات من البيت نفسه، وكان يتكون من غرفة صغيرة تقسمها طاولة، وغرفة أكبر فى الخلف ليوضع فيها الخزين. والمخزون الذى كانا بحاجة إليه فى البداية كان يمكن وضعه كله على أرفف الدكان نفسه، ولكن عندما يتوسع الأمر، فسوف يكونان بحاجة إلى الغرفة الثانية.

ساعدت مارى ديك فى ترتيب البضائع، وهى تشعر بانقباض هائل، كارهة الإحساس بالمواد الرخيصة التى تنبعث منها رائحة الكيماويات، والبطاطين التى بدت خشنة ومزيتة عند لمسها حتى قبل استخدامها. وعلقا المجوهرات المصنوعة من

الزجاج المبهرج والنحاس والبرونز، وقد جعلتها ماری تتدلى متأرجحة ترن، بابتسامة مزمومة الشفتين، بسبب ذكرياتها عن طفولتها، عندما كانت تفرح بمراقبة الخيوط اللامعة من الخرز تتأرجح وتومض. كانت تفكر أن هاتين الحجرتين لو أضيفتا إلى البيت لجعلتا حياتهما أكثر راحة: النقود التى أنفقت على الدكان، وعلى أفنية الديوك الرومى، وعلى حظائر الخنازير، وعلى خلايا النحل، كان يمكن أن تقيم سقفًا للبيت، كان يمكن أن تحميها من الرعب عند التفكير فى اقتراب الموسم الحار. لكن ما الفائدة من قول ذلك؟ لقد شعرت أنها تذوب فى دموع يائسة شريرة؛ لكنها لم تقل كلمة، وساعدت ديك فى العمل حتى انتهى.

وعندما أصبح الدكان جاهزًا، وامتلأ حتى السقف بالبضائع الكفيرية، كان ديك مسرورًا للغاية لدرجة أنه ذهب إلى المحطة واشترى عشرين دراجة رخيصة الثمن. كان ذلك فى غاية الطموح، لأن المطاط يتعفن؛ ولكنه قال إن الزنوج الذين يعملون لديه كانوا دائمًا يطلبون منه نقودًا مقدمة لشراء دراجات؛ وهكذا يمكنهم شراؤها منه. ثم ظهر السؤال، من الذى سيقوم بإدارة الدكان؟ قال إنه عندما يدور حاله بالفعل، يمكن توظيف بقال. وأغلقت مارى عينيها وتنهدت. قبل أن يبدءا، وعندما بدا أنه سيكون هناك وقت طويل قبل أن يستعيدا ما أنفق فيه، كان يتحدث عن توظيف بقال، والذى سوف يكلف على الأقل

ثلاثين جنيهًا شهريًا. وسألت لماذا لا يوظف فيه أحد الزنوج؟ قال لا يمكن للمرء أن يثق بالزنوج إلا إن كان قادرًا على ركلهم، طالما الأمر يختص بالنقود. وقال إنه كان يسلم بأنها هى سوف تدير الدكان، فليس لديها ما تفعله على أى حال. ألقى بهذه الملحوظة الأخيرة بصوت مفعم بالازدراء الخشن الذى كان - فى ذلك الوقت - طريقته المعتادة فى التحدث إليها.

أجابت مارى بحدة أنها تفضل الموت على أن تضع قدمًا فيه. لا شىء سوف يرغمها على ذلك، لا شىء.

قال ديك: "إن الأمر لن يؤذيك، هل أنت أرقى من أن تقفى خلف الطاولة؟"

قالت: "أبيع السلع الكفيرية إلى الكفيريين كريهى الرائحة".

لكن لم يكن هذا هو ما تشعر به - ليس فى ذلك الوقت، قبل أن تبدأ العمل. لم تستطع أن تشرح لديك كيف أن رائحة ذلك الدكان جعلتها تتذكر الطريقة التى كانت تقف بها، وهى فتاة صغيرة، تنظر بخوف إلى الزجاجات المصفوفة على الأرفف، متسائلة أى واحدة منها سوف يتناولها والدها فى تلك الليلة؛ والطريقة التى كانت أمها تأخذ بها العملات من جيبه فى الليالى، عندما يقع نائمًا فى مقعده ويعلو شخيره، وفمه مفتوح، وساقاه ممددتان؛ وكيف أنها فى اليوم التالى يتم إرسالها إلى الدكان لشراء طعام لن يظهر على قائمة الحساب فى آخر الشهر. هذه الأشياء لم

تستطع شرحها لديك، لأن السبب الحقيقى هو أنه الآن كان على صلة فى عقلها بالتعاسة والكآبة التى عاشتها فى طفولتها، وسوف يكون ذلك أشبه بمناقشة القدر نفسه. وفى النهاية وافقت على أن تعمل فى الدكان؛ فلم يكن بمقدورها أن تفعل شيئًا آخر.

والآن، وقد بدأت عملها، كان يمكنها أن تنظر إلى الخارج من الباب الخلفى وترى السقف الجديد اللامع بين الأشجار؛ ومن وقت لآخر، كانت تسير على الطريق لترى إن كان هناك أى شخص منتظر ليشترى. وفى العاشرة صباحًا، كان نصف دستة نساء من الزنوج جالسات تحت الأشجار ومعهن أطفالهن. وإن كانت تكره الرجال الزنوج ، فقد كانت تشمئز من النساء. كانت تكره المناطق المكشوفة من بشرتهن، أجسادهن البنية الناعمة ووجوههن الناعمة الخجولة التى كانت أيضًا وقحة وفضولية، وأصواتهن الثرثارة التى تحمل نغمة خفيضة نحاسية الرنين. لم تستطع أن تتحمل رؤيتهن يجلسن هناك على الحشائش، وأرجلهن متربعة تحتهن فى تلك الجلسة التقليدية الخالدة، فى سلام وبلا مبالاة وكأنه لا يهم إن كان الدكان مفتوحًا أو إن كان سيظل مغلقًا طوال اليوم وسوف يضطررن إلى العودة مرة أخرى غدًا. وقبل كل شىء، كانت تكره الطريقة التى يرضعن بها أطفالهن، بصدورهن متهدلة أمام أى شخص يمكن أن يراها: كان هناك شىء فى أمومتهن الراضية الهادئة تجعل دمها يغلى. "أطفالهن يتعلقن بهن مثل العلقة"، قالت

ذلك لنفسها وهى ترتجف، لأنها فكرت بهلع فى إرضاع طفل. فكرة وجود شفتى طفل على صدرها جعلتها تشعر بالغثيان، كانت هذه الفكرة تجعلها بشكل لاإرادى تضع يديها على ثدييها، وكأنما لتحميهما من الانتهاك. وحيث إن كثيرًا من النساء البيض مثلها، كن يتحولن بارتياح إلى استخدام الببرونة فى إرضاع أطفالهن، كانت تشعر بأنها فى صحبة طيبة، ولم تكن تفكر فى نفسها، لكن بالأحرى فى تلك النساء السوداوات، كشىء غريب. لقد كن مخلوقات غريبة وبدائية لهن رغبات قبيحة لم تكن تحتمل التفكير فيها.

عندما رأت أن هناك حوالى عشرة أو اثنتى عشرة منهن منتظرات هناك، وقد تكونت منهن مجموعة من الألوان الزاهية وسط الأشجار والحشائش الخضراء، بشرتهن بلون الشيكولاتة وأغطية رءوسهن ذات الألوان الحية، وأقراطهن المعدنية، أخذت المفاتيح من فوق الحامل فى الدولاب (وضعتها هناك حتى لا يعرف الخادم أين هى ويذهب إلى الدكان ليسرق فى أى وقت وهى غير منتبهة) وسارت، وهى تظلل على عينيها بيدها، على الممر لإنجاز المهمة السمجة. كانت تفتح الباب بخبطة، وتتركه يتأرجح إلى الخلف بشدة على الجدار المبنى من الآجر، وتدخل إلى الدكان المعتم، وأنفها يخشخش من الرائحة. ثم بدأت النساء ببطء يتجمعن داخل الدكان، مشيرات إلى الأشياء، ويضعن الخرزات

البراقة على جلودهن السمراء مع التعبير بلطف عن السرور، أو عن الهلع، بسبب الثمن. تعلق الأطفال بظهور أمهاتهن (فكرت مارى: مثل القرود)، أو كانوا يمسكون بأثوابهن مبحلقين إلى مارى بيضاء البشرة، وتجمع الذباب حول أركان عيونهم. كانت مارى تقف هناك لمدة نصف ساعة تقريبًا، عازلة نفسها عنهن، تخبط بأصابعها على الخشب، وتجيب الأسئلة عن الأسعار والنوعية باختصار. لم تكن لتعطى النساء متعة المساومة فى السعر. وبعد لحظات قليلة شعرت أنها لم تكن قادرة على البقاء هنا أكثر من ذلك، محبوسة فى الدكان المزدحم مع زحام من هذه المخلوقات الثرثارة ذات الرائحة الشريرة. قالت بحدة، باللغة الكفيرية، "أسرعن، هيا!" وانسحبت النساء بعيدًا، واحدة بعد أخرى، وقد انخفض مرحهن وسرورهن، شاعرات بكراهيتها لهن.

سألت: "هل ينبغى أن أقف هناك ساعات لمجرد أن واحدة منهن قد تنفق ستة بنسات على خيط من الخرز؟"

أجاب دون أن ينظر إليها: "هذا يعطيك شيئًا تفعلينه". كان صوته يحمل تلك الرنة الجديدة المفعمة بلامبالاة قاسية.

كان الدكان هو ما قضى على مارى: ضرورة أن تقف للخدمة خلف الطاولة، ومعرفة أنه هناك، دائمًا هناك، حمل على كاهلها، لا يبعد أكثر من خمس دقائق من السير على الممر حيث يمكن أن تزحف

القرادة إلى ساقيها من الأكمات والحشائش المزدحمة. لكن بزعم أنها انهارت بسبب الدراجات، فلسبب ما لم يشترها أحد. ربما لم تكن من الطرز التى يريدها الزنوج ؛ كان من الصعب معرفة السبب. وأخيرًا بيعت واحدة، ولكن البقية ظلت فى الغرفة الخلفية، موضوعة مقلوبة مثل هياكل حديدية فى فوضى من الأنابيب المطاطية. وتعفن المطاط؛ فعندما يُجذب، تجد قشورًا رمادية على القماش الذى يشد عليه. وهكذا كانت هذه خمسين جنيهًا أخرى أو ما يقاربها قد طارت! وبينما لم يكونا فى الواقع يخسران فى الدكان، فلم يكونا يكسبان الكثير. فإذا وضعنا الدراجات وتكلفة المبنى فى الاعتبار، نرى أن المغامرة كانت خسارة ثقيلة، ولا يمكن أن ينتظرا أكثر من محاولة الحفاظ على التوازن فى البضائع الباقية على الأرفف. لكن ديك لم يكن ليستسلم.

قال: "لقد أقيم الدكان وهو هنا الآن، ولا يمكن لنا تحمل المزيد من الخسائر. يمكنك الاستمرار به يا مارى، فلن يؤذيك".

لكنها كانت تفكر فى الخمسين جنيهًا التى ضاعت على الدراجات. كان يمكن أن يقام بها السقف، أو طاقم جيد من الأثاث يحل محل الأشياء التافهة الموجودة فى بيتهما، أو حتى إجازة لمدة أسبوع.

وعندما فكرت فى تلك الأجازة، والتى كانت تخطط لها دائمًا، ولكن لم تبد أبدًا ممكنة، توجهت

أفكار مارى إلى اتجاه جديد. وأصبح لحياتها معنى جديد، مؤقت.

فى أوقات العصر، فى تلك الأيام، كانت دائمًا تنام. كانت تنام ساعات وساعات: كانت هذه طريقة لجعل الوقت يمر بسرعة. فى الواحدة ظهرًا كانت ترقد، ولم تكن لتستيقظ قبل الرابعة. لكن ديك لن يعود إلى البيت قبل ساعتين أخريين، ومن ثم فقد كانت ترقد فى ثياب خفيفة فى الفراش، فى حالة خدر من النوم، فمها جاف ورأسها مصدع. فى هاتين الساعتين من حالة نصف الوعى التى سمحت فيها لنفسها بأن تحلم حول ذلك الوقت الضائع عندما كانت تعمل فى المكتب... وتعيش كما تشاء، قبل أن "يجعلها الناس تتزوج". وكان ذلك هو كيف شرحت الأمر لنفسها. وقد بدأت تفكر، أثناء تلك الأوقات الضائعة، كيف يكون الأمر عندما يكسب ديك أخيرًا بعض المال ويمكنهما أن يذهبا ويعيشا فى المدينة مرة أخرى؛ رغم أنها كانت تعرف، فى لحظات الصدق مع نفسها، أنه لن يثرى أبدًا. ثم جاءت الفكرة بأنه ليس هناك ما يمنعها من الهرب والعودة إلى حياتها القديمة. هنا كانت ذكرى أصدقائها توقفها: ماذا سوف يقولون عندما تفسخ الزواج بهذه الطريقة؟ استيقظ فى نفسها حسها الأخلاقى التقليدى، والذى لم يكن له أية علاقة بالحياة الحقيقية، استيقظ بمجرد التفكير فى هؤلاء الأصدقاء، وذكرى حكمهم على الآخرين. وشعرت بالألم لدى فكرة مواجهتهم مرة

أخرى، بما يحتويه سجلها من إخفاقات؛ فقد كانت لا تزال، فى داخلها، يلاحقها شعور بعدم الكفاءة، "لأنها لم تكن هكذا". تلك العبارة التصقت بعقلها طوال تلك السنوات، ولا تزال. لكن رغبتها فى الهرب من بؤسها أصبحت شديدة القوة، حتى أنها طردت من عقلها فكرة أصدقائها. فلم تكن تفكر الآن إلا فى الهرب بعيدًا، فى أن تعود مرة أخرى إلى ما كانت عليه. ولكن هناك خندقًا عميقًا بين ما هى عليه الآن، وتلك الفتاة الخجولة المتباعدة وإن كانت متكيفة مع هذا الزحام من المعارف. كانت واعية بذلك الخندق، ولكن ليس كشىء لا يمكن تخطيه فى نفسها. بل إنها شعرت كما لو كانت قد رفعت من الدور المناسب لها، فى لعبة تفهمها، وفجأة وضعت فى دور لا تألفه. كان شعورًا مرعبًا بأنها خرجت من شخصيتها، لا مجرد معرفة أنها تغيرت. التربة، العمال السود، إنها دائمًا قريبة من حياتهم، ولكنها أيضًا منعزلة عنهم، وديك فى ثياب المزرعة ويداه ملطختان بالزيت. هذه الأشياء لا تنتمى إليها، إنها ليست حقيقية. وكان فرضها عليها أمرًا وحشيًا.

وشيئًا فشيئًا، على مدى أسابيع، أقنعت نفسها بالاعتقاد بأنها لن تحتاج إلا أن تركب القطار وتعود إلى تلك الحياة المسالمة فى المدينة، الحياة التى خلقت لها، وتبدأ مرة أخرى.

وفى أحد الأيام، عندما عاد الخادم من المحطة حاملاً جواله الثقيل من البقالة واللحم والحبوب، أخذت الجريدة الأسبوعية، ونظرت كالعادة إلى

إعلانات الميلاد والزواج (كان هذا هو الجزء الوحيد من الجريدة الذى تقرؤه. لترى ماذا يفعل أصدقاؤها القدامى)، لاحظت أن شركتها القديمة، التى كانت تعمل فيها طوال كل تلك السنوات، كانت تعلن فى طلب موظفة على الآلة الكاتبة. كانت واقفة فى المطبخ، فى تلك الإضاءة المعتمة على شمعة متراقصة والوهج المحمر من الموقد، وبجوار المنضدة التى عليها الصابون واللحم، والخادم خلفها مباشرة، يجهز العشاء. لكن، فى لحظة، انتقلت بعيدًا عن المزرعة إلى حياتها القديمة. واستمر الوهم طوال الليل، وهى راقدة متيقظة وأفكار هذا المستقبل سهل المنال تجعلها منقطعة الأنفاس، والذى كان أيضًا هو ماضيها. وعندما ذهب ديك إلى المزرعة، ارتدت ثيابها، وجهزت حقيبة، وتركت له مذكرة، بالطريقة المعتادة دومًا، ولكنها تقول فقط إنها عائدة إلى عملها القديم: كما لو كان ديك يعلم ما فى عقلها ويوافق على قرارها.

سارت الأميال الخمسة بين منزلهما ومزرعة سلاتر فى حوالى الساعة أو أكثر قليلا. قطعت نصف الطريق جريًا، وحقيبتها تتأرجح ثقيلة فى يدها وترتطم بساقها، ويمتلئ حذاؤها بالغبار الرملى الناعم، تتعثر أحيانًا فى الحفر. وجدت تشارلى سلاتر واقفًا على المجرى الذى يتخذ علامة للحدود بين المزارع، ويبدو أنه لا يفعل شيئًا على الإطلاق. كان ينظر إلى الطريق الذى جاءت منه، يهمهم وفمه مغلق، وعيناه مزويتان. خطر لها، وهى تقف أمامه، أن وقوفه

هناك بلا عمل أمر غريب، هو الذى كان دائمًا مشغولاً. لم تتخيل أنه كان يخطط كيف سوف يشترى مزرعة ذلك الأبله ديك تيرنر عندما يفلس؛ فقد كان بحاجة إلى مساحة أكبر لرعى ماشيته. وتذكرت أنها لم تلتق به إلا مرتين أو ثلاث مرات، وأنه فى كل مرة لم يبذل مجهودًا لإخفاء كراهيته، تماسكت، وحاولت أن تتكلم ببطء، رغم أنها كانت منقطعة الأنفاس. سألته إن كان من الممكن أن يوصلها إلى المحطة فى الوقت المناسب لتلحق بقطار الصباح؛ فلن يكون هنا قطار آخر قبل ثلاثة أيام، والأمر عاجل. نظر تشارلى إليها نظرة لاذعة. وبدا أنه يحسب.

سألها بسخرية لاذعة: "وأين رجلك؟"

تمتمت مارى: "إنه يعمل..."

همهم بصوت خشن، وبدا عليه الارتياب، لكنها رفع حقيبتها إلى سيارته، التى كانت تقف تحت شجرة كبيرة بجوار الطريق. ودخل إلى السيارة، وركبت إلى جواره، وهى تتلمس الباب محاولة إغلاقه، بينما كان هو يحدق فى الطريق وهو يصفر من بين أسنانه: لم يكن تشارلى يؤمن بتدليل النساء وإغلاق الباب لهن. وأخيرًا استقرت، وهى متمسكة بحقيبتها كما لو كانت جواز سفر.

"هل هو مشغول جدًا لدرجة ألا يأخذك إلى المحطة؟" أخيرًا سأل تشارلى، وهو يستدير لينظر إليها بحدة. تلون وجهها، وأومأت، وقد غمرها شعور

بالذنب، لكنها لم تكن قد فكرت بوعى أنها تضعه فى موقف يعطيه صورة مزيفة؛ كان عقلها مركزًا على ذلك القطار.

وضع قدمه على البنزين وانطلقت العربة الكبيرة القوية على الطريق، تعبرها الأشجار بسرعة، وتنزلق مثيرة للغبار. كان القطار متوقفًا فى المحطة، يخفق وينثر المياه، ولم يكن لديها وقت لتضيعه. شكرت تشارلى بسرعة، وقبل أن يبدأ القطار فى الحركة كانت قد نسيته. لم يكن معها من النقود إلا ما يكفى لتوصيلها إلى المدينة، لم يكن معها ما يكفى لركوب تاكسى.

سارت من المحطة، حاملة حقيبتها، خلال المدينة التى لم تدخلها منذ غادرتها بعد زواجها؛ وفى المناسبات القليلة التى كان على تشارلى أن يقوم بالرحلة، رفضت أن تصحبه، مذعورة من أن يراها أحد ممن كانوا يعرفونها. وارتفعت ضربات قلبها وهى تقترب من النادى.

كان يومًا جميلاً، جميلاً جدًا، بكل ما يحمله من الريح الطيبة، بشمسه البراقة المرحة. حتى السماء بدت مختلفة، وهى تراها من بين الأبنية التى تعرفها جيدًا، والتى بدت جديدة جدًا ونظيفة جدًا بجدرانها البيضاء وسقوفها الحمراء. لم تكن تلك هى القبة السماوية الزرقاء العنيدة التى تنحنى فوق المزرعة، لتغلقها فى دائرة من المواسم التى لا تتغير؛ بل كانت زرقاء زهرية، وشعرت، فى ابتهاجها، أنها تستطيع أن

تجرى على الرصيف إلى تلك الزرقة وتسبح فيها، بكل ارتياح وسلام أخيرًا. كان الشارع الذى تسير فيه تحف بجانبيه أشجار الأوركيدات، تجثم زهورها البيضاء والوردية على الأغصان كالفراشات بين الأوراق. كان شارعًا من الوردى والبيض، وفوقه السماء الزرقاء الصافية. كان هذا عالمًا مختلفًا! كان هذا هو عالمها.

فى النادى التقت بمشرفة جديدة أخبرتها أنهم لا يقبلون السيدات المتزوجات. نظرت إليها السيدة بفضول، وتلك النظرة دمرت سعادة مارى المفاجئة الخالية من الشعور بالمسئولية. لقد نسيت كل شىء عن القاعدة الخاصة بعدم قبول النساء المتزوجات؛ ولكنها لم تكن تفكر فى نفسها باعتبارها امرأة متزوجة. عادت إلى وعيها، وهى تقف فى الردهة التى واجهت فيها ديك تيرنر منذ سنوات بعيدة، ونظرت حولها إلى المكان الذى لم يتغير، ورغم ذلك بدا لها غريبًا جدًا. كل شىء بدا شديد اللمعان، والنظافة، والترتيب.

ذهبت بهدوء إلى أحد الفنادق، وعندما وصلت الغرفة التى أعطيت لها، مشطت شعرها. ثم سارت إلى المكتب. لم تكن هناك فتاة من العاملات تعرفها. كان الأثاث قد تغير؛ والمكتب الذى كانت تجلس عليه تم نقله، وبدا مثيرًا لغضبها أن أشياءها تم تغييرها. نظرت إلى الفتيات فى ثيابهن الجميلة، وشعورهن المصففة بعناية، وفكرت لأول مرة أنها لم تكد تنظر إلى نفسها. لكن الوقت كان متأخرًا الآن. كان هناك من

يوجهها للدخول إلى مكتب الرئيس الذى عملت لديه من قبل، وسرعان ما رأت على وجهه تلك النظرة التى رأتها على وجه المرأة فى النادى. ووجدت نفسها تنظر إلى يديها، واللتان بدتا متجعدتين وبنيتين؛ وأخفتهما تحت حقيبتها. كان الرجل الجالس أمامها يحدق فيها، ينظر بإمعان إلى وجهها. ثم نظر إلى حذائها، الذى كان لا يزال محمرًا من الأتربة، لأنها نسيت أن تلمعه. نظر إليها بحزن، ولكن كان يبدو مصعوقًا، بل ونذلاً، قال إن العمل قد تم شغله بالفعل، وأنه آسف. شعرت، مرة أخرى؛ بالغضب، لكل ذلك الوقت الذى عملته هنا، لقد كان هذا المكتب جزءًا من ذاتها، والآن لم يعد يقبل بإعادتها. قال: "إننى آسف، يا مارى". متجنبًا النظر إلى عينيها؛ ورأت أن العمل لم يكن مشغولاً وأنه كان يرفضها. كانت هناك لحظة طويلة من الصمت، بينما رأت مارى أحلام الأسابيع القليلة الأخيرة تخبو وتختفى. ثم سألها إن كانت مريضة.

قالت باكتئاب: "لا".

وعندما عادت إلى غرفتها فى الفندق، نظرت إلى نفسها فى الزجاج. كان ثوبها من القطن الباهت؛ واستطاعت أن ترى، مع مقارنته بثياب الفتيات فى المكتب، أنه كان موضة قديمة جدًا. ومع ذلك، كان لائقًا بما يكفى. صحيح أن بشرتها أصبحت جافة وبنية، لكن عندما استرخى وجهها، وجدت أنه ليس هناك فارق كبير. وعندما تمسك به برقة، كانت هناك علامات صغيرة بيضاء تشع حول عينيها، مثل ضربات

الفرشاة. فكرت إنها عادة سيئة أن يزوى المرء عينيه. ولم يكن شعرها لطيفًا جدًا. لكن، هل كان يظن أن هناك كوافير فى المزارع؟ فجأة شعرت بالغضب الشديد، والرغبة فى الانتقام منه، ومن المشرفة، ومن كل إنسان. ماذا كانوا يتوقعون؟ أن تمر بكل تلك المعاناة وخيبة الأمل وتظل كما هى لا تتغير؟ ولكنها المرة الأولى التى تعترف فيها لنفسها أنها تغيرت، هى نفسها وليس فقط ظروفها. فكرت أنها سوف تذهب إلى صالون تجميل وتستعيد مظهرها الطبيعى؛ ثم لن ينكر عليها أحد العودة إلى العمل الذى كان هو عملها وحقها. ولكنها تذكرت أنها لا تمتلك نقودًا. وعندما فتحت كيس نقودها لم تجد إلا نصف كراون وستة بنسات. ولن تستطيع أن تدفع حتى ثمن فاتورة الفندق. بهتت لحظة الهلع؛ وجلست متجمدة على مقعد مستند إلى الجدار؛ وظلت جالسة، تسأل نفسها ما العمل. لكن مجهود التفكير كان شديدًا، وبدا لها أنها تواجه إهانات وعقبات لا حصر لها. وبدا أنها تنتظر شيئًا. بعد قليل، بدأ جسدها ينهار داخليًا، وكانت هناك نظرة انهزامية صبورة فى عينيها، وعندما سمعت نقرًا على الباب، نظرت لأعلى وكأنما كانت تتوقع ذلك، ولم يغير دخول ديك من نظرة وجهها. للحظة لم يقولا شيئًا. ثم بدأ ينظر إليها مناشدًا، وهو يمد ذراعيه: "مارى، لا تتركينى". تنهدت، ووقفت، وبشكل آلى عدلت من ثوبها، وصففت شعرها. كانت تعطى انطباعًا بأنها تبدأ فى رحلة سبق

التخطيط لها. وعندما رأى وقفتها ووجهها، الذى لم يكن يظهر اعتراضًا ولا كراهية، وإنما الاستسلام فقط، أسقط ديك ذراعيه. لن يكون هناك مشهد: إن حالتها المزاجية منعت ذلك.

وثاب إلى رشده هو أيضًا أثناء العودة، كما فعلت هى، ونظر إلى نفسه فى المرآة. لقد جاء فى ملابس المزرعة، دون أن يتوقف ليأكل، بعد أن قرأ المذكرة التى بدت طعنة مفعمة بالألم والإهانة. كانت أكمامه ترتخى على ذراعيه النحيلتين اللتين لوحتهما الشمس؛ ولم يكن يرتدى جوربًا فى قدميه اللتين بدتا مغروزتين فى الحذاء مرتفع الرقبة. ولكنه قال، كما لو كانا قادمين معًا ليقوما برحلة، إنهما قد يذهبان ويتناولان غداء ثم يذهبان إلى السينما، لو كانت تود ذلك. فكرت أنه كان يحاول أن يجعلها تشعر وكأن شيئًا لم يحدث، ولكن عندما نظرت إليه، رأت ذلك رد فعل لقبولها الحالة التى جعلته يتحدث بهذه الطريقة. وعندما رآها تسوى ثوبها بخرق وألم، قال إنها ينبغى أن تذهب وتشترى لنفسها بعض الثياب.

وأجابت، متحدثة لأول مرة، بلهجتها اللاذعة المرتجلة: "ومن أين آتى بالنقود؟"

هكذا عادا معًا مرة أخرى، حتى نغمة صوتيهما لم تتغير.

بعد أن أكلا، فى مطعم اختارته مارى، لأنه بدا بعيدًا عن طريق أى من أصدقائها القدامى، عادا إلى

المزرعة، وكأن كل شىء كان طبيعيًا تمامًا، وأن هروبها كان شيئًا صغيرًا، يمكن نسيانه بسهولة.

لكن عندما عادت إلى البيت، ووجدت نفسها مرة أخرى فى روتينها اليومى المعتاد، وقد فقدت حتى أحلامها النهارية التى كانت تسندها، متشائمة ومتعبة فى مواجهة مستقبلها، وجدت أنها مستهلكة. كانت محاولة منها لفعل أى شىء من أى نوع. وبدا وكأن رحلتها إلى المدينة قد استنفدت كل مخزونها من الطاقة وتركتها بما يكفى بالكاد لأداء واجباتها اليومية، ولا شىء أكثر. كانت هذه بداية تفككها الداخلى. وبدأ بذلك الخدر، وكأنها لم تعد قادرة على الإحساس أو على مواجهة أى شىء.

وربما، لو لم يكن ديك قد أصيب بالمرض الذى أصيب به، لربما جاءت النهاية سريعًا بطريقة أو بأخرى. ربما كان يمكن أن تموت سريعًا جدًا، كما فعلت أمها، بعد مرض قصير، لمجرد أنها لم تكن تريد أن تعيش. أو ربما كان يمكن أن تهرب مرة أخرى، فى نوبة يأس أخرى، وكان يمكنها أن تفعل ذلك هذه المرة بعد تفكير وتعقل، وبعد أن تعلمت كيف تعيش مرة أخرى، بالطريقة التى خلقت لها، بطبيعتها وتربيتها، وحدها ومكتفية بذاتها. ولكن كان هناك تغير مفاجئ غير متوقع فى حياتها، دفع عنها الانهيار لفترة قصيرة. فبعد أشهر قليلة من هروبها. وبعد ست سنوات من زواجها، وقع ديك مريضًا لأول مرة.

- ٧ -

كان شهر يونيو ساطعًا، باردًا، خاليًا من السحب. كان هذا هو أحب أوقات العام عند مارى: دافئ نهارًا، ولكن مع رائحة مميزة فى الهواء؛ وسوف تمر بضعة أشهر قبل أن يشتعل الدخان من البرارى متثاقلاً ليتحول إلى سديم غائم يجعل ألوان الغابة قاتمة. كانت البرودة تعيد إليها بعض الحيوية: كانت متعبة، نعم، ولكنه كان محتملاً؛ كانت تتعلق بالأشهر الباردة كما لو كانت درعًا تدفع به الفتور الكريه للحرارة التى تليها.

فى الصباحات الباكرة، عندما يكون ديك قد ذهب إلى الأراضى، كانت تمشى برقة على التربة الرملية أمام البيت، ناظرة إلى القبة الزرقاء العالية المنعشة كبلورات الثلج، أزرق رائق رائع، لا تلوثه سحابة واحدة، لأشهر وأشهر. لا تزال التربة تحتفظ ببرودة الليل. كانت تميل لتلمسها، وتلمس أيضًا الطوب

الخشن للبيت، والذى كانت تحس به باردًا ورطبًا على أطراف أصابعها. وفيما بعد، عندما تدفئ الدنيا، وتبدو الشمس حارة كما فى الصيف، كانت تذهب إلى مقدمة البيت، وتقف تحت شجرة على حافة المنطقة الخالية (ولا تصل أبدًا إلى داخل الغابة التى كانت تخشاها) وترتاح فى الظل الكثيف. كانت الأوراق الكثيفة زيتونية الخضرة فوق رأسها تتخللها ثغرات من الأزرق الصافى، والريح حادة وباردة. وحينئذ، فجأة، تنخفض السماء كلها لتصبح طبقة رمادية ثقيلة، ولأيام قليلة يصبح عالمًا آخر، تنزل فيه أمطار خفيفة، وتصبح باردة حقًا: شديدة البرودة حتى أنها ترتدى سويتر وتستمتع بالإحساس بالرعشة داخله. لكن هذا لا يستمر كثيرًا أبدًا. ويبدو أنه بين نصف ساعة وأخرى يصبح اللون الرمادى الثقيل خفيفًا، وتظهر الزرقة خلفه، ثم يبدو أن السماء ترتفع، وتتبدد طبقات السحب فى وسط الهواء؛ كل هذا يحدث مرة واحدة، تظهر السماء الزرقاء المرتفعة مرة أخرى. وتختفى كل الستائر الرمادية. وتصبح أشعة الشمس براقة ومبهرة، لكنها لا تحمل خطرًا؛ فهذه ليست شمس أكتوبر، التى تسرى بمكر من الداخل. هناك ارتفاع فى الهواء، انتعاش، كانت مارى تشعر بأنها شفيت. تقريبًا. تقريبًا تشعر كما كانت فى الماضى، رشيقة وحيوية، ولكن مع حذر ظاهر فى وجهها وفى حركتها يبدو منه أنها لم تنس أن الحرارة سوف تعود. كانت تستسلم برقة لتلك الأشهر الثلاثة المعجزة للشتاء،

عندما يتطهر البلد من الوعيد. حتى الغابة تبدو مختلفة، تشع لمدة أسابيع قليلة بألوان حمراء وذهبية وخمرية، قبل أن تتحول الأشجار إلى كتل مصمتة من الخضرة الثقيلة. وكأنما هذا الشتاء كان يأتى خصيصًا من أجلها، ليبعث فيها وخزًا خفيفًا من الحيوية، لينقذها من بلادتها اليائسة. كان شتاءها؛ هذا هو ما تشعر به. ولاحظ ديك هذا، كان شديد القلق عليها بعد هروبها. فقد ربطته عودتها بعرفان إلى الأبد. ولو كان من ذلك النوع من الرجال الذى يحتفظ بالضغينة، لربما كان قد أصبح باردًا تجاهها لأنها كانت بالفعل طريقة سهلة لتكسب السيادة عليه، ذلك النوع من الحيل الذى تستخدمه النساء لهزيمة رجالهن. لكن هذا لم يخطر بباله أبدًا. وعلى أية حال، كان هروبها بعيدًا مسألة أصيلة؛ رغم أنها كانت لها نتائج كان يمكن لأية امرأة تستطيع حساب العواقب أن تتوقعها. كان رقيقًا ومتسامحًا، يكظم غيظه؛ وأسعده أن يرى فيها حياة جديدة، تتحرك فى البيت بمزيد من الاستمتاع، وعلى وجهها نظرة ناعمة، تميل إلى الحزن، كما لو كانت تتعلق بصديق تعرف أنه لابد أن يتركها. بل إنه سألها مرة أخرى أن تأتى معه إلى المزرعة؛ كان يشعر بالحاجة لأن يكون بجوارها، لأنه فى سره كان يخشى أن تختفى مرة أخرى ذات يوم وهو بعيد. فعلى الرغم من أن زواجهما كان خطأ بكامله، ولم يكن هناك أى تفاهم حقيقى بينهما، فقد أصبح معتادًا على تلك الوحدة المزدوجة التى يتحول

إليها أى زواج، حتى لو كان زواجًا سيئًا. لم يكن يتخيل أن يعود إلى البيت ومارى ليست هناك. وحتى حالات غضبها على الخدم بدت له، أثناء تلك الفترة القصيرة، شيئًا محببًا؛ فقد شعر بالامتنان لعودة الحيوية إليها والتى ظهرت فى المزيد من الطاقة الموجهة ضد نقائص وكسل خادم البيت.

لكنها رفضت أن تساعده فى المزرعة، وبدا لها أن اقتراحه ذلك نوع من القسوة. فهنا فى البيت، حتى مع ركام الصخور الكبيرة المكومة خلف البيت والتى كانت تغلق الطريق أمام مرور الرياح، فقد كان الجو لطيفًا مقارنة بالحقول المحبوسة بين روابى الصخور والأشجار. أما هناك، فلن يستطيع المرء أن يعرف أنه الشتاء! فحتى الآن، عند النظر إلى الوادى، يمكن رؤية الحرارة تنهمر على المبانى والأرض. لا، فلتبق حيث هى، فهى لا تريد الذهاب معه. وقد تقبل ذلك، بأسى وجفاء كما هو دائمًا؛ ومع ذلك، فهو أكثر سعادة مما كان لمدة طويلة. كان يحب أن يراها بالليل جالسة بهدوء على الأريكة ويداها مطويتان، تحتضن نفسها برفاهية داخل السويتر، ترتعش مبتهجة بالبرد. فى تلك الليالى كان السقف يطقطق وينكمش مثل ألف من الألعاب النارية، بسبب التغيرات الحادة بين حرارة شمس النهار وصقيع الليل. اعتاد أن يراقبها وهى تمد يدها لتلمس السقف الحديدى البارد كالثلج، ويشعر بقلبه ينفطر وبأنه عاجز أمام هذا الاعتراف الصامت بمدى كراهيتها لشهور الصيف. حتى أنه بدأ يفكر فى

أن يقيم السقف. وفى السر جمع كتب مزرعته وبدأ يحسب كم يكلفه. لكن الموسم الأخير كان موسمًا سيئًا بالنسبة له؛ وكان أى دافع له لحمايتها مما كانت تكره ينتهى بأن يتنهد، وقرار بالانتظار إلى العام القادم، حينئذ ربما تكون الأحوال أفضل.

وذات مرة نزلت معه إلى الأرض. وذلك حين أخبرها أنه كان هناك صقيع. وقفت على الأرض الباردة فى البركة ذات صباح قبل شروق الشمس، ضاحكة باستمتاع، بسبب تلك الشريحة الرقيق من الشىء الأبيض فوق الأرض. قالت: "صقيع! ... من يصدق هذا، فى هذه البقعة المشوية التى تخلى الله عنها!" والتقطت قطعًا من المادة الهشة الرقيقة وحكتها بين يديها الزرقاوين، ودعته لأن يفعل نفس الشىء، مشاركة إياه تلك اللحظة من البهجة. كانا يتحركان برقة تجاه علاقة من نوع جديد؛ كانا أكثر صدقًا مع بعضهما من أية لحظة من قبل. لكن هنا أصيب بالمرض؛ ولم تكن تلك الرقة الجديدة بينهما، والتى كان يمكن أن تنمو إلى شىء قوى ينقذهما معًا، لم تكن بالقوة الكافية لتحتمل هذه المشكلة الجديدة.

بادئ ذى بدء، لم يكن ديك يمرض أبدًا من قبل، ورغم أن هذه المنطقة كانت موطنًا للملاريا، وأنه عاش فيها كل هذا الوقت. ربما كانت الملاريا فى دمه سنوات وهو لا يعرف؟ كان دائمًا يتناول الكينين، كل ليلة، أثناء فصل المطر، ولكن ليس عندما يصبح الجو باردًا. قال إنه لابد أن هناك، فى مكان ما من المزرعة،

جذع شجرة مليئًا بمياه راكدة، فى منطقة دافئة بما يكفى لتكاثر الناموس؛ أو ربما صفيحة صدئة قديمة فى مكان ظليل، حيث لا تستطيع الشمس الوصول إلى المياه لتبخيرها. على أية حال، بعد أسابيع من الموسم الذى يمكن أن يتوقع المرء فيه وجود الحمى بالطريقة المعتادة، رأت مارى ديك يأتى من الأراضى ذات مساء شاحبًا يرتعش. أعطته كينين وأسبرين، فأخذهما وسقط فى السرير دون أن يتناول عشاءه. فى الصباح التالى خرج إلى العمل كالمعتاد، غاضبًا من نفسه ورافضًا أن يصدق أنه مريض، مرتديا جاكتًا جلديًا ثقيلاً كوقاية عديمة الجدوى من نوبات الارتعاش العنيفة. وفى العاشرة صباحًا، زحف صاعدا التل وعرق الحمى يتصبب على وجهه ورقبته ويغرق قميصه، وعاد ليرقد تحت الأغطية الثقيلة، شبه فاقد للوعى بالفعل.

كانت نوبة عنيفة، ولأنه لم يكن معتادًا على المرض، فقد كان دائم الشكوى وصعب المراس. أرسلت مارى رسالة إلى مسز سلاتر. رغم أنها كانت تكره أن تطلب منها صنيعًا. وفى وقت متأخر من ذلك اليوم أحضر تشارلى الطبيب فى سيارته، وكان قد قاد بالسيارة ثلاثين ميلا ليحضره. قام الطبيب بفحوصه المعتادة، وعندما انتهى قال لمارى إن البيت خطير بهذه الحالة، وينبغى أن يتم وضع شاشات من السلك للحماية من الناموس. وقال أيضًا إن الأشجار ينبغى قطعها لمسافة مائة ياردة أخرى حول البيت. وأن

السقف ينبغى إقامته فى الحال، وإلا فهناك خطر إصابتهما بضربة الشمس. ونظر بقسوة إلى مارى، وأخبرها أنها مصابة بالأنيميا، وأنها فى حالة عصبية سيئة، وأنها ينبغى أن تذهب فوراً، ولمدة ثلاثة أشهر على الأقل، إلى الساحل. ثم ذهب، بينما وقفت مارى فى الشرفة وراقبت السيارة تغادر المكان، بابتسامة كئيبة على وجهها. كانت تفكر بغيظ أن هؤلاء الأخصائيين الأثرياء يتكلمون عن كل شيء بسهولة. كرهت ذلك الطبيب، بطريقته الهادئة وهو يستهين بمصاعب حياتهما؛ عندما قالت إنهما لا يستطيعان أن يوفرا ما يكفل لهما إجازة، قال بحدة "كلام فارغ! وهل يمكنك تحمل تكاليف المرض؟" وسأل كم من الوقت مضى دون أن تذهب إلى الساحل؟ وهى لم تر البحر أبداً! لكن الطبيب فهم وضعهما أكثر مما تتخيل، لأن الفاتورة التى كانت تنتظرها بخوف، لم تأت. بعد قليل كتبت لتعرف بكم يدينان، وجاءت الإجابة: "أدفعوا لى عندما يكون لديكما القدرة على ذلك". شعرت بالتعاسة لكبريائها المجروح؛ لكنها تركت المسألة تمضى، فالواقع أنهما بالفعل لم يكن لديهما النقود.

أرسلت مسز سلاتر كيساً من الليمون من حديقتها من أجل ديك، وكثيراً من عروض المساعدة. شعرت مارى بالامتنان لوجودها هناك، على بعد خمسة أميال فقط، لكنها قررت ألا تلجأ إليها إلا فى الطوارئ. وكتبت إحدى تلك المذكرات الصغيرة الجافة

لها لتشكرها على الليمون، وقالت إن ديك فى حالة أفضل. لكن ديك لم يكن أفضل تماما، كان يرقد هناك، فى حالة الرعب اليائس لشخص يعانى لأول مرة من مرض عنيف، ووجهه موجه إلى الجدار وقد سحب البطانية لتغطى رأسه. قالت مارى فى احتقار حاد لما أبداه من جبن "تمامًا مثل أى زنجى!"، كانت قد رأت الأهالى المرضى يرقدون بهذه الطريقة تمامًا، فى نوع من الفتور غير المبالى. ولكن من وقت لآخر، كان ديك يتحامل على نفسه ليسأل عن المزرعة. كان فى كل لحظة وعى يشعر بالقلق على الأشياء التى يمكن أن تحدث دون إشرافه. ظلت مارى تعتنى به كطفل لمدة أسبوع، بضمير حى، ولكن مع نفاد صبر بسبب خوفه على نفسه. ثم غادرته الحمى، ولكنه كان ضعيفا ومكتئبا، غير قادر حتى على الجلوس. والآن كان يتحدث باهتياج وانفعال، يتحدث طوال الوقت عن أعمال مزرعته.

رأت أنه أراد منها أن تذهب وتشرف على الأشياء، لكنه لم يكن يحب أن يقترح ذلك. ولبعض الوقت لم تستجب للرجاء الذى رأته فى وجهه الضعيف النكد والمتشكى، ثم عندما تحققت من أنه قد يقوم من الفراش قبل أن يكون قادرًا على السير، قالت إنها سوف تذهب.

كان لابد أن تكسر مقتها العنيف لفكرة مواجهة عمال المزرعة من الزنوج بنفسها. حتى عندما دعت الكلاب إليها ووقفت فى الشرفة وفى يدها مفاتيح

السيارة، عادت مرة أخرى إلى المطبخ لتشرب كوبًا من الماء؛ وعندما جلست فى السيارة، وقد أراحت قدمها على دواسة البنزين، عادت لتقفز مرة أخرى، بحجة أنها بحاجة إلى منديل. وبينما هى خارجة من غرفة النوم، لاحظت الكرياج معلقًا على مسمارين فوق باب المطبخ، مثل أية حلية، مضى وقت طويل وبدا وكأنها نسيت وجوده. رفعته، ولفته على معصمها، وعادت إلى السيارة بثقة أكبر. ولهذا فتحت الباب الخلفى للسيارة وأخرجت الكلبين؛ كانت تكره الطريقة التى يلهثان بها خلف رقبتها وهى تقود. تركتهما يعويان فى خيبة أمل خارج المنزل، وقادت السيارة إلى الأراضى حيث يفترض أن الخدم يعملون. كانوا يعرفون بمرض ديك، ولم يكونوا هناك، تفرقوا منذ أيام عائدين إلى المجمع السكنى. أخذت السيارة على الطريق المخدد المليء بالحفر لأقرب ما تستطيع من المجمع، ثم سارت نحوه على الطريق الذى يستخدمه الزنوج ، والذى كان مطروقا دائما، لكنه كان يكتسى بطبقة ناعمة من الحشائش اللامعة الزلقة، ومن ثم كان عليها أن تتحرك باحتراس لكى لا تنزلق قدمها. تركت الحشائش الباهتة الطويلة أشواكًا حادة فى ثيابها، وألقت الشجيرات بأتربة حمراء فى وجهها.

كان المجمع مبنيًا على مرتفع خفيف على البركة، على بعد حوالى نصف ميل من البيت. كان النظام هو إعطاء العامل الجديد الذى يأتى للعمل يومًا بدون أجر ليبنى كوخًا لنفسه ولعائلته قبل أن يأخذ مكانه

مع العمال. ومن ثم كانت هناك دائمًا أكواخ جديدة، ودائمًا أكواخ قديمة خالية تنهار ببطء وتقع إلا إن فكر أحد فى حرقها. وكانت الأكواخ تتجمع متقاربة على إكر أو اثنين من الأرض. وبدت كأنها نمو طبيعى من التربة، وليست مساكن من صنع الإنسان. كانت كأن يدًا سوداء هائلة نزلت من السماء، والتقطت حفنة من العصى والحشائش، وألقتها بشكل سحرى على الأرض فى شكل أكواخ. وكانت ذات أسقف من الحشائش، وجدران قائمة تم إلصاقها بالطين، ولكل منها باب واحد واطئ، ولا نوافذ. وكان الدخان المتصاعد من النيران بالداخل ينفذ من خلال السقف القشى أو ينساب فى سحب عبر فتحات الأبواب، ومن ثم كان كل منها يبدو وكأنه يحترق ببطء من الداخل. وبين الأكواخ كانت رقع غير منتظمة من الذرة المزروعة بشكل سيئ، وامتدت تعريشات القرع فى كل مكان بين النباتات والشجيرات وتسلقت على الجدران والأسقف، وقد تناثرت ثمارها الكبيرة الصفراء بين الأوراق. وكان بعضها قد بدأ يتعفن، وقد خمد وصغر ليصبح شيئًا وردى اللون فاسدًا مريرًا، مغطى بالذباب. كان الذباب فى كل مكان. وشعرت مارى به يطن حول رأسها متجمعًا فى سحابة وهى سائرة، وكان متجمعًا حول أعين عدد من الأطفال الصغار سود البشرة والذين كانت بطونهم منتفخة وعراة فى الغالب، يحلقون فيها وهى تتخذ طريقها بين النباتات المعشوشبة والذرة عابرة الأكواخ. مهجنين، نحيلين، عظامهم بارزة من تحت جلودهم، ابتسموا كاشفين عن أسنانهم. النساء

الزنجيات ملتفات بملابس قذرة مشتراة من المحلات، وبعضهن عاريات فوق الوسط وقد تدلت أثداؤهن السوداء النحيلة، يحلقن فيها من الأبواب بدهشة لظهورها المفاجئ الغريب، وتبادلن التعليقات عليها بين أنفسهن، وضاحكات، وملقيات بملاحظات فظة. كان هناك بعض الرجال، وعندما ألقت ببصرها من خلال الأبواب استطاعت أن ترى أجسادًا متكومة نائمة؛ بعضهم جالسون على أردافهم على الأرض فى جماعات، يتحدثون. لكنها لم تكن لديها فكرة من منهم عمال ديك، ومن هو مجرد زائر هنا، أو ربما يمر بالمكان فى طريقه لمكان آخر. توقفت أمام أحدهم وطلبت منه أن يحضر رئيس العمال، والذى جاء بسرعة خارجًا من أحد الأكواخ الأفضل، والتى كانت مزينة على الجدران بنماذج من الطين المدهون بالأحمر والأصفر. كانت عيناه محمرتين، وفهمت أنه كان يشرب.

قالت باللغة الكفيرية: "احضر الخدم إلى الأراضى فى عشر دقائق".

سأل بإهمال يحمل نغمة عدائية: "هل الرئيس أفضل حالاً؟"

تجاهلت السؤال، وقالت: "يمكنك أن تقول لهم إننى سوف أخصم ست من تذكرة كل واحد منهم إن لم يكونوا فى عملهم فى خلال عشر دقائق". ورفعت قبضتها وأشارت إلى الساعة، لتريه التوقيت.

وقف الرجل متكاسلاً، وانحنى فى ضوء الشمس، مبديًا امتعاضه من وجودها؛ بحلقت النساء وضحكن؛ وتجمع الأطفال القذرون الجائعون، يتهامسون فيما بينهم؛ وانسلت الكلاب الجائعة إلى الخلف بين الشجيرات والذرة. كانت تكره المكان، والذى لم تدخله أبدًا من قبل. وفكرت بحقد "همج أقذار!". ونظرت مباشرة إلى رئيس العمال أحمر العينين من شرب البيرة، وكررت "عشر دقائق". ثم استدارت وسارت عائدة على الطريق المتعرج بين الأشجار، تتبعها أصوات الأهالى وهم يخرجون من الأكواخ خلفها.

جلست فى السيارة منتظرة، بجوار الأرض التى كانت تعلم أنهم كان المفترض أن يقوموا فيها بحصد الذرة. بعد نصف ساعة، وصلت مجموعة قليلة العدد منهم وبينهم رئيس العمال. وعند نهاية الساعة لم يكن هناك إلا نصف العمال: بعضهم ذهب لزيارة مجمعات مجاورة دون إذن، والبعض كانوا فى الأكواخ فى حالة سُكر. دعت رئيس العمال، وأخذت أسماء الغائبين، وكتبتها بيدها الكبيرة الخرقاء على قصاصة من الورق، وهى تتهجى الأسماء الغريبة بصعوبة. ظلت هناك طوال الصباح، تراقب الصف غير المنتظم من العمال، والشمس تصب جامها من خلال القماش المرفوع فوق رأسها العارية. لم يكن ثمة كلام بينهم. كانوا يعملون على كره منهم، فى صمت جهم، وكانت تعرف أن ذلك لأنهم كانوا مستاءين من أن تشرف عليهم امرأة. وعندما دق الجرس الضخم لفترة

الغداء، ذهبت إلى البيت، وأخبرت ديك بما حدث، لكن مع تخفيض حدة الأمر لكى لا يقلق. بعد الغداء قادت السيارة عائدة، والغريب أنها فعلت دون امتعاض من ذلك العمل الذى كانت ترفضه طوال تلك الفترة. لقد أبهجتها المسئولية غير المعتادة، والإحساس بأنها تقف بإرادتها أمام المزرعة. وفى هذه المرة تركت السيارة واقفة على الطريق، بينما كانت مجموعة الأهالى يتحركون إلى منتصف الحقل؛ حيث كانت الذرة الذهبية عالية فوق رءوسهم، وحيث لم تكن تستطيع رؤيتهم من الخارج. كانوا يقطعون الكيزان الثقيلة، ويضعونها فى أنصاف الأجولة المربوطة حول خصورهم، بينما كان آخرون يتبعونهم يقطعون السيقان التى خلت من الكيزان، ويضعونها فى أكوام صغيرة حول الحقل بشكل منتظم. وتحركت بثبات فى الأرض معهم، واقفة فى الجزء الذى تم حصده، بين بقايا السيقان الجافة، وراحت تراقبهم بلا توقف. كانت لا تزال تحمل السير الجلدى الطويل حول رسغها. وأعطاها شعورًا بالسلطة، وحماية ضد موجات الكراهية، التى كانت تشعر بها تأتى من تلك المجموعة من الزنوج. وبينما كانت تسير بثبات معهم وإلى جوارهم، مع الشمس الحارة الصفراء على رأسها وعنقها، شعرت بأكتافها تؤلمها، وبدأت تفهم لماذا كان ديك يستطيع أن يحتمل، يومًا بعد يوم. كان من الصعب أن تجلس ساكنًا فى السيارة والحرارة تصب من السقف؛ كانت الحركة مع العمال مختلفة، فى

إيقاع حركتهم، وقد ركزت تفكيرها على العمل الذى يقومون به. وراقبت بينما مر الوقت الطويل فى عصر ذلك اليوم، بنوع من الذهول المنتبه، الظهور العارية البنية المنحنية، ثابتة ومستقيمة، وأربطة العضلات تنزلق على البشرة المتربة. كان معظمهم يرتدى قطعًا من القماش القطنى الباهت؛ وبعضهم يرتدى شورتات كاكى؛ ولكن معظمهم كانوا عراة فوق الوسط. كانوا مجموعة من الرجال النحيلين قصار القامة، وقد نال منهم سوء التغذية، ومع ذلك فقد كانوا يتمتعون بعضلات وأشداء. كانت تجهل أى شىء خارج هذا الحقل، العمل الذى ينبغى عمله، مجموعة الأهالى. نسيت أمر الحرارة، والشمس الحارقة، والوهج. راحت تراقب الأيدى الداكنة وهى تقطف الكيزان، وتضع السيقان الذهبية معًا، ولم تكن تفكر فى شىء آخر. وعندما توقف واحد من الرجال لحظة أثناء العمل من أجل الراحة، أو ليمسح العرق السائل من عينيه، كانت تنتظر دقيقة وهى تراقب ساعة يدها، ثم تدعوه بحدة أن يبدأ مرة أخرى. كان يلتفت لينظر ببطء إليها، ثم ينحنى مرة أخرى على الذرة، ببطء، وكأنما فى احتجاج. لم تكن تعلم أن ديك يعطيهم راحة لمدة خمس دقائق كل ساعة؛ لقد تعلم أنهم يعملون أفضل إن فعل هذا؛ وبدا لها أن توقفهم عن العمل بدون إذن ليقيموا ظهورهم ويمسحوا العرق إهانة لسلطتها عليهم. وجعلتهم يستمرون فى ذلك حتى غروب الشمس، ثم عادت إلى البيت وقد شعرت بالرضا عن نفسها، وما

شعرت حتى بالتعب. لقد امتلأت حماسًا، وشعرت بأطرافها خفيفة، وكانت تؤرجح الكرباج على معصمها مبتهجة.

كان ديك راقدًا فى السرير فى الغرفة ذات السقف الواطئ التى كانت تصبح شديدة البرد فى شهور البرد بمجرد أن تغرب الشمس، كما كانت شديدة الحر فى الصيف، كان يشعر بالقلق، ناقمًا لعجزه. لم يكن يحب أن يفكر فى اقتراب مارى من هؤلاء الزنوج طوال اليوم؛ فهذا ليس بعمل امرأة. وبالإضافة إلى ذلك، كانت سيئة التعامل مع الأهالى، وكان بحاجة إلى العمال. لكنه شعر بالارتياح عندما أخبرته كيف كان العمل يتقدم. لم تقل شيئًا عن مدى كراهيتها لهؤلاء الزنوج ، ولا عن كيف أثرت فيها العداوة التى شعرت بها تأتيها بوضوح منهم، كانت تعرف أنه يمكن أن يبقى فى الفراش أيامًا، وأنها سوف تضطر لفعل ذلك سواء أرادت أم لم ترد. والواقع أنها أحبت ذلك. فالشعور بأنها رئيسة على حوالى ثمانين من العمال السود منحها ثقة جديدة؛ كان شعورًا طيبًا، أن تجعلهم تحت إرادتها، وأن تجعلهم يفعلون ما تريد.

وعند نهاية الأسبوع كانت هى التى تجلس خلف المنضدة الصغيرة الموضوعة فى الشرفة بين نباتات الأصص بينما كانت مجموعات العمال تقف بالخارج، تحت الأشجار الظليلة القاتمة، بانتظار أن تدفع لهم أجورهم، كما هو الإجراء المتبع كل شهر.

كانت الدنيا مظلمة بالفعل، كانت أولى النجوم تظهر فى السماء؛ وعلى المنضدة وضعت مصباحًا من النوع الذى لا تطفئه الرياح، وبدا لهبه الضعيف الكئيب مثل طائر محبوس فى قفص زجاجى. وقف رئيس العمال بجوارها ينادى الأسماء وهى تبحث عنها فى قائمتها. وعندما وصلت إلى أولئك الذين لم يأتوا حسب طلبها فى اليوم الأول، خصمت نصف كراون، وأعطتهم النقود بالفضة؛ كان الأجر خمسة عشر شلنًا فى المتوسط، للشهر. وسرت همهمة غاضبة بين الأهالى؛ وحيث كانت ثمة ما ينذر بعاصفة صغيرة من الاحتجاج، تحرك الرئيس إلى الجدار الواطئ وبدأ يتناقش معهم بلغته. لم تفهم إلا كلمة غريبة هنا أو هناك، لكنها كرهت موقف الرجل ولهجته؛ فقد بدا من طريقة تصرفه أنه يقول لهم أن يقبلوا مصيرًا شريرًا لا بديل عنه، ولم يكن يعنفهم، كما كانت تود أن يفعل، بسبب إهمالهم وكسلهم. فهم، على أية حال، ظلوا لا يعملون شيئًا لعدة أيام. وإذا هى لم تفعل ما هددت به، فإنهم جميعًا سوف يخصم منهم شلنين وستة بنسات، لأنه لم يطعها أحد ويظهر فى الأرض فى مدى الدقائق العشرة التى حددتها. لقد كانوا مخطئين؛ وكانت هى على حق؛ وكان لابد أن يخبرهم رئيسهم بذلك، وليس أن يتجادل معهم ويهز كتفيه - حتى أنه ندت عنه ضحكة وسط الكلام. وأخيرًا التفت إليها، وأخبرها أنهم غير راضين وأنهم يطلبون حقهم. قالت باختصار أنها سبق أن قالت إنها سوف تخصم

هذا القدر وأنها تنوى الحفاظ على كلمتها. ولن تغير رأيها. وفجأة أضافت بغضب، وبدون تفكير، أن من لا يعجبه يمكنه الذهاب. واستمرت فى عملية ترتيب الكومات الصغيرة من الأوراق النقدية والفضة، دون أن تلاحظ عاصفة الكلام بالخارج. بعضهم سار إلى المجمع، وقد قبل الوضع. وظل آخرون منتظرين فى جماعات حتى انتهت من الدفع، ثم جاءوا إلى الجدار. واحدًا بعد الآخر يتحدثون مع الرئيس، قائلين إنهم يريدون الذهاب. شعرت بشىء من الخوف، لأنها كانت تعرف كم من الصعب العثور على عمال، وأن ذلك كان أكثر ما يقلق ديك بسببه. ومع ذلك، حتى عندما لفت رأسها لتسمع حركات ديك فى الفراش، الذى كان خلفها وبينها وبينه جدار واحد، كان يملؤها التصميم والنقمة، لأنهم توقعوا أن يأخذوا أجرًا على عمل لم يؤدوه، وذهبوا لعمل زيارات بينما كان ديك مريضًا؛ وفضلاً عن هذا، أنهم لم يأتوا إلى الأرض فى مدى الدقائق العشرة. التفتت إلى المجموعة المنتظرة، وقالت لهم إن من يعمل على أساس عقد خدمة للأهالى لا يمكنه الذهاب.

كان هؤلاء يتم تجنيدهم عن طريق ما يشبه عصابة جنوب إفريقيا لجمع العبيد فى السابق: رجال بيض، يرقدون بانتظار مجموعات مهاجرة من الأهالى فى طريقهم على الطرقات للبحث عن عمل، يجمعونهم فى سيارات لورى كبيرة، وغالبًا يتم ذلك ضد إرادتهم (أحيانًا يطاردونهم بين الأشجار لأميال

لو حاولوا الهرب)، ويغرونهم بوعود براقة بعمل جيد وأخيرًا يبيعونهم إلى المزارعين البيض مقابل خمسة جنيهات أو أكثر للرأس فى عقد لمدة سنة.

ومن هؤلاء الأولاد، كانت تعرف أن بعضهم سوف تجده هاربًا من المزرعة فى خلال الأيام القليلة القادمة؛ وبعضهم لن تتمكن الشرطة من العثور عليه، لأنهم سوف يهربون من خلال التلال إلى الحدود ومن ثم يصبحون بعيدًا عن أيدى الشرطة. لكنها لم تكن تنوى أن تتأرجح الآن خوفًا من ذهابهم ومن متاعب عمال ديك؛ فالموت أهون بالنسبة لها من أن تظهر ضعفًا. صرفتهم، مهددة بالشرطة. الآخرون، الذين كانوا يعملون على أساس أجر شهرى، والذين كان ديك يحتفظ بهم بمزيج من الملاطفة والتهديد الذى يلقى بروح دعابة، قالت إنهم يستطيعون الذهاب عند نهاية الشهر. تحدثت معهم مباشرة - وليس من خلال وساطة رئيس العمال - بنغمة واضحة وباردة، شارحة بمنطق يدعو إلى الإعجاب كيف أنهم كانوا على خطأ، وكيف أنها كانت عادلة فى معاملتهم بهذه الطريقة. وانتهت بموعظة مختصرة حول كرامة العمل، التى هى قانون يتربى فى عظام كل مواطن جنوب إفريقى أبيض. وقالت إنهم لن يفلحوا أبدًا (متحدثة باللغة الكفيرية التى لم يكن بعضهم يفهمها، حيث كانوا قد جاءوا حديثًا من العزَب)، وحتى يتعلموا الذهاب إلى العمل دون إشراف، من أجل حب العمل، وأن يفعلوا ما يقال لهم، وأن يؤدوا العمل من أجل العمل فى حد

ذاته، وليس وهم يفكرون فى النقود التى سوف تدفع لهم مقابله. كان هذا الموقف تجاه العمل هو الذى جعل من الرجل الأبيض ما هو عليه: الرجل الأبيض يعمل لأن العمل طيب، لأن العمل بدون مكافأة هو الذى يثبت جدارة الإنسان.

كانت عبارات هذه المحاضرة الصغيرة تتدفق على شفتيها بشكل طبيعى: لم تكن تبحث عنها فى عقلها. كانت قد سمعتها كثيرًا من والدها، عندما كان يحاضر خدمه من الأهالى، حتى أنها تدفقت من ذلك الجزء من عقلها الذى كان يحمل ذكرياتها الأولى.

استمع الأهالى لها بما وصفته هى نفسه بأنها وجوه "صفيقة". كانوا مكتئبين وغاضبين، وهم يستمعون لها (أو ما يمكن لهم أن يفهموه من خطبتها) بدون انتباه، ينتظرون فقط أن تنتهى.

ودون مبالاة باحتجاجاتهم، والتى انفجرت بمجرد أن توقف صوتها، قامت بإيماءة مفاجئة تصرفهم، ورفعت المنضدة الصغيرة التى تكدست عليها الأكياس الورقية للنقود، وحملتها إلى الداخل. وبعد قليل سمعتهم يتحركون مبارحين، يتحدثون ويغمغمون مع بعضهم البعض، وعندما نظرت من خلال الستائر رأت ظلال أجسامهم الداكنة تختلط بظلال الأشجار قبل أن يختفوا. وظلت أصواتهم تطوف عائدة، وقد تحولت الآن إلى زعقات غاضبة، ولعنات موجهة إليها. امتلأت بالرغبة فى الانتقام وشعور بالانتصار. كانت تكرههم جميعًا، كل واحد منهم، من رئيسهم الذى توترت من

خنوعه، وحتى أصغر طفل فيهم؛ كان بينهم أطفال يعملون لا يمكن أن تزيد أعمارهم عن سبعة أو ثمانية أعوام.

كانت قد عرفت، وهى تقف فى الشمس تراقبهم طوال اليوم، كيف تخفى كراهيتها وهى تتحدث إليهم، لكنها لم تحاول إخفاءها عن نفسها. كانت تكره عندما يتحدثون إلى بعضهم باللهجات التى لا تفهمها، وكانت تعرف أنهم كانوا يتناقشون حولها وربما يشتمونها بأقذع الألفاظ. كانت تعرف ذلك، رغم أنها لم يكن بإمكانها سوى تجاهل ذلك. كانت تكره أجسامهم السوداء نصف العارية ذات العضلات الكثيفة وهى تنحنى فى إيقاع رتيب وهم يعملون. كانت تكره تجهمهم، تحاشيهم النظر إليها وهم يخاطبونها، عجرفتهم المستترة، وكان أكثر ما تكرهه بانتفاضة اشمئزاز عنيفة، الرائحة الثقيلة التى تأتى منهم، رائحة ساخنة حيوانية كريهة.

"ما أنتن رائحتهم"، قالت ذلك لديك بانفجار من الغضب كرد فعل لأنه وضع إرادتها فى مواجهة إرادتهم.

ضحك ديك ضحكة خفيفة. وقال: "وهم يقولون إن رائحتنا نتنة".

اعترضت: "كلام فارغ!"، شعرت بصدمة من أن هؤلاء الحيوانات قد يفترضون شيئًا كهذا.

قال، دون أن يلاحظ غضبها: "بل نعم، أتذكر أننى كنت أتحدث مع سامسون العجوز ذات مرة، فقال

لى "إنكم تقولون إن لنا رائحة غريبة. لكن بالنسبة لنا ليس هناك ما هو أسوأ من رائحة الرجل الأبيض.".

بدأت تقول ساخطة: "وقاحة!"، لكنها فى هذه اللحظة رأت شحوبه ووجهه الغائر، فكبحت نفسها. لابد أن تكون فى غاية الاحتراس، لأنه من الممكن أن يكون حساسًا وقابلاً للتوتر فى هذه الحالة من الضعف.

سألها: "ما الذى كنت تتحدثين إليهم بشأنه؟"

قالت باحتراس متجنبة الحديث: "أوه، لا شىء مهم". كانت قد قررت ألا تخبره عن الذين سوف يتركون العمل حتى وقت لاحق، عندما يكون فى صحة جيدة بالفعل.

قال بقلق: "أتمنى أن تكونى حذرة معهم. لابد أن تصبرى قليلاً عليهم هذه الأيام، أنت تعرفين. إنهم جميعًا مدللون".

قالت باحتقار: "أنا لا أؤمن بمعاملتهم باللين. لو كان الأمر بيدى لجعلتهم يعملون ويطيعون بالكرباج".

قال متوترًا: "هذا كله جميل جدًا، ولكن من أين سوف تأتين بالعمال؟"

قالت وهى تشعر بقشعريرة: "أوه، إنهم جميعًا يثيرون أعصابى".

أثناء هذا الوقت، ورغم العمل الشاق وكراهيتها الزنوج، كان كل عدائها وسخطها قد تراجعا إلى

الخلفية. كانت غارقة تمامًا فى عملية التحكم فى الأهالى دون أن تظهر ضعفًا، وبإدارة البيت وإعداد الأشياء حتى يكون ديك مرتاحًا عندما تكون بالخارج. كانت تحاول أيضًا أن تعرف كل تفصيلة فى المزرعة: كيف تدار، وما الذى يزرع. كانت تقضى أمسيات عديدة تقرأ كتب ديك وهو نائم. فى الماضى لم تكن تهتم بهذا: كان ذلك من شئون ديك. لكن الآن كانت تقوم بتحليل الصور ـ ولم يكن ذلك صعبًا فى كتابين صغيرين ـ وترى المزرعة بكاملها فى عقلها. وقد صدمها ما اكتشفته. ولفترة كانت تعتقد أنها لابد أن تكون مخطئة؛ لابد أن يكون هناك ما هو أكثر من ذلك. لكن لم يكن ما هو أكثر من ذلك. مسحت أنواع المحاصيل التى تزرع، والحيوانات الموجودة، وحللت بدون صعوبة أسباب فقرهما. المرض، عزلة ديك الإجبارية، ونشاطها الإجبارى، هو ما جعلها تنزل إلى المزرعة وقربها إليها وجعل منها شيئًا حقيقيًا. قبل ذلك كانت شيئًا غريبًا، وشأنًا لا معنى له تجنبته إراديًا، ولم تبذل أية محاولة لفهمه ككل، معتقدة أنه شىء أكثر تعقيدًا مما هو. والآن شعرت بالضيق من نفسها لأنها لم تحاول أن تهتم بهذه المشاكل من قبل.

والآن، وهى تتبع مجموعة العاملين إلى نهاية الحقل، كانت تفكر باستمرار فى المزرعة، وما ينبغى عمله. كان موقفها من ديك دائمًا يتسم بالازدراء، لكنه الآن أصبح مليئًا بالمرارة والغضب. لم يكن الأمر مسألة سوء حظ، بل كان مجرد عدم كفاءة. لقد كانت

على خطأ عندما ظنت أن تلك النوبات من التفكير المفعم بالآمال حول الديوك الرومية، والخنازير، إلخ، كانت نوعًا من الهروب من نظام العمل الدءوب فى المزرعة. لقد كان كلاً متكاملاً، كل ما يفعله يشهد على خصاله. فى كل مكان وجدت أشياء بدأت وتركت دون أن تكتمل. هنا كانت قطعة من الأرض قد تم إخلاؤها جزئيًا من بقايا وجذور الأشجار، ثم تركت حتى أن الأشجار الصغيرة عادت للنمو عليها مرة أخرى؛ وهناك ظليلة للبقر صنع نصفها من الطوب والحديد، والنصف الآخر من خشب الدغل والطين. كانت المزرعة رقعًا من المحاصيل المختلفة. قطعة من خمسين إيكر بها عباد الشمس، والقنب، والذرة، والفول السودانى، والفاصوليا. كان دائمًا يجنى عشرين جوالاً من هذا وثلاثين جوالاً من ذاك بربح ضئيل على كل محصول. لم يكن هناك شىء واحد يتم بشكل مضبوط فى المكان كله، لا شىء! لماذا لم يكن قادرًا على رؤية ذلك؟ من المؤكد أنه يرى أنه لن يصل إلى نتائج أفضل بهذه الطريقة؟

وقفت وقد دوختها الشمس، وعيناها تؤلمانها من الوهج، لكنها كانت يقظة لكل حركة من حركات العمال، كانت تفكر وترسم، وتخطط، وقررت أن تتحدث مع ديك عندما يكون فى صحة جيدة، لإقناعه بأن يواجه بوضوح ما سوف ينتهى إليه إن لم يغير من منهجه. لم يكن قد بقى سوى يومين وسوف يكون فى حالة طيبة بما يكفى لأن يتولى أعماله: سوف تسمح

له بأسبوع ليعود طبيعيًا تمامًا، ثم لن تتهاون حتى يتبع نصائحها.

ولكن فى ذلك اليوم الأخير حدث شىء لم تكن تحسب حسابه.

ففى البركة، بالقرب من حظائر البقر، كان ديك يخزن قوالح الذرة كل عام. كانت توضع فى البداية ألواح من الصفيح على الأرض، لحمايتها من النمل الأبيض؛ ثم يتم إفراغ أجولة القوالح عليها، وكانت ببطء تتحول إلى كومة صغيرة من الذرة ذات الملمس الناعم. وكان هذا هو المكان الذى ظلت فيه تلك الأيام، لتشرف على إفراغ الأجولة جيدًا. كان الأهالى يفرغون الأجولة المتربة من العربة، ويحملونها من أطرافها على أكتافهم، وينحنون كثيرًا تحت ثقلها. كانوا أشبه بحزام ناقل بشرى. اثنان يقفان على العربة يؤرجحان الجوال الثقيل ثم إلى المنتظرين وظهورهم محنية. كان الرجال يتحركون بثبات إلى الأمام فى صف، من جانب العربة إلى مكان وضع الذرة، وهم يهزون جانبها على الدرج، الذى يتكون من أجولة ممتلئة، لإفراغ القوالح لتنزل متطايرة فوق الكومة. كان الهواء رمليًا وشائكًا ببقايا القشور المتطايرة. وعندما مررت مارى يدها على وجهها، شعرت به خشنًا مثل الخيش الجيد.

وقفت عند نهاية الكومة، التى راحت ترتفع أمامها لتصبح جبلاً أبيض لامعًا تحيط به السماء المشرقة، ظهرها إلى الثيران التى وقفت صابرة بلا

حركة ورءوسها محنية، منتظرة حتى ينتهى إفراغ العربة وتصبح حرة لتذهب فى رحلة أخرى. راحت تراقب الزنوج ، وهى تفكر فى المزرعة، وتؤرجح الكرباج من معصمها فيصنع أشكالاً أفعوانية وسط الأتربة الحمراء المتطايرة. فجأة لاحظت أن أحد العمال لم يكن يعمل. خرج من الصف، وكان يقف جانبًا، يتنفس بصعوبة، ووجهه يتصبب عرقًا. نظرت إلى ساعتها. مرت دقيقة، ثم دقيقتين. لكنه ظل واقفًا، وذراعاه مطويتان، بلا حركة. انتظرت حتى بلغ عقرب الساعة الدقيقة الثالثة، وبنقمة على تهوره الذى جعله يقف عاطلاً بينما ينبغى أن يعرف الآن قاعدتها بأنه لا يُسمح بأكثر من توقف لدقيقة واحدة. ثم قالت: "عد إلى العمل". نظر إليها بذلك التعبير المعتاد للعمال الأفارقة: نظرة جوفاء، وكأنما هو لا يراها، وكأنما كان ثمة مظهر سطحى ينم عن خنوع يستخدمه للتعامل معها ومع جنسها، تغطية لمنطقة داخلية سرية لا يمكن الوصول إليها. وبطريقة غير مبالية، فك ذراعيه، وسار مبتعدًا. كان ذاهبًا لإحضار بعض الماء لنفسه من صفيحة البنزين التى وضعت بالقرب منهم، تحت شجيرة لتبترد. قالت مرة أخرى بحدة، وصوتها يرتفع: "قلت لك عد إلى العمل".

هنا توقف فى مكانه، ونظر إليها بثبات، وقال بلهجته التى لم تفهمها: "أريد أن أشرب".

فقالت بحدة: "لا تتحدث إلى بهذه اللغة البربرية". ونظرت حولها بحثًا عن رئيس العمال، لكنه لم يكن ظاهرًا.

قال الرجل، بلهجة عوجاء مضحكة، وبالإنجليزية: "أريد.. ماء"، وفجأة ابتسم وفتح فمه وأشار بإصبعه إلى حلقه. وسمعت الزنوج الآخرين يضحكون قليلاً من مكانهم وهم واقفون على كومة الذرة. كان هذا الضحك مرحًا ولطيفًا، لكنه فجأة أصابها غضب جنونى. فقد ظنت أنهم يضحكون عليها، بينما كان هؤلاء الرجال ينتهزون فرصة للضحك على شىء ما، أى شىء على الإطلاق، فى وسط عملهم؛ كان واحدًا منهم يتحدث بلغة إنجليزية سيئة ويدفع إصبعه فى حلقه، وهو شىء يدعو إلى الضحك كأى شىء آخر.

لكن معظم البيض يظنون أن من "الوقاحة" أن يتحدث أحد الزنوج بالإنجليزية. قالت، وقد تلاحقت أنفاسها من الغضب: "لا تتحدث معى بالإنجليزية"، ثم توقفت. كان الرجل يبتسم ويهز كتفيه ويلتفت بعينيه إلى السماء وكأنه يحتج أنها منعته من الكلام بلغته، ثم بلغتها، فبأية لغة يتكلم إذًا؟ تلك الغطرسة الكسولة دفعتها إلى غضب لا حد له. ففتحت فمها لتنهال عليه بالكلام، لكن الكلمات توقفت فى حلقها. ورأت فى عينيه ذلك الازدراء الجهم ونوعًا من الاحتقار الساخر، وكانت تلك هى اللمسة الأخيرة. وبشكل لاإرادى، رفعت كرباجها وأنزلته على وجهه فى ضربة عنيفة. لم تكن تعلم ماذا تفعل. وقفت بهدوء، ترتعد، وعندما رأته يرفع يده مترنحًا إلى وجهه، نظرت إلى الكرباج الذى كانت تحمله فى ذهول، وكأن الكرباج قد تحرك بدافع داخلى منه، دون إرادة منها. وعندما نظرت وجدت

أثرًا كثيفًا قد ارتفع على البشرة الداكنة لخده، ومنه تجمعت نقاط لدم حار، تقاطر على ذقنه، ونزل على صدره. كان رجلاً ضخم الجثة، أطول من أى من الآخرين، وذا بنية رائعة، لا يرتدى سوى جوال قديم مربوط على وسطه. وبينما تقف هناك، خائفة، بدا لها برجًا مرتفعًا. وعلى صدره العريض وقعت نقطة أخرى من الدم وانحدرت حتى وسطه. ثم رأته يقوم بحركة مفاجئة، وتكومت، مرتعبة، فقد ظنت أنه سيهاجمها. لكنه لم يفعل سوى أن مسح الدم من على وجهه بيد كبيرة ترتعد قليلاً. عرفت أن كل الأهالى كانوا يقفون خلفها ككتلة صلبة، يراقبون المشهد. وفى صوت بدا خشنًا من انقطاع نفسها، قالت: "والآن، عد إلى العمل". وللحظة، نظر الرجل إليها بتعبير جعل بطنها تكركب من الخوف، ثم، ببطء، التفت، والتقط جوالاً، ولحق بالحزام الناقل من الأهالى. وبدأوا كلهم يعملون مرة أخرى بصمت تام. كانت ترتعد خوفًا، مما فعلته هى نفسها، وبسبب النظرة التى رأتها فى عينى الرجل.

فكرت: سوف يشكو إلى الشرطة أننى ضربته؟ لم يكن هذا يخيفها، ولكنه أثار غضبها. كان أسوأ ما يحزن المزارع الأبيض هو أنه ليس مسموحًا له بضرب الزنوج الذين تحت يده، وأنه إن فعل، فقد يشكون إلى الشرطة، ولكنهم نادرًا ما يفعلون. وأثار جنونها أن تفكر أن هذا الحيوان الأسود لديه الحق فى الشكوى ضدها، ضد سلوك امرأة بيضاء. ولكن المدهش أنها

لم تكن خائفة على نفسها. فلو ذهب هذا الرجل واشتكى فى مركز الشرطة، فقد توجه الشرطة لها تحذيرًا، بما أنها السابقة الأولى لها، وسوف يأتى هذا التحذير من رجل شرطة أوروبى، والذى كان يأتى فى دوريات كثيرة إلى المنطقة، حيث كان له أصدقاء بين المزارعين، يأكل معهم، أحيانًا يقضى الليل معهم، ويشارك فى حياتهم الاجتماعية. لكن العامل، بما أنه من الزنوج أصحاب العقود، فسوف يتم إرساله مرة أخرى إلى هذه المزرعة؛ ومن غير المحتمل أن ديك سيتعامل بشكل طيب مع أحد الأهالى الذى سبق أن اشتكى زوجته. فلا مجال لخشيتها من الشرطة، أو المحاكم، أو السجون؛ أما هو، فليس أمامه إلا الصبر. لكنها كادت تجن من فكرة أن هذا الرجل لديه الحق فى رفع دعوى؛ وانصب جام غضبها على أولئك العاطفيين والمنظرين، "هم" - صانعو القوانين والموظفين الحكوميين - الذين تدخلوا فى الحق الطبيعى للمزارع الأبيض بأن يعامل عماله كما يشاء.

ولكن غضبها كان يمتزج بإحساس بالانتصار، إشباع لكونها انتصرت فى معركة الإرادة هذه. راقبته وهو يحمل الأجولة، كتفاه الكبيران ينحنيان تحت ثقل حمله، وشعرت بمتعة مريرة فى رؤيته خاضعا هكذا. ورغم أن ركبتيها كانتا لا تزالان تصطكان: فقد كان يمكن أن تقسم أنه كاد أن يهاجمها فى تلك اللحظة البشعة بعد أن ضربته. لكنها وقفت هناك بلا حركة، تدفن مشاعرها المتناقضة داخل صدرها، محافظة

على وجهها صارمًا وقاسيًا؛ وفى فترة بعد الظهر عادت مرة أخرى، عازمة على ألا تنفر حتى اللحظة الأخيرة، رغم أنها كانت تكره الساعات الطوال من مواجهة مشاعر العداء والكراهية.

وعندما هبط الليل أخيرًا، وتراجع الهواء بنعومة إلى برودة الليل الحادة فى ليالى يوليو، وتحرك الأهالى للرحيل، يحملون صفائحهم التى أحضروها ليشربوا منها، أو معطفًا باليًا، أو جثة فأر ما أو أحد مخلوقات البرارى الذى أمسكوا به أثناء العمل وقد يطهونه فى وجبة المساء، وعرفت أن مهمتها قد انتهت، فغدًا سوف يكون ديك هنا، شعرت وكأنها قد كسبت معركة. لقد كان انتصارًا على هؤلاء الزنوج ، وعلى نفسها، وعلى كرهها لهم، وعلى ديك وقلة حيلته البطيئة الغبية. لقد استطاعت أن تأخذ من هؤلاء الهمج عملا أكثر بكثير مما استطاع هو أبدًا. نعم، فهو لم يكن يعرف كيف يتعامل مع الزنوج !

لكن فى تلك الليلة، فى مواجهة الأيام الخاوية التى سوف تأتى مرة أخرى، شعرت بالتعب وبأنها مستهلكة. وبدت المناقشة مع ديك، التى كانت تخطط لها أيامًا، والتى بدت لها شيئًا بسيطًا للغاية عندما كانت هناك فى الأرض، بعيدًا عنه، تفكر فى المزرعة وما يجب أن تفعله بها بدونه، دون أن تحسب له حسابًا، بدت الآن مهمة متعبة وثقيلة على قلبها. فقد كان يعد نفسه لأخذ البادرة مرة أخرى وكأن سلطتها لم تكن شيئًا على الإطلاق. كان مرة أخرى مشغولاً

ومستغرقًا، فى تلك الأمسية، ولا يناقش مشاكله معها. وشعرت بالحزن والإهانة؛ لأنها لم تبذل مجهودا لتتذكر أنها لسنوات كانت ترفض رجاءه لها بأن تساعده وكان يتصرف وكأنها دربته على أن يعمل. ورأت، فى تلك الأمسية، بينما كان التعب القديم يحل بها، ويثقل أطرافها، أن النوايا الطيبة عند ديك أخطاء فادحة وسوف تكون هى الأداة التى سيكون عليها أن تعمل بها. سوف تضطر للجلوس كملكة النحل فى هذا البيت وتجبره على فعل ما تريد.

فى الأيام القليلة التالية كانت تنتظر، وهى تراقب وجهه يعود إليه اللون وآثار الشمس التى كانت قد غُسلت تحت العرق المتصبب من الحمى. وعندما بدا متمالكا نفسه بالكامل مرة أخرى، قويًا وغادرته الكآبة والتوتر، فتحت موضوع المزرعة.

كانا يجلسان فى إحدى الأمسيات تحت ضوء المصباح الخافت، وبدأت ترسم له، بطريقتها السريعة الحاسمة، كيف كانت تدار المزرعة بالضبط، وأى نقود يتوقعها فى المقابل، حتى لو لم تكن هناك أية أخطاء أو مواسم سيئة. وأعلنت له، بطريقة قاطعة، أنهما لا يمكن أن ينتظرا الخروج من المستنقع الذى هما فيه لو استمرا بهذه الطريقة: لن يزيد الفارق الذى يمكن أن يأملا فيه عن مائة جنيه أكثر، أو خمسين أقل، وفقًا لتغيرات الطقس والأسعار.

وبينما كانت تتكلم، اخشوشن صوتها، وأصبح مليئًا بالإصرار، والغضب. وحيث إنه لم يتكلم، بل راح

فقط يستمع مضطربا، أحضرت كتبه، ودعمت رأيها بالأرقام. وبين الفينة والأخرى كان يومئ، مراقبا إصبعها يتحرك بطول الأعمدة، متوقفًا حين تريد تأكيد نقطة معينة، أو إجراء حسابات سريعة. وبينما استمرت، قال لنفسه أنه ينبغى ألا يندهش، حيث إنه يعرف قدراتها؛ ألم يكن لهذا السبب أن طلب منها المساعدة؟

وعلى سبيل المثال، كانت تدير مزرعة دواجن على مستوى واسع الآن، واستطاعت أن تكسب بضعة جنيهات كل شهر فقط من البيض وبيع بعض الدواجن؛ ولكن العمل كله فيما يتعلق بذلك بدا ينتهى فى خلال ساعتين. ذلك الدخل الشهرى المنتظم كان فارقًا بالنسبة لهما. وهو يعرف أنه طوال اليوم تقريبا، لم يكن لديها ما تفعله؛ إلا أن النساء الأخريات اللائى يدرن مزارع دواجن بهذا المستوى كن يجدنه عملاً مرهقًا. وها هى تقوم بتحليلات حول المزرعة، وتنظيم المحاصيل، بطريقة جعلته يشعر بالتواضع، لكنها أيضًا دفعته للدفاع عن نفسه. ولكن فى هذه اللحظة، مؤقتًا، ظل صامتًا، شاعرًا بالإعجاب، واليأس، والإشفاق على الذات، وكان الإعجاب يفوز باليد العليا مؤقتًا. كانت تخطئ فى التفاصيل، ولكن بشكل عام كان عندها حق: كل كلمة قاسية قالتها كانت صحيحة! وبينما كانت تتكلم، وهى تدفع شعرها المخشوشن عن عينيها فى إيماءتها الاعتيادية الدالة على عدم الصبر، شعر بالإهانة أيضًا؛ فقد عرف عدالة ملاحظاتها، وامتنع عن الدفاع بسبب ما كان فى صوتها من تجرد:

ولكن فى نفس الوقت، هذا التجرد كان يؤلمه ويجرحه. كانت تنظر إلى المزرعة من الخارج، كآلة لصنع النقود: هكذا نظرت لها. كانت كل انتقاداتها موجهة بالكامل من هذه الزاوية. ولكنها طرحت الكثير خارج حسابها. ولم تعطه أى مديح للطريقة التى اعتنى بها بتربة أرضه؛ ولا لتلك الإكرات المائة التى جعلها للأشجار. ولم يكن يستطيع أن يرى المزرعة كما تراها. لقد كان يحبها، وكان جزءًا منها. وكان يحب الحركة البطيئة للمواسم، والإيقاع المعقد لتلك "المحاصيل الصغيرة" التى ظلت تصفها بازدراء كما هى العادة.

وعندما انتهت من كلامها، أبقته مشاعره المتضاربة صامتا، يبحث عن كلمات مناسبة. وأخيرًا، قال، بابتسامته الصغيرة المنهزمة: "حسنًا، وماذا نفعل؟" رأت تلك الابتسامة، وأمسكت نفسها، إن ذلك لمصلحتهما هما الاثنين؛ وقد انتصرت! لقد تقبل انتقاداتها. وبدأت تشرح، بالتفصيل، ما يجب عليهما أن يفعلا. اقترحت زراعة التبغ: فالناس جميعًا حولهم يزرعونه ويجنون نقودًا من ورائه. فلماذا لا يفعلان؟ وفى كل ما قالته، وفى كل تغير فى صوتها، كان هناك إيحاء واحد: ينبغى أن يزرعا التبغ، فيجنيا نقودًا يدفعان بها ديونهما، ويتركان المزرعة بأسرع ما يستطيعان.

وأخيرًا، عندما تحقق مما كانت تخطط له، أصيب بصدمة. وتكلم مقاطعًا: "ومتى ما كسبنا كل هذه النقود، ماذا سوف نفعل؟"

لأول مرة بدا عليها تزعزع الثقة، خفضت نظرها وثبتته على المنضدة، ولم تستطع أن تنظر فى عينيه. لم تكن فعلا قد فكرت فى ذلك. كانت تعرف فقط أنها تريده أن يكون ناجحًا وأن يكسب ثروة، لكى تكون لديهما القدرة على فعل ما يريدان، أن يتركا المزرعة، أن يعيشا حياة متحضرة مرة أخرى. فالفقر المدقع الذى كانا يعيشان فيه كان لا يحتمل؛ كان يدمرهما. ولم يكن هذا يعنى أنهما ليس لديهما ما يكفى من طعام: ولكن أن عليهما أن يحرصا على كل بنس، وأن يمتنعا عن شراء ملابس جديدة، وأن يتخليا عن الترفيه، وأن يرجئا الأجازات إلى مستقبل فى أرض المستحيل. فقر يسمح بهامش قليل من الإنفاق، ولكنه دائمًا يكدره ثقل الدين الذى يئن كالضمير، إنه أسوأ من الجوع نفسه. هذا هو ما أصبحت تشعر به. وكان يشعرها بالمرارة، لأنه فقر فرضاه على نفسيهما. لم يكن الناس الآخرون يفهمون نظرية ديك المتكبرة بالاكتفاء الذاتى. كان هناك الكثير من المزارعين فى المنطقة، والواقع فى كل مكان من البلاد، كانوا فقراء مثلهما، ولكنهم يعيشون كما يحبون، يكدسون الديون، أملاً فى أن تهب عليهم رياح الحظ فى المستقبل لتنقذهم. (وبين القوسين، لابد من الاعتراف بأن ثباتهم المتفائل على هذه الفكرة قد أثبت أنهم على حق: فعندما جاءت الحرب والازدهار فى التبغ، استطاعوا أن يكسبوا ثروات من سنة لأخرى. وهو ما جعل ديك تيرنر يبدو أكثر مدعاة للسخرية من أى وقت مضى). وإذا كانت عائلة تيرنر قد قررت التخلى

يتخيل شيئا آخر. من المؤكد أنه لا يستطيع أن يفكر فى أن يعيش فى مكان آخر غير هذه المزرعة: كان يعرف كل شجرة فيها. وليس هذا مجرد كلام مجازى، فقد كان يعرف البرارى التى يعيش عليها مثلما يعرفها الزنوج الأصليون. ولم يكن يشعر بتلك الأحاسيس الوجدانية التى يشعر بها أبناء المدن. كانت مشاعره مرهفة لضوضاء الريح، وتغريد الطيور، والشعور بملمس التربة، والتغيرات فى الطقس. لكن مشاعره تلك كانت متبلدة بالنسبة لأى شىء آخر. بعيدًا عن هذه المزرعة قد يذوى ويموت. أراد أن يفعل كل ما هو طيب لكى يستطيعا الاستمرار فى الحياة فى المزرعة، ولكن مع راحة، ولكى تتمكن مارى من أن تحصل على الأشياء التى تشتاق إليها. وفوق كل شىء، لكى يتمكنا من إنجاب أطفال. كان الأطفال بالنسبة له حاجة ملحة. وحتى فى هذه اللحظة، لم يكن قد فقد الأمل فى أن يحدث ذلك فى يوم ما... ولم يكن يفهم أبدا أنها كانت تتخيل مستقبلاً خارج المزرعة، مستقبلاً خاليًا منه! لقد جعله هذا يشعر بأنه ضائع وخاوٍ، دون دعم لحياته. نظر إليها برعب، كما لو كانت مخلوقًا غريبًا لا حق له أن يكون معه يملى عليه ما ينبغى أن يفعله.

لكنه لم يكن يستطيع تحمل التفكير فيها بهذه الطريقة: لقد تحقق عندما هربت ما يعنيه وجودها فى منزله. لا؛ لابد لها أن تتعلم أن تفهم حاجته للمزرعة، وعندما ينجح فى عمله، فسوف ينجبان

أطفالاً. لابد أن تعلم أن إحساسه بالهزيمة لم يكن حقيقة بسبب فشله كمزارع على الإطلاق، وإنما فشله كان عداءها نحوه كرجل، وجودهما معًا بهذه الطريقة. وعندما يكون بإمكانهما إنجاب أطفال، حتى هذا سوف يكون قد عولج، وسوف يكونان سعيدين. هكذا كان يحلم، ورأسه مستند على يديه، مستمعًا إلى تلك النقرات المنتظمة للقلم.

ولكن، رغم وصوله إلى هذا الاستنتاج المريح فى تأملاته، كان شعوره بالهزيمة طاغيًا. كان يكره التفكير فى التبغ؛ كان دائمًا يكره هذه الفكرة، كان يبدو له محصولاً لاإنسانيا. ومزرعته ينبغى أن تدار بطريقة مختلفة؛ هذا قد يعنى الوقوف ساعات داخل المبانى فى درجات حرارة عالية وجو مشبع بالرطوبة؛ وقد يعنى الاستيقاظ فى الليل لمراقبة الترمومترات.

وهكذا راح يعبث بأوراقه على المنضدة، ويضغط رأسه بين يديه، ويتمرد تمردًا تعيسًا على مصيره. لكن كل هذا كان عبثًا، ومارى تجلس مقابله، تواجهه ليفعل ما تريده. وأخيرًا رفع بصره، وابتسم ابتسامة تعيسة ملتوية، وقال: "حسنًا، يا ريس، هل يمكن أن أفكر فى الأمر بضعة أيام؟" لكن صوته كان مختنقا بالشعور بالمهانة. وعندما قالت بتوتر: "أرجو ألا تنادينى بكلمة 'ريس'!" لم يرد، رغم أن الصمت بينهما أفصح عما كانا يخشيان قوله. وكسرت الصمت أخيرًا ناهضة برشاقة من أمام المنضدة، ودفعت كل الكتب بعيدًا،

قائلة: "إننى ذاهبة إلى الفرش". وتركته هناك، جالسًا مع أفكاره.

بعد ثلاثة أيام، قال بهدوء، وعيناه تتحاشيان النظر إليها، أنه كان يعد العدة مع بعض البنائين من الزنوج لإقامة كوخين من أكواخ التبغ.

عندما نظر إليها أخيرًا، مجبرًا نفسه على مواجهة انتصارها الباهر، رأى عينيها تلمعان بأمل جديد، وفكر بانزعاج فيما يمكن أن يعنى الأمر بالنسبة لها لو فشل هذه المرة.

-٨-

بمجرد رؤية مارى لتأثير إرادتها عليه، انسحبت وتركته وحده. وبذل محاولات عديدة لجذبها إلى عمله بطلب نصيحتها، مقترحًا أنها ينبغى أن تساعده بشىء يشكل مشكلة بالنسبة له، لكنها رفضت هذه الدعوات كما كانت تفعل دائمًا، وكان ذلك لثلاثة أسباب. الأول كان محسوبًا: لو كانت معه دائمًا، وتعلن دائما قدرتها المتفوقة، فإن ذلك سيثير موقفًا دفاعيًا لديه وسوف يرفض فى النهاية أن يفعل أى شىء تريده. والسببان الآخران كانا نابعين من الغريزة. فقد كانت لا تزال تكره المزرعة ومشاكلها وتجفل من أن تصبح معتادة مثله على نظامها الصارم. وكان السبب الثالث هو أقوى الأسباب الثلاثة، رغم أنها لم تكن واعية به. لقد كانت بحاجة إلى التفكير فى ديك، الرجل الذى تزوجته زواجًا لا يمكن فسخه أو إبطاله، كشخص يعتمد على نفسه، ناجح بمجهوده الخاص. عندما كانت تراه ضعيفًا وبلا هدف، ويستحق الشفقة، كانت

تكرهه، وكانت الكراهية تعود عليها نفسها. كانت بحاجة إلى رجل أقوى منها، وكانت تحاول أن تجعل ديك هو هذا الرجل. وببساطة، لو كان قد مارس سطوة وسلطة عليها، بشكل أصيل، لأحبته، وما كانت كرهت نفسها لأنها مرتبطة بشخص فاشل. وهذا كان هو ما تنتظره، وما منعها، رغم أنها كانت متلهفة على ذلك، من أن تأمره بفعل أشياء واضحة. والحق أن انسحابها من المزرعة كان لإنقاذ ما ظنت أنه أضعف نقطة فى كبريائه، دون أن تتحقق أنها هى كانت فشله. وربما كانت على حق، حق غريزى، كان يمكن أن تحترم النجاح المادى وتمنح نفسها له. كانت على حق، ولكن لأسباب أخرى. كان يمكن أن تكون على حق لو كان ديك نوعًا آخر من الرجال. عندما لاحظت أنه كان يتصرف بغباء مرة أخرى، ينفق نقودًا على أشياء غير ضرورية، ويوفر فى النفقات التى ينبغى إنفاقها على الأساسيات، رفضت أن تسمح لنفسها فى التفكير فى الأمر. لم تستطع: فهذا يعنى الكثير، هذه المرة. وشعر ديك بالصد والخذلان بسبب انسحابها، فتوقف عن التوجه إليها بالرجاء. وسار بعناد فى طريقه، شاعرًا وكأنها قد شجعته على السباحة فى مياه أعمق مما يستطيع، ثم تركته لقدراته الخاصة.

عادت تلزم البيت، إلى الدواجن وحربها التى لا تتوقف مع الخدم. كلاهما كان يعرف أنهما يواجهان تحديًا صعبًا. وانتظرت. فى السنوات الأولى كانت تنتظر وتشتاق فى إيمان، عدا فترات يأس قصيرة،

بأن الأشياء سوف تتغير. فى وقت ما، وبما يشبه المعجزات، سيحدث شىء ما وسوف ينتصران. لقد هربت، غير قادرة على الاحتمال، وعادت بعد أن تحققت أن معجزة الحرية والانعتاق لن تحدث. والآن، مرة أخرى، عاد إليها الأمل. لكنها لن تفعل شيئًا وإنما سوف تنتظر حتى يجعل ديك الأمور تسير فى نصابها. وأثناء تلك الأشهر، عاشت مثل شخص كتب عليه أن يتحمل الحياة لفترة معينة فى بلد يكرهها: لا يقوم بوضع خطط محددة، ولكن يعتبر من المسلم به أنه بمجرد أن ينتقل إلى مكان جديد، سوف تستقر الأمور من تلقاء نفسها. لم تخطط ماذا سوف يحدث عندما يكون ديك قد صنع ثروته، ولكنها كانت تحلم حلم يقظة مستمرًا بأنها تعمل فى مكتب، سكرتيرة كفء ولا يمكن الاستغناء عنها، بنفسها فى النادى، العانس التى تحظى بشعبية وموضع ثقة البنات وأسرارهن، تحلم بنفسها مرحبًا بها فى عدد من البيوت الصديقة، أو تخرج فى رفقة رجال يعاملونها بمودة الرفيق التى كانت بسيطة وخالية من الخطر.

مر الوقت سريعًا، مندفعًا للأمام، كما يحدث فى تلك الفترات التى تظهر فيها الأزمات التى تحدث وتتطور فى كل حياة مثل تلال فى نهاية الرحلة، أشبه بحدود لعصر معين. وكما أنه ليس ثمة حدود لكمية النوم التى يمكن للجسم الإنسانى أن يتعود عليها، كانت تنام ساعات كل يوم، لكى تجعل الوقت يسرع بالمرور، لكى تبتلع مسافات طويلة منه، تستيقظ دائمًا

مع قناعة بأنها على بعد ساعات قليلة أخرى من الانعتاق. والحق أنها نادرًا ما كانت متيقظة على الإطلاق، تتحرك كما لو كانت داخل حلم من الأمل، أمل ظل يكبر ويقوى بمرور الأسابيع حتى أنها قد تستيقظ فى الصباح بإحساس بالتحرر والإثارة، كما لو كان ثمة شىء رائع سوف يحدث فى هذا اليوم بالذات.

راقبت تقدم كتلة كوخى التبغ وهما يبنيان فى منطقة البرك كما لو كانت تراقب بناء سفينة سوف تحملها بعيدًا عن المنفى. ببطء بدأ هذان الكوخان يأخذان شكلاً، فى البداية هيكل غير مستو من الحجارة، كما لو كان كومة من الأطلال؛ ثم مربعًا مقسمًا، كصندوقين مفرغين مضغوطين معًا؛ ثم بدأ وضع السقف، صفيح لامع جديد يبرق تحت ضوء الشمس وفوقه تسبح موجات الحرارة وتبرق كالجلسرين. وفوق قمة التلة، بعيدًا عن الأعين، بالقرب من الحفر العميقة الخالية للبركة، كانت الأرض يتم إعدادها للبذار عندما تأتى الأمطار وتحول قاع الوادى المتآكل بفعل الفتحات إلى جدول متدفق. مرت الشهور حتى أكتوبر، ورغم أن ذلك كان هو الوقت الذى تكرهه من السنة، عندما كانت الحرارة عدوا لدودا، فقد احتملتها بسهولة كبيرة، يدعمها الأمل. قالت لديك أن الحرارة لم تكن سيئة جدا هذا العام، وأجاب إنها لم تكن أبدًا أسوأ من ذلك، ناظرًا إليها وهو يتكلم بقلق، وحتى بارتياب. لم

يستطع أبدًا أن يفهم اعتمادها المتقلب على الجو، وموقفها العاطفى تجاهه الذى كان غريبًا بالنسبة له. فهو نفسه كان يستسلم للحرارة والبرودة والجفاف، لم يكن أىٌّ من ذلك مشكلة بالنسبة له. لقد كان مخلوقًا لكل الأجواء، ولم يكن يحارب ضدها كما كانت تفعل هى.

وفى هذه السنة شعرت بتوتر متنام فى الجو المعتم بالدخان، انتظارًا لقدوم الأمطار التى سوف تبعث نمو التبغ فى الحقول. واعتادت أن تسأل ديك بطريقة تبدو عرضية وإن لم تنطل عليه، عن محاصيل المزارعين الآخرين، وتستمع بعينين مليئين بالتوقعات إلى حكاياته المقتضبة عن كيف كسب هذا المزارع عشرة آلاف جنيه فى موسم جيد، وكيف استطاع ذلك الآخر أن يسدد جميع ديونه. وعندما يشير، رافضًا احترام تظاهرها بعدم الاهتمام، أنه ليس لديه إلا كوخين فقط للتبغ، وليس خمسة عشر أو عشرين كما لدى المزارعين الكبار، وأنه لا يتوقع أن يكسب آلاف الجنيهات، حتى لو كان الموسم جيدًا، كانت تضرب بهذا التحذير عرض الحائط. كان من الضرورى بالنسبة لها أن تحلم بنجاح فورى.

جاء موسم المطر - كانت الأمطار كافية بشكل غير معتاد - بالضبط كما ينبغى أن تأتى، واستقرت بشكل مريح ليصبح ديسمبر شهرًا مبللاً. وبدا التبغ صحيًا وأخضر ومليئًا - بالنسبة لمارى - بالوعد

عن كبريائها، وأن يأخذا أجازة مرتفعة التكاليف، وأن يشتريا سيارة جديدة، فسوف يوافق المسلفون، الذين اعتادوا مثل هؤلاء المزارعين. ولكن ديك لم يكن ليفعل هذا. ورغم أن مارى كانت تكرهه لهذا السبب، معتبرة أنه أحمق، فقد كان هذا هو الشيء الوحيد فيه الذى لا تزال تحترمه: ربما يكون فاشلا وضعيفًا، ولكن فى هذا الأمر، هذه القلعة الأخيرة لكبريائه، كان لا يتزعزع.

وذلك هو ما جعلها لا ترجوه أن يريح ضميره ويفعل مثلما يفعل الآخرون. حتى حينئذ كانت الثروات تأتى من زراعة التبغ. وبدا الأمر فى غاية السهولة. وحتى الآن، وهى تنظر إلى وجه ديك المتعب التعس عبر المنضدة: بدا الأمر سهلاً للغاية. كل ما عليه أن يفعل هو أن يقرر ويصمم. ثم؟ كان هذا هو ما يسأل عنه - ماذا سيكون عليه مستقبلهما؟

عندما فكرت فى ذلك العالم الجميل الملتف بالضباب فى المستقبل، عندما يستطيعان أن يعيشا كما يشاءان، كانت دائمًا تتخيل نفسها وقد عادت إلى المدينة، كما كانت، مع الأصدقاء الذين عرفتهم، تعيش فى نادى السيدات الشابات. لم يكن هناك مكان لديك فى الصورة. ومن ثم، فعندما كرر سؤاله، بعد صمتها الطويل المراوغ، الذى رفضت خلاله أن تنظر فى عينيه، أسكتها الشعور بأن حاجاتهما مختلفة تمامًا. دفعت الشعر مرة أخرى من فوق عينيها، وكأنها تطرد شيئًا لم تكن تريد أن تفكر فيه، وقالت، بادئة بالسؤال:

"حسنًا، لا يمكننا أن نستمر بهذه الطريقة، أليس كذلك؟"

والآن كان هناك صمت مرة أخرى. راحت تنقر على المنضدة بالقلم، وهى تديره بين أصبعها وإبهامها، مما صنع ضوضاء منتظمة جعلت عضلات جسمه تتوتر.

والآن كان الأمر متروكًا له. لقد سلمته الأمر برمته مرة أخرى، وتركته يفعل ما يستطيع. لكنها لم توضح له أى هدف ينبغى أن يضعه نصب عينيه. وبدأ يشعر بالمرارة والغضب تجاهها. بالطبع ما كانا يستطيعان الاستمرار هكذا: هل قال ذلك أبدًا؟ ألم يكن يعمل مثل زنجى ليحررهما؟ ولكن، لقد ترك عادة الحياة فى المستقبل؛ وهذا الاتجاه لديها أثار قلقه. لقد درب نفسه على أن يفكر فقط حتى الموسم القادم. كانت حدود خططه دائمًا هى الموسم القادم. إلا أنها حلقت بعيدًا متخطية كل هذا، وكانت تفكر فى الناس الآخرين، وفى حياة مختلفة - وبدونه: كان يعرف هذا، رغم أنها لم تقل ذلك. وهذا جعله يشعر بالهلع، لأنه مر وقت طويل منذ كان مع أناس آخرين لا يحتاج إليهم. كان يستمتع ببعض المحادثة من حين لآخر مع تشارلى سلاتر، ولكن لو فقد هذا المتنفس، لما اهتم. ولم يكن يشعر بأنه إنسان فاشل وعديم الجدوى إلا عندما يكون مع آخرين. لقد عاش لسنوات كثيرة مع الزنوج العاملين، يخطط لعامٍ قادم، فقد ضاقت آفاقه لتناسب حياته، ولم يكن يستطيع أن

بمستقبل الوفرة. اعتادت أن تسير حول الحقول مع ديك لمجرد الاستمتاع بالنظر إلى كثرتها وثباتها، وتفكر فى تلك الأوراق الخضراء العريضة وقد تحولت إلى شيك بمبلغ من عدة أرقام.

ثم بدأ الجفاف. فى البداية لم يكن ديك قلقًا: فالتبغ يمكن أن يتحمل فترات من الجفاف بمجرد أن يستقر النبات فى التربة. لكن يوما بعد يوم بدأت السحب الضخمة تتكوم مبتعدة، ويومًا بعد يوم أصبحت الأرض أكثر حرارة. كان ذلك بعد رأس السنة، وحتى جزء كبير من شهر يناير. أصبح ديك كئيبًا وشديد التوتر مع الضغط، ومارى صامتة بشكل لافت للنظر. ثم، فى عصر أحد الأيام، سقطت أمطار خفيفة بشكل غريب على قطعة واحدة من القطعتين المزروعتين بالتبغ. ومرة أخرى عاد الجفاف، ومرت الأسابيع دون علامة تدل على المطر. وأخيرًا، تشكلت السحب، وتجمعت، ثم تبددت. وقفت مارى وديك فى شرفتهما، ورأيا الغمامات الكبيرة تمر عابرة التلال. ثم تقدمت ستارة خفيفة من الأمطار وتراجعت على المرج؛ لكن لم تسقط على مزرعتهما، ولا لأيام عديدة بعد أن أعلن مزارعون آخرون أن محاصيلهم أنقذت جزئيًا. وفى عصر أحد الأيام حدث تساقط خفيف دافئ، قطرات ممتلئة لامعة وفى ضوء الشمس تكون قوس قزح ملأ السماء. ولكنها لم تكن كافية لترطيب الأرض العطشى. ولم ترتفع أوراق التبغ الذاوية. ثم تلا ذلك أيام من الشمس المشرقة.

قال ديك، وقد ملأ الكدر وجهه: "حسنًا، يبدو أن الوقت قد تأخر جدًا على أية حال". لكنه كان لا يزال يأمل أن الحقل الذى لحقته الأمطار الأولى سوف يعيش. وبحلول الوقت الذى سقطت فيه الأمطار كما يجب، كان معظم التبغ قد دمر: ولكن سوف يكون هناك القليل. واستطاعت بعض الذرة أن تستمر: لكنها لن تغطى التكاليف هذا العام. شرح ديك كل هذا لمارى بهدوء، بتعبير يدل على المعاناة. ولكن فى نفس الوقت رأت هى بعض الارتياح على وجهه. كان ذلك لأن الفشل لم يكن مبنيًا على أى خطأ من جانبه. كان سوء الحظ هو المسئول الأول والأخير والذى يمكن أن يحدث لأى أحد: لا يمكنها أن تلومه على هذا.

ذات مساء ناقشا الأحوال. قال إنه طلب قرضًا جديدًا لإنقاذهما من الإفلاس، وأنه فى العام القادم لن يعتمد على التبغ. فهو يفضل ألا يزرع منه شيئًا؛ ولكنه سوف يزرع البعض إن أصرت هى. وإذا أصابهما فشل آخر مثل هذا العام، فسوف يعنى الإفلاس بكل تأكيد.

وفى محاولة أخيرة، ناشدته مارى أن يحاول لسنة أخرى؛ فلا يمكن أن يمنيا بفصلين سيئين متتاليين. وحتى بالنسبة له، "يونان" (أجبرت نفسها على استخدام هذا الاسم له، فى محاولة لجلب ضحكة متعاطفة)، سوف يكون من المستحيل أن يأتى فصلان سيئان متتاليان. وعلى أية حال، لماذا لا يدخل فى الدين بشكل لائق؟ فمقارنة ببعض الآخرين، الذين

بلغت ديونهم الآلاف، يمكن اعتبارهما غير مديونين على الإطلاق. فإذا كانا سيفشلان، فليكن فشلاً ذريعًا، فى محاولة حقيقية لعمل شىء طيب. فليبنيا اثنى عشر كوخًا أخرى، وليزرعا كل الأرض التى لديهما بالتبغ، وليخاطرا بكل شىء فى محاولة أخيرة. لم لا؟ لماذا ينبغى أن يكون لديه ضمير بينما الجميع ليس لديهم ضمير؟

لكنها رأت على وجهه نفس التعبير الذى رأته من قبل، عندما توسلت إليه أن يخرجا فى إجازة لاستعادة صحتهما. كانت نظرة خوف كئيب جمدت الدم فى عروقها. قال أخيرًا: "لن أحصل على بنس واحد أكثر من الدين الذى أستطيع سداده، ليس من أجل أى شخص". وكان عنيدًا بفظاظة لم تستطع أن تحركه معها.

فى العام التالى، ماذا إذًا؟

قال إنه لو كان عامًا طيبًا، وكل المحاصيل سارت بشكل طيب، ولم يحدث هبوط فى الأسعار، ونجح التبغ، يمكن أن يستعيدا ما خسراه فى هذا العام. بل وربما يعنى ذلك ما هو أكثر قليلاً. من يعلم؟ قد يتغير حظه. لكنه لم يكن ينوى أن يخاطر بكل شىء على محصول واحد مرة أخرى حتى ينتهى من سداد كل ديونه. قال بوجه غائم إنهما لو أفلسا فسوف تضيع المزرعة عليهما! أجابت. رغم أنها كانت تعرف أن هذا هو أشد ما يجرحه. بأنها ستكون سعيدة إن حدث

ذلك: وفى هذه الحالة سيجبران على فعل شىء قوى لإعالة نفسيهما؛ وأن السبب الحقيقى الذى يجعله متطامنًا هو أنه يعرف دائمًا أنه حتى لو وصلا إلى حافة الإفلاس، فيمكنهما أن يعيشا على ما يزرعانه وعلى ذبح ما يملكانه من حيوانات.

إن أزمات الأفراد، مثل أزمات الأمم، لا ينتبه إليها صاحب الأزمة حتى تنتهى. عندما سمعت مارى تلك العبارة المرعبة "العام القادم" من المزارع المكافح، شعرت بالمرض؛ لكن الأمل الواهى الذى كانت تعيش عليه استمر لبضعة أيام قبل أن يموت، وشعرت بما ينتظرها. الوقت، الذى كانت تعيش خلاله نصف واعية، وقد تركز عقلها فى المستقبل، فجأة طال أمامها. "العام القادم" قد يعنى أى شىء. قد يعنى فشلاً آخر. وقد يعنى مجرد استرداد جزئى بكل تأكيد. لن يتم الحصول على معجزة الإنقاذ. لن يتغير شىء: فلم يحدث أن تغير شىء أبدًا.

دهش ديك عندما لم يبد عليها إلا القليل جدًا من علامات خيبة الأمل. كان يعد نفسه لمواجهة عواصف من الغضب والدموع. ومع العادة على مر السنوات، كان قد كيف نفسه على فكرة "العام القادم"، وبدأ يخطط بناء على ذلك. وحيث لم يكن ثمة علامات تشير مباشرة إلى اليأس من جانب مارى، توقف عن البحث عن مثل هذه العلامات: من الواضح أن الضربة لم تكن قوية كما ظن أنها ستكون.

لكن تأثيرات الصدمات القاتلة لا تظهر إلا ببطء. وقد مضى بعض الوقت قبل أن تختفى لديها الموجات القوية من التطلع والأمل التى كان يبدو أنها تبزغ من أعماق نفسها، تخرج من منطقة فى عقلها، منطقة لم تسمع بعد بأخبار فشل التبغ. وقد استغرق الأمر وقتا طويلا حتى تكيف كيانها كله على ما علمت أنه الحقيقة الواقعة: سوف تكون هناك سنوات، قبل أن يتمكنا من مغادرة هذه المزرعة، هذا إن غادراها أبدًا.

ثم تلا ذلك وقت من البؤس الكئيب: ليست تلك النوبات الحادة من التعاسة التى كانت تهاجمها قبلاً. الآن كانت تشعر وكأن جوفها يتحول إلى شىء ناعم، كما لو كان نوعا من العفن يهاجم عظامها.

ذلك أنه حتى أحلام اليقظة بحاجة إلى عنصر الأمل لتمنح الحالم بعض الإشباع. كانت توقف نفسها فى وسط أحد خيالاتها المعتادة حول الأيام الخوالى، التى راحت تتخيلها فى مستقبلها، قائلة بكآبة لنفسها أنه لن يكون هناك مستقبل. ليس هناك شىء. لا شىء. خواء.

منذ خمس سنوات كانت تخدر نفسها بقراءة الروايات الرومانتيكية. فى المدن، النساء من مثلها يعشن حياة بديلة فى حيوات بطلات السينما. أو يلجأن إلى الدين، خاصة تدينًا من النوع الشرقى الحسى. وإذا كانت متعلمة بشكل أفضل فإن الحياة فى المدينة معناها القدرة على الحصول على كتب،

ربما تجد كتبًا لشاعر مثل طاغور، وتدخل فى أحلام حلوة تحت تأثير الكلمات.

وبدلاً من ذلك، فكرت بشكل مبهم أنها لابد أن يكون لديها ما تفعله. هل ينبغى أن تزيد من عدد دواجنها؟ هل تمتهن الخياطة؟ ولكنها شعرت بأنها مخدرة ومتعبة، وغير مهتمة. فكرت أنه عندما يأتى فصل البرد التالى ويدفعها إلى الحياة مرة أخرى، فلسوف تفعل "شيئًا". أجَّلت الأمر: لقد كان تأثير المزرعة عليها قد بدأ يصبح نفس تأثيرها على ديك؛ كانت تفكر بطريقة الموسم القادم.

كان ديك يعمل بأشد ما يستطيع فى المزرعة، واكتشفت أخيرًا أنها كانت تبدو متعبة للغاية، بنظرة منتفخة غريبة حول عينيها، ورقع من الاحمرار على خديها. كانت تبدو فى صحة معتلة بالفعل. سألها إن كانت تشعر بأنها مريضة. فأجابت إنها تشعر بذلك، وكأنها تدرك الأمر الآن فقط. كانت تعانى من صداع عنيف، ومن حالة تراخ وكسل هائل وهو ما قد يعنى أنها مريضة. ولاحظ أنها بدا عليها السرور عندما فكرت أن المرض قد يكون هو السبب.

اقترح أن تذهب إلى المدينة وتبقى هناك مع بعض أصدقائها حيث إنه لا يملك أن يرسلها لقضاء إجازة. ظهر عليها الرعب. كانت فكرة مقابلة الناس، وخاصة أولئك الناس الذين كانوا يعرفونها عندما كانت شابة وسعيدة، هذه الفكرة جعلتها تشعر بأنها

قد سلخ جلدها كله، وأصبحت أطرافها العصبية مكشوفة على سطح منكمش منقبض.

عاد ديك إلى العمل وهو يهز كتفيه لعنادها، آملاً أن يمر مرضها سريعًا.

كانت مارى تقضى أيامها متحركة بلا راحة فى البيت، وتجد صعوبة فى الجلوس ساكنة. وفى الليل كانت تنام نومًا قلقًا. لم يكن الطعام يصيبها بالغثيان، لكن بدا أن تناول الطعام جهد كبير جدًا. وكانت تشعر طوال الوقت وكأن هناك لفة من الخيط القطنى السميك داخل رأسها، وبعض الضغط الناعم الكئيب عليه من الخارج. كانت تقوم بعملها فى البيت بشكل آلى، تعتنى بدجاجاتها وبالدكان، وتحافظ على استمرار الأشياء المعتادة. وأثناء هذا الوقت لم تنغمس أبدًا فى نوبات الغضب القديمة ضد خادمها. وكأن هذه العواصف المفاجئة كانت فى الماضى من الغضب نوعًا من التنفيس عن قوة مختزنة، وباستنفاد هذه القوة، لم تعد ثمة ضرورة لهذه النوبات. ولكنها كانت لا تزال تتذمر باستمرار: فقد أصبحت هذه عادة، ولم تعد قادرة على التحدث إلى أحد المواطنين دون أن يتوتر صوتها.

وبعد قليل، حتى شعورها بعدم القدرة على الاستقرار اختفى. كانت تجلس لساعات كل مرة على الأريكة القديمة القذرة والستائر القطنية الباهتة تهفهف فوق رأسها، وكأنها كانت فى حالة غيبوبة. كان

يبدو أن هناك شيئًا أخيرًا قد تحرك داخلها، ثم تهدأ تدريجيًا وتغرق فى الظلام.

لكن ديك ظن أنها تتحسن.

وحتى يوم جاءته بنظرة جديدة على وجهها، نظرة يائسة شاردة، لم يرها أبدًا من قبل، وسألت إن كان يمكن لهما أن ينجبا طفلاً. أسعده ذلك: لقد كانت أعظم سعادة نالها منها لأنها طلبت ذلك، من نفسها، ومالت إليه، هكذا فكر. وفكر أنها تميل إليه أخيرًا، وتعبر عن ذلك بهذه الطريقة. كان سعيدًا للغاية، امتلأ بفرح جاد، حتى أنه للحظة كاد يوافق. فهذا هو أقصى ما يريد. وكان لا يزال يحلم بأنه فى يوم من الأيام "عندما تتحسن الأحوال"، سوف يكون بإمكانهما إنجاب أطفال. ثم عاد وجهه يكتئب ويتوتر، وقال: "مارى، كيف يمكن أن ننجب أطفالاً؟"

"الآخرون ينجبون، وهم فقراء".

"لكن يا مارى، إنك لا تعرفين إلى أى مدى نحن فقراء"

"بالطبع أعرف. لكنى لا أستطيع الاستمرار هكذا. لابد أن يكون لدى شىء. أنا ليس لدى أى شىء لأفعله".

رأى أنها ترغب فى طفل من أجل نفسها هى، وأنه لا يزال لا يعنى شيئًا بالنسبة لها، ليس فى الواقع أبدًا. وأجاب بعناد أنها ليس عليها سوى أن تنظر

حولها لترى ما يحدث للأطفال الذين يتربون مثلما يمكن أن يتربى أطفالهما.

سألت بشكل مبهم: "أين؟"، وهى تنظر فعليًا حولها فى الغرفة وكأن هؤلاء الأطفال التعساء يمكن رؤيتهم هنا، فى بيتهما.

تذكر أنها تعيش فى عزلة شديدة، لم تصبح أبدًا جزءًا من الحياة فى المنطقة. لكن هذا أصابه بالمزيد من التوتر. لقد مرت سنوات قبل أن تتحرك لتعرف شيئًا عن المزرعة، وبعد كل هذا الوقت لا تزال لا تعرف كيف يعيش الناس حولهما. إنها بالكاد تعرف أسماء جيرانهما. "هل رأيت أبناء دوتشمان؟"

"أى دوتشمان؟"

"مساعد تشارلى. ثلاثة عشر طفلاً! ويعيشون على اثنى عشر جنيهًا فى الشهر. سلاتر يعامله بخشونة بالغة. ثلاثة عشر طفلاً! يجرون فى كل مكان مثل الجراء الصغيرة، فى أسمال بالية، ويعيشون على القرع ووجبات الذرة مثل الكفيريين. ولا يذهبون إلى المدرسة..."

أصرت مارى، بصوت ضعيف وخال من التعبير "طفل واحد فقط؟"

كان ذلك نوعًا من التذمر والشكوى. كانت تشعر أنها بحاجة إلى طفل واحد لينقذها من نفسها. لقد استغرقت أسابيع من اليأس البطيء لتصل إلى هذه

النقطة. كانت تكره فكرة أن يكون لديها طفل، لكنها فكرت فى ضعفه، واعتماده، والفوضى، والقلق. لكن ذلك سوف يجعل لديها ما تفعله. إن وصول الأمور إلى هذا المستوى بالنسبة لها كان أمرًا غير عادى؛ إنها هى التى تتوسل إلى ديك لتنجب طفلاً، بينما كانت تعرف أنه يشتاق إلى الأطفال، وأنها تكرههم. ولكن بعد التفكير فى طفل خلال هذه الأسابيع اليائسة، بدأت تتمسك بالفكرة. لن يكون الأمر سيئًا جدًا. سوف يكون لها صحبة. فكرت فى نفسها وهى طفلة، وأمها؛ وبدأت تفهم كيف كانت أمها تلتصق بها، وتستخدمها كصمام أمان. لقد كانت تنتسب إلى أمها، تلتصق بذكراها بمودة شديدة وتشعر بالشفقة نحوها بعد كل هذه السنوات، بدأت تفهم الآن بعض ما كانت تشعر به حقًا وبعض ما كانت تعانيه. رأت نفسها، تلك الطفلة الصامتة، عارية الساقين، عارية الرأس، وهى تنتقل جيئة وذهابًا من حظيرة الدجاج، بجوار أمها، ترتعش فى وقت واحد بالحب والشفقة عليها، والكراهية لأبيها؛ وتخيلت طفلها هى، طفلة صغيرة، تواسيها كما كانت هى تواسى أمها. لم تفكر فى هذا الطفل كرضيع صغير؛ كانت تلك مرحلة عليها أن تتخطاها بأسرع ما يمكن. لا، كانت تريد فتاة صغيرة كرفيق؛ ورفضت أن تفكر فى أن الطفل قد يكون ولدًا على أية حال.

لكن ديك قال: "وماذا عن المدرسة؟" .

قالت مارى بغضب: "ماذا عنها؟"

"كيف سندفع مصروفات المدرسة؟"

"ليس ثمة مصروفات مدرسية، والداى لم يكونا يدفعان أية مصروفات".

"هناك مصروفات الإقامة، والكتب، وثمن التدريبات والملابس، هل ستأتى النقود من السماء؟"

"يمكننا طلب منحة حكومية".

قال ديك بحدة: "لا، لن يحدث هذا أبدًا! لقد اكتفيت من الذهاب وقبعتى فى يدى إلى مكاتب الرجال البدينين، سائلاً نقودًا، بينما يجلسون هم على أعجازهم السمينة وينظرون من تحت أنوفهم. إعانة! لن أفعل هذا. لن يكون لدى طفل يكبر ليعلم أننى لا أستطيع أن أفعل شيئًا له. ليس فى هذا البيت. وليس ونحن نعيش بهذه الطريقة".

قالت مارى متجهمة: "لا بأس بالنسبة لى أن أعيش بهذه الطريقة، على ما أظن".

قال ديك: "كان ينبغى أن تفكرى فى ذلك قبل أن تتزوجينى". وانفجرت مارى فى غضب بسبب ظلمه القاسى. أو الأحرى أنها كادت تنفجر غاضبة. احمر وجهها كلون اللحم، وبرقت عيناها. ثم تراجعت مرة أخرى، تلف يديها المرتعشتين على بعضهما، مغلقة عينيها. اختفى الغضب: كانت تشعر بأنها متعبة للغاية بحيث لا تستطيع أن تغضب غضبًا حقيقيًا. وقالت بتعب: "إننى على وشك أن أبلغ الأربعين. ألا ترى أنه

سرعان ما سوف أكون غير قادرة على إنجاب طفل على الإطلاق؟ ليس ونحن مستمرون بهذه الطريقة".

قال بعناد وإصرار: "ليس الآن". وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى ذكر فيها طفل. كانت تعرف جيداً كما كان يعرف، أنه كان من الغباء حقّاً، وديك على ما هو عليه، أن يستخدم كبرياءه لكى لا يقترض كملجأ أخير لاحترام ذاته.

وفيما بعد، عندما رأى أنها انسحبت إلى تلك الحالة المرعبة من اللامبالاة، توجه إليها متوسلا مرة أخرى: "مارى، من فضلك تعالى إلى المزرعة معى. لم لا؟ يمكننا أن نفعل هذا معًا".

"إننى أكره مزرعتك"، قالت ذلك بصوت متباعد جاف، وأضافت: "إننى أكرهها، ولا أريد أن يكون لى أى شأن بها".

لكنها بذلت المجهود المطلوب، رغم شعورها بعدم المبالاة. كان الأمر سيان بالنسبة لها. لبضعة أسابيع كانت تصحب ديك فى كل مكان يذهب إليه، وحاولت أن تدعمه بوجودها. وملأها ذلك باليأس أكثر من أى وقت مضى. كان كل شىء عقيمًا، لا أمل. رأت بوضوح ما هى المشكلة معه، ومع المزرعة، ولم تستطع أن تفعل شيئًا لمساعدته. لقد كان شديد العناد. كان يطلب منها النصيحة، وتبدو عليه فرحة صبيانية عندما تمسك بوسادة وتجرجر نفسها خلفه إلى الأرض؛ ولكن، عندما كانت تقترح عليه أى شىء، كان وجهه ينغلق فى عناد قاتم، ويبدأ فى الدفاع عن نفسه.

تلك الأسابيع كانت مرعبة بالنسبة لمارى. ذلك الوقت القصير، كانت تنظر إلى كل شىء أمامها، دون أوهام، ترى نفسها وترى ديك وترى علاقتهما ببعضهما البعض وبالمزرعة، وترى مستقبلهما، دون أى ظل من أمل زائف، بصدق وصراحة كالحقيقة نفسها. وعرفت أنها لن تستطيع أن تتحمل هذه الرؤية الواضحة المحزنة طويلاً؛ كان هذا أيضًا جزءًا من الحقيقة. وفى حالة من المرارة ولكن مع رؤية واضحة حالمة، تبعت ديك فى كل مكان، وفى النهاية قالت لنفسها أنها ينبغى أن تتخلى عن الاقتراحات وعن محاولة أن تجعله يسترد وعيه. كان الأمر بلا جدوى.

ولجأت إلى تفكير رقيق غير متعاطف فى ديك نفسه. كان من دواعى سرورها أن تبعد المرارة والكراهية الموجهة داخلها ضده، وأن تفكر فيه من وجهة نظر أمومية، برغبة فى حمايته، واعتبار لضعفه ولأصولهما، وهو ما لم يكن مسئولا عنه. اعتادت أن تأخذ وسادتها إلى الركن تحت الشجيرة، فى الظل، وتجلس على الأرض وقد لمت تنورتها حول ساقيها جيدا لتتفادى حشرات القرادة وهى تزحف من الحشائش، وتفكر فى ديك. رأته واقفًا وسط الأرض الكبيرة الحمراء، متوازنًا بين كتل التراب الضخمة شخصا لا أهمية له، شخصا تافها، بقبعته القش الكبيرة وثيابه المترهلة. وتساءلت كيف أصبح الناس يولدون دون ذلك الخيط من العزيمة، ذلك القليل من الحديد الذى يطرق الشخصية معًا. كان ديك لطيفًا

جداً. لطيفا جدا! قالت لنفسها ذلك بتعب. كان شديد التهذيب؛ لم يكن هناك ما هو قبيح فيه. وكانت تعرف، جيداً جداً، عندما جعلت نفسها تواجه الأمر (الذى كانت قادرة على فعله، فى هذه الحالة من الإشفاق غير المتعاطف)، ما أطول المهانة التى عاناها بسببها، كرجل. إلا أنه لم يحاول أبداً إهانتها: كان يفقد أعصابه، نعم، لكنه لم يحاول أن يتماسك. كان لطيفا للغاية! لكنه كان ممزقاً. كان يفتقد ذلك الشىء الذى ينبغى أن يجعله متماسكا. وهل كان دائماً هكذا؟ الحق أنها لم تكن تعرف. كان ما تعرفه عنه قليلاً جدا. كان والداه متوفيين؛ وكان طفلهما الوحيد. تربى فى مكان ما من ضواحى جوهانسبرج، ورغم أنه لم يقل لها شيئاً، فقد خمنت أن طفولته كانت أقل سوءا من طفولتها، مع أنها كانت صعبة ومحدودة. كان قد قال غاضباً أن والدته عانت الكثير فى طفولته؛ وجعلتها هذه الملاحظة تشعر بالتقارب معه، لأنه كان يحب أمه ويزدرى أباه. وعندما كبر حاول أن يمارس عدة مهن. كان كاتباً فى مكتب بريد، وعمل شيئاً ما فى السكك الحديدية، وأخيراً كان يعمل لدى البلدية مفتشا على عدادات المياه. ثم قرر أن يصبح طبيبا بيطريا. درس لمدة ثلاثة أشهر، واكتشف أنه لن يتمكن من ذلك؛ وفى نزوة، جاء إلى روديسيا الجنوبية ليصبح مزارعا، وليعيش "حياته الخاصة".

وهكذا، أصبح هذا الرجل، اليائس، المهذب، يقف على تربته "الخاصة"، التى تنتمى إلى آخر حبة رمل

للحكومة، يراقب الزنوج وهم يعملون له، بينما جلست هى فى الظل تنظر إليه، وهى تعلم جيدًا أنه مكتوب عليه هذا المصير: لم تكن لديه أية فرصة أبدًا. ولكن حتى فى هذا الوقت، بدا مستحيلاً بالنسبة لها أن يكون مثل هذا الرجل الطيب فاشلاً تماما. وكانت تقوم من فوق الوسادة، وتسير إليه، وقد قررت أن تحاول محاولة أخيرة.

قالت فى أحد الأيام برقة، ولكن بحزم: "انظر يا ديك، لدى فكرة. فى العام القادم لماذا لا تحاول قطع أشجار مائة إيكر أخرى، وتزرع محصولاً كبيرًا فعلا، كله ذرة. ازرع ذرة فى كل إيكر لديك، بدلاً من كل تلك المحاصيل الصغيرة".

"وماذا لو كان الموسم سيئًا بالنسبة للذرة؟"

هزت كتفيها: "لا يبدو أنك تصل إلى أى شىء بهذه الطريقة".

وهنا، احمرت عيناه، وتصلب وجهه، وأصبح الخطان العميقان اللذان يصلان من عظمتى وجنتيه إلى ذقنه أكثر عمقًا.

وصرخ فيها: "ماذا أستطيع أن أفعل أكثر مما أفعل؟ وكيف أستطيع أن أقطع أشجار مائة إيكر أخرى؟ هذه الطريقة التى تتكلمين بها! من أين أحصل على العمالة؟ إننى ليست لدى عمالة كافية لفعل ما ينبغى فعله الآن. لم يعد بإمكانى شراء المزيد من الزنوج بخمسة جنيهات للرأس. لابد أن أعتمد على

العمالة التطوعية. ولم يعد هناك المزيد منها. إنك أحد أسباب ذلك. لقد جعلتنى أفقد عشرين من أفضل أولادى، ولن يعودوا أبدًا. وهم هناك فى مكان آخر يعطون فكرة سيئة عن مزرعتى، فى هذه اللحظة، بسبب طبعك اللعين. ولن يأتوا إلى الآن كما كانوا يفعلون من قبل. لا، إنهم يذهبون جميعًا إلى المدن حيث يتسكعون بلا عمل".

وهنا، جرفه هذا الحزن المعتاد، وبدأ يصب جام غضبه على الحكومة، التى كانت تحت نفوذ محبى الزنوج من إنجلترا، ولا تجبر الزنوج على العمل فى الأرض، ولن ترسل سيارات اللورى والجنود لإعادتهم إلى المزارعين بالقوة. الحكومة لم تفهم أبدًا مصاعب المزارعين! أبدًا! وصب جام غضبه على الأهالى أنفسهم، الذين يرفضون العمل كما يجب، الذين كانوا وقحين. وهكذا. تحدث وتحدث، فى صوت ملتهب، غاضب، مرير، صوت المزارع الأبيض، الذى يبدو كما لو كان يناضل ضد الحكومة، بقوة لا تتزعزع كالسماوات والفصول نفسها. ولكن، فى هذه العاصفة من الغضب، نسى كل شىء عن خططه للعام القادم. وعاد إلى البيت مشغولاً ويشعر بالمرارة، وصب غضبه على الخادم، الذى كان يمثل بشكل مؤقت جنس الأهالى، الجنس الذى كان يعذبه عذابًا يفوق الاحتمال.

شعرت مارى بالقلق هذه المرة، بقدر ما يمكنها أن تشعر بالقلق فى حالة الخدر التى تعانى منها. كان

يعود إليها فى الغروب متعبًا ومتوترًا، يجلس فى مقعد يدخن بلا توقف. ولكن الآن أصبح يشعل سيجارة من الأخرى، رغم أنه كان يدخن السجائر الوطنية التى كانت أرخص ثمنا، ولكنها كانت تسبب له سعالاً مستمرًا، وتلوث أصابعه حتى مفاصلها الوسطى بلون أصفر. كان يتململ ويهتز فى المقعد، وكأن أعصابه لن تهدأ أبدًا. ثم، أخيرًا، يتراخى جسده، ويرقد منهكا، منتظرا العشاء ليتمكن من الذهاب إلى الفراش أخيرا وينام.

ولكن الخادم كان يدخل ويقول إن هناك أولادًا من المزرعة ينتظرون رؤيته، من أجل الحصول على إذن للذهاب لزيارة أو شىء من هذا النوع، وكانت مارى ترى تلك النظرة المتوترة تعود إلى وجه ديك، والقلق المتفجر لأطرافه. وبدا أنه لم يعد يستطيع احتمال الأهالى أكثر من ذلك، وكان يزعق فى الخادم أن يخرج ويتركه وحده، ويخبر أهالى المزرعة الملعونين أن يعودوا إلى المجمع. ولكن بعد نصف ساعة كان الخادم يعود، قائلاً بصبر مثيرًا توتر ديك أكثر، إن الأولاد لا يزالون منتظرين. وكان ديك يسحق عقب السيجارة الذى فى يده، ويشعل أخرى فورا، ويخرج، وهو يزعق بأعلى صوته.

اعتادت مارى أن تسمع، وقد توترت أعصابها. ورغم أن هذه الحالة من السخط كانت مألوفة تماما بالنسبة لها، فقد كان يضايقها أن تراه فيها. كانت هذه الحالة تزيد من توترها بشدة، وقد تلجأ إلى

السخرية عندما يعود، وتقول له: "إن لك متاعبك مع الزنوج ، ولكن ليس مسموحًا لى بذلك".

وكان يقول، فى غضب جامح ناظرًا إليها بعينين متقدتين معذبتين: "أقول لك إننى لم أعد أستطيع احتمالهم أكثر من ذلك". ثم ينهار فى مقعده وهو يهتز من رأسه إلى أخمص قدميه.

ولكن، على الرغم من هذا الغضب العنيف النابع من الكراهية، كانت تشعر بالاضطراب عندما تراه يتحدث مع رئيس عماله فى المزرعة. كانت تفكر بقلق مستمر فى أنه يبدو أنه يتحول إلى طباع الزنوج هو نفسه. كان يمسح أنفه بأصابعه ثم يمسحها فى شجرة، بنفس الطريقة التى يفعلونها؛ وكان يبدو وهو واقف بينهم واحدًا منهم؛ حتى لونه لم يكن يختلف كثيرًا، فقد اكتسبت بشرته لونًا بنيًا داكنا تحت الشمس المحرقة، وبدا أنه يكبح نفسه بنفس الطريقة. وعندما كان يضحك معهم، ملقيا بنكتة ما ليجعلهم فى حالة معنوية مرتفعة، كان يذهب إلى مدى بعيد فى نكات خشنة فجة كانت تصيبها بصدمة. وماذا ستكون نهاية كل ذلك؟ كانت تتساءل فى نفسها، ثم يستولى عليها تعب هائل، وتفكر بكآبة: "وما أهمية ذلك، على أية حال؟"

وفى النهاية قالت له إنها لا ترى فائدة من قضاء كل وقتها جالسة تحت شجرة والقرادة تزحف على ساقيها من أجل أن تشاهده، خاصة وهو لا يلاحظ وجودها.

"ولكن، يا مارى، أنا أحب وجودك هناك".

"حسنًا، لقد نلت كفايتى من ذلك".

وتراجعت إلى عاداتها السابقة، وتوقفت عن التفكير فى المزرعة. المزرعة هى المكان الذى يعود منه ديك من أجل أن يأكل وينام.

والآن استسلمت. أصبحت تقضى اليوم كله جالسة بتكاسل على الأريكة وعيناها مغلقتان، تشعر بالحرارة تضرب مخها. كانت عطشى، لكن بذل مجهود لإحضار كوب من الماء أو لمناداة الولد لإحضارها لها بدا أكثر مما تطيق. كانت ترغب فى النوم، ولكن أن تقوم من مكان جلوسها وتطلع فوق السرير مجهود مهلك. كانت تنام فى مكانها. وتشعر بأن قدميها ثقيلتان جدا عليها وهى تمشى. ولكى تقول عبارة كان مجهودا هائلا. كانت لا تتحدث لأحد لأسابيع طويلة سوى ديك والخادم، وحتى ديك كانت تراه لخمس دقائق فى الصباح ولنصف ساعة فى الليل، قبل أن يلجأ مجهدا إلى الفراش.

تحركت السنة خلال الشهور الباردة المشرقة نحو الحرارة؛ وكلما تقدمت ساقت الريح أمطارا من التراب الناعم داخل البيت، وأصبحت الأسطح خشنة الملمس؛ وارتفعت فى الأراضى تحت البيت شياطين التراب الحلزونية، تاركة حطامًا لامعًا من الحشائش وقشور الذرة معلقة فى الهواء كالهباء. فكرت فى الحرارة القادمة بفزع، ولكنها لم تكن قادرة على استجماع

طاقة كافية لمحاربتها. شعرت وكأن لمسة قد تفقدها توازنها وتحولها إلى لاشىء؛ وفكرت فى الظلام الكامل التام باشتياق. أغلقت عينيها، وتخيلت السماء خالية وباردة، لا يخفف من ظلامها حتى النجوم.

وفى هذا الوقت، عندما كان أى تأثير قد يوجهها إلى طريق جديد، عندما كان كيانها كله فى وضع، إن جاز القول، انتظار شىء أن يدفعها إلى طريق أو آخر، فى هذا الوقت، طلب خادمها أن يترك الخدمة، مرة أخرى. هذه المرة لم يكن ثمة شجار على طبق مكسور أو آنية لم تغسل جيدا: ببساطة، كان يريد العودة إلى قريته؛ وكانت مارى فى حالة من عدم المبالاة الشديدة تمنعها من المناقشة. وغادر، بعد أن أحضر فى مكانه أحد الأهالى، والذى وجدته مارى لا يطاق لدرجة أنها صرفته بعد ساعة واحدة من العمل. وظلت بلا خادم لفترة. وفى هذه المرة لم تحاول أن تفعل أكثر من الأشياء الضرورية جدًا. تركت الأرضيات دون نظافة، وكانا يأكلان أطعمة معلبة. ولم يظهر خادم جديد. لقد انتشرت لمارى سمعة سيئة بينهم حتى أنه أصبح من الصعب بشكل متزايد بمرور الوقت أن تجد خادمًا بدلا ممن يرحل.

كان ديك غير قادر على تحمل القذارة والأكل السىء أكثر من ذلك، فقال إنه سوف يحضر واحدًا من أهالى المزرعة لتدريبه كخادم للمنزل. وعندما جاء الرجل إلى الباب، عرفته مارى، إنه الرجل الذى ضربته بالكرباج على وجهه منذ عامين. ورأت أثر

الجرح على خده، خط رفيع أكثر قتامة على البشرة السوداء. وقفت مترددة على الباب، بينما كان ينتظر بالخارج، وعيناه تنظران إلى الأسفل. لكن فكرة إعادته إلى المزرعة وانتظار أن يتم إرسال شخص آخر... حتى هذا التأجيل أشعرها بالتعب. وطلبت منه أن يدخل.

فى ذلك الصباح، بسبب نوع من المانع الداخلى، لم تحاول أن تشرح، لم تستطع أن تعمل معه كما كانت عادتها دائمًا فى هذه المناسبات. تركته وحده فى المطبخ؛ وعندما عاد ديك، قالت: "أليس هناك خادم آخر يصلح؟"

دون أن ينظر إليها، وبينما يأكل كما كان يفعل دائما فى تلك الأيام، يزدرد كميات كبيرة فى كل جرعة، قال: "إنه أفضل من يمكن أن أجده. لماذا؟" وبدا فى حالة عدائية.

لم تكن قد أخبرته أبدا عن حادثة الكرباج، خوفًا من غضبه. قالت: "إنه لا يبدو نوعًا جيدًا جدًا بالنسبة لى". وبينما تتكلم، رأت تلك النظرة الساخطة تنمو على وجهه، وأضافت بسرعة: "لكنه سوف يؤدى المهمة، على ما أفترض".

قال ديك: "إنه شخص نظيف ومطواع. إنه من أفضل الأولاد الذين عملوا لدى على الإطلاق. ماذا تريدين أكثر من ذلك؟" كان يتحدث بفظاظة تكاد تقترب من التوحش. وبدون إضافة أية كلمة أخرى، خرج. وبقى الخادم.

بدأت النظام المعتاد من التعليمات، بصوت بارد ومنهجي كما هي دائمًا، ولكن مع فرق. لم تكن قادرة على معاملة هذا الولد كما كانت تتعامل مع كل الآخرين، فدائما، في خلفية ذهنها، كانت هناك تلك اللحظة من الخوف التي عرفتها بعد أن ضربته مباشرة وظنت أنه سوف يهاجمها. كانت تشعر بالقلق في حضوره. لكن سلوكه كان نفس السلوك المعتاد مثل كل الآخرين؛ لم يكن هناك ما يوحي بأنه يتذكر الحادثة. كان صامتا، مذعنا، وصبورا أمام سيل الشروح والأوامر. وظل يحتفظ بعينيه منخفضتين دوما، وكأنه يخشى النظر إليها. لكنها لم تكن تستطيع أن تنسى، حتى لو نسي هو؛ وكان ثمة فارق دقيق في الطريقة التي تحدثت بها إليه. كانت شديدة الموضوعية والتجرد، بقدر ما تعرف كيف تفعل ذلك؛ شديدة الموضوعية لدرجة أن صوتها كان متحررًا، لفترة، حتى من نغمة التوتر الخفيفة.

اعتادت أن تجلس ساكنة تماما، تراقبه يعمل. لقد سحرها الجسد القوي عريض البنية. كانت قد أعطته سروالا قصيرًا وقميصًا أبيضين لارتدائهما في البيت، كان يستخدمهما خدمها السابقين. لكنهما كانا صغيرين جدًا عليه؛ وبينما كان يكنس أو ينظف الأرضية أو ينحني أمام الموقد، كانت عضلاته تنتفخ وتملأ القماش الرقيق للأكمام حتى بدا أنها سوف تتفتق. كان يبدو أطول وأعرض حتى من ذي قبل بسبب ضيق حيز المنزل.

كان عاملاً جيدًا، من أفضل من عملوا لديها. واعتادت أن تدور خلفه محاولة أن تجد أشياء تركها دون أن يعملها، لكن نادرا ما وجدت. ومن ثم، بعد فترة، أصبحت معتادة عليه، وبهتت ذكرى ذلك الكرباج ينزل على وجهه. كانت تعامله كما لو كان من الطبيعى بالنسبة إليها أن تتعامل مع الزنوج، وبدأ صوتها يزداد حدة وتوترا. لكنه لم يكن يرد عليها، وكان كثيرا ما يتقبل توبيخها الظالم دون حتى أن يرفع عينيه عن الأرض. ربما كان قد قرر أن يصبح حياديا بقدر ما يعرف كيف يفعل ذلك.

وهكذا استمر الحال، كل شىء فى الظاهر كما يجب، نظام جيد قد ترسخ مما ترك لها الحرية فى ألا تفعل شيئا. لكنها لم تكن لا مبالية تماما كما كانت قبلا.

فى العاشرة صباحًا، بعد أن يحضر لها الشاى، كان يخرج خلف حظائر الدجاج تحت شجرة كبيرة، حاملا صفيحة من المياه الساخنة، ومن المنزل كانت أحيانًا تلمحه ينحنى فوقها، يخلع ثيابه، عاريًا من وسطه إلى الأعلى. لكنها حاولت ألا تكون موجودة فى وقت حمامه. وبعد أن ينتهى ذلك، كان يعود إلى المطبخ ويظل هادئًا، مستندًا إلى الجدار الخلفى فى الشمس، يفكر فى لاشىء كما يبدو. ربما يكون نائمًا. وحتى يأتى موعد إعداد الغداء لا يبدأ ثانية فى العمل. كان يضايقها أن تفكر فى أنه واقف هناك بلا عمل، دون حركة وفى صمت لساعات، تحت قوة الشمس غير

الظليلة التى بدا أنها لا تؤثر فيه. لم يكن هناك ما تستطيع عمله فى هذا الأمر، رغم أنها بدلاً من الاستغراق فى حالة السبات الكئيب الذى يشبه النوم، كانت تجهد عقلها لتفكر فى عمل يمكن أن تجعله يقوم به.

ذات صباح خرجت إلى حظائر الدجاج، وهو أمر كانت تنساه كثيرًا هذه الأيام؛ وعندما انتهت من التفتيش الدقيق لصناديق الفقس، وملأت سلتها بالبيض، أذهلها رؤية الزنجى يجلس تحت الأشجار على بعد ياردات قليلة. كان يحك رقبته الغليظة بالصابون، وبدت الرغوة البيضاء شديدة البياض على بشرته السوداء. كان ظهره ناحيتها. وبينما كانت تنظر، التفت بمصادفة ما، أو ربما لأنه شعر بوجودها، ورآها. كانت قد نسيت أنه وقت حمامه.

إن الشخص الأبيض قد ينظر إلى شخص من الأهالى، الذى لا يزيد عن كلب. ولهذا ضايقها عندما توقف ووقف منتصبًا، منتظرًا منها أن تذهب، كان جسده يعبر عن احتقار لوجودها هناك. واستشاطت غضبا من أنه قد يكون اعتقد أنها كانت موجودة عمدا؛ هذه الفكرة، بالطبع، لم تكن عن وعى؛ لسوف تكون جرأة زائدة، مثل تلك الوقاحة منه أن يتخيل مثل هذا الأمر، وهذا ما لن تسمح به أن يدخل إلى عقلها؛ لكن موقف جسده المتوقف وهو يراقبها عبر الشجيرات بينهما، التعبير الذى بدا على وجهه؛ ملأها بالغضب. شعرت بنفس الدافع الذى جعلها يوما تهبط

بالكرباج على وجهه. وعامدة، استدارت مبتعدة، وتلكأت حول حظائر الدجاج، وألقت بقبضات من الحبوب، ثم ببطء انحنت لتخرج من تحت الباب السلك الواطئ. لم تنظر إليه مرة أخرى؛ لكنها عرفت أنه كان يقف هناك، هيكل أسود، خالٍ من أية حركة، يلوح فى ركن عينها. عادت إلى البيت، ولأول مرة منذ أشهر عديدة ارتجت متخلصة من فتورها، لأول مرة منذ شهور رأت الأرض التى تمشى عليها، وشعرت بوطأة الشمس خلف رقبتها العارية، والأحجار الحادة الساخنة تحت نعليها.

سمعت دمدمة غاضبة غريبة، واكتشفت أنها كانت تحدث نفسها، بصوت مرتفع، وهى تسير. خبطت بيدها على فمها، وهزت رأسها لتطرد ما فيها من أفكار؛ لكن بحلول الوقت الذى عاد فيه موسى إلى المطبخ، وسمعت خطواته، كانت تجلس فى الغرفة الأمامية متصلبة بمشاعر هستيرية، وكلما تذكرت النظرة المزدرية الغامضة لذلك الزنجى وهو يقف منتظرًا منها أن تذهب كانت تشعر وكأنها قد وضعت يدها على ثعبان. ومندفعة برد فعل عصبى عنيف، ذهبت إلى المطبخ، حيث كان يقف فى ثياب نظيفة، يضع أدوات استحمامه. تذكرت تلك الرقبة السوداء الغليظة والرغوة تلمع بيضاء عليها، الظهر القوى ينحنى فوق الدلو، كان أشبه بشوكة تنخزها. وكانت لا تستطيع أن تفكر فى أن غضبها، وثورتها العنيفة، كانت بلا سبب، لا شىء يمكنها تفسيره. إن ما حدث

هو أن النمط الرسمى للأسود والأبيض، السيدة والخادم، قد انكسر بالعلاقة الشخصية، وعندما ينظر رجل أبيض فى إفريقيا بالمصادفة إلى عينى أحد الزنوج، ويرى الإنسان (وهى الحالة التى يبذل كل مجهوده لتجنبها)، فإن شعوره بالذنب، الذى ينكره، يتصاعد فى شكل ازدراء، وينزل بالكرباج. شعرت أنها لابد أن تفعل شيئًا، وفى الحال، لكى تستعيد اتزانها. ووقعت عيناها على صندوق شمع موضوع تحت المنضدة، حيث تحفظ فرش التنظيف والصابون، وقالت للخادم: "افرك هذه الأرضية". وأصيبت بصدمة عندما سمعت نفسها، لأنها لم تكن تعرف أنها سوف تتكلم. وكما يشعر الإنسان عندما يكون وسط محادثة اجتماعية عادية، ويظل صامتا بسبب التفاهات، يقوم أحد الأشخاص بإلقاء ملاحظة تضرب تحت السطح، ربما يفلت عن طريق الخطأ رأيه الحقيقى فيك، والصدمة تجعل الإنسان يفقد توازنه، وتسبب قهقهة عصبية أو بعض العبارات الغبية التى يقولها كل الحاضرين بدون ارتياح، هذا هو ما شعرت به: لقد فقدت توازنها؛ لم تعد قادرة على التحكم فى تصرفاتها.

قال الزنوج ببطء: "لقد نظفتها هذا الصباح"، ناظرًا إليها، وعيناه تلمعان.

قالت: "قلت افركها. افعل ذلك فى الحال". ارتفع صوتها فى الكلمات الأخيرة. وللحظة وقفا ينظران إلى بعضهما، يعبران عن كراهيتهما؛ ثم انخفضت

عيناه، واستدارت هى وخرجت، وهى تصفق الباب خلفها.

وسرعان ما سمعت صوت الفرشاة المبللة على الأرض. انهارت على الأريكة مرة أخرى، ضعيفة وكأنها كانت مريضة. لقد كانت تألف عواصف غضبها العنيف، لكنها لم تكن تعرف مثل هذه العاصفة المدمرة. كانت تهتز، الدم يندفع فى أذنيها، وكان فمها جافا. وبعد هنيهة، دخلت إلى غرفة النوم وقد أصبحت أكثر هدوءا لتحضر لنفسها بعض الماء؛ لم تكن تريد مواجهة الزنجى، موسى.

ولكن، فيما بعد، أجبرت نفسها على القيام والذهاب إلى المطبخ، وبينما وقفت فى فتحة الباب، فحصت الأرض المبللة بعينيها، وكأنها كانت قد جاءت حقا لتتفحصها. وقف هو بلا حركة خارج الباب، كالعادة يحدق إلى كومة الصخور حيث وقفت شجرة الإفوربيا بلونها الأخضر المائل إلى الرمادى، وقد رفعت أغصانها اللحمية نحو السماء الزرقاء الباهرة. تصنعت بأنها تنظر خلف الدواليب ثم قالت: "لقد حان الوقت لإعداد المائدة".

التفت، وبدأ يضع الأكواب والفوط، بحركات بطيئة وبنوع من الشدة، كانت يداه السوداوان الكبيرتان تتحركان بين الأدوات الصغيرة. كل حركة كان يقوم بها كانت تثيرها. جلست متوترة، جريحة، يداها مطبقتان. عندما خرج، شعرت ببعض الراحة، وكأن حملاً نزل من فوقها. كانت المائدة قد أعدت.

وذهبت لتفحصها؛ لكن كل شىء كان فى المكان المضبوط. لكنها حملت كوبًا وأخذته إلى الغرفة الخلفية.

وأمرت: "انظر إلى هذا الكوب، يا موسى".

جاء ونظر إليه بأدب: كان مجرد مظهر، لأنه أخذه بالفعل منها ليغسله. كان هناك أثر من زغب فوطة التجفيف على أحد جوانبها. ملأ الحوض بالماء، ووضع به صابونًا، بالضبط كما علمته، وغسل الكوب وهى تراقبه. وعندما جففه أخذته منه وعادت إلى الغرفة الأخرى.

تخيلته مرة أخرى يقف صامتًا على الباب فى الشمس، ينظر إلى لاشىء، وكان يمكنها أن تصرخ أو تلقى بكوب عبر الغرفة ليتحطم على الحائط. ولكن لم يكن هناك شىء، أى عمل من أى نوع، يمكنها أن تطلب منه القيام به. بدأت تجوس بهدوء فى البيت: كل شىء، رغم أنه كان باليا وباهتا، إلا أنه كان نظيفًا وفى مكانه. والفراش، ذلك السرير الضخم الذى كرهته دائمًا، كان مرتبًا وممهدًا، والأغطية مقلوبة أطرافها عند الركن فى تقليد شجاع للأسرة المغرية فى الكتالوجات الحديثة. مشهده جعل أسنانها تصطك، مذكرًا إياها بتلك العلاقات الليلية فى الليالى مع جسد ديك المتعب العضلات، والذى لم تستطع أبدًا أن تتوافق معه. تحولت عنه وهى تعتصر يديها، ورأت وجهها فجأة فى المرآة. كان باهتا، مشعثًا، شفتاها مزمومتان غضبًا، عيناها متقدتان، وجهها

متورم وقد احمر من الغضب، كادت لا تتعرف على نفسها. حدقت، وهى مصدومة ومشفقة، ثم بكت، بكت بهستيرية فى شهقات مرتعدة مرتجفة، محاولة أن تخنق صوت شهقاتها خوفًا من أن يسمعها الزنجى فى الخلف. بكت لبعض الوقت، ثم، وهى ترفع عينيها لتجففهما، رأت الساعة. لابد أن ديك على وشك العودة إلى البيت. وخشية رؤيته لها فى هذه الحالة، حاولت تهدئة عضلاتها المتشنجة. وغسلت وجهها، ومشطت شعرها، ووضعت بعض المساحيق على التجاعيد القاتمة حول عينيها.

كانت تلك الوجبة صامتة ككل وجباتهما فى تلك الأيام. ورأى وجهها المحمر المتشنج، وعينيها المحمرتين كالدم، وعرف ما هى المشكلة. فهى تبكى دائمًا بسبب الشجار مع الخدم. ولكنه كان متعبا ومحبطًا، لقد مر وقت طويل منذ آخر شجار، وكان قد تخيل أنها قد بدأت تتغلب على ضعفها. لم تأكل شيئًا، وظلت خافضة رأسها، وجعل الزنجى يتحرك حول المنضدة خلال الوجبة كالرجل الآلى، جسده يخدمهما لأن هذا مفروض عليه، لكن عقله فى مكان آخر. لكن فكرة كفاءة هذا الرجل، ومنظر وجه مارى المتورم، فجأة أثار ديك. وعندما كان الزنجى خارج الغرفة، قال: "مارى، لابد أن تحتفظى بهذا الولد. إنه أفضل خادم جاءنا على الإطلاق". حتى حينئذ لم ترفع عينيها، ولكنها ظلت ساكنة تمامًا، وكأنها صماء. رأى ديك أن يديها النحيفتين المتجعدتين من حرارة الشمس ترتجفان.

وقال مرة أخرى، بعد هنيهة من الصمت، وصوته قبيح بتأثير المشاعر العدائية: "لا أستطيع أن أحتمل أى تغيير آخر للخدم. لقد كفانى ما نلته. إننى أحذرك يا مارى". ومرة أخرى، لم ترد؛ كانت ضعيفة بسبب الدموع والغضب فى الصباح، وتخشى لو فتحت فمها أن تبكى مرة أخرى. نظر إليها ببعض الدهشة، لأنها كقاعدة كانت تغضب وترد ببعض الشكوى من السرقة، أو سوء السلوك. وكان مستعدًا لمواجهتها. لكن صمتها المستمر، والذى كان اعتراضًا خالصًا، ساقه إلى الإصرار على أن يتلقى استجابة منها. قال: "مارى" بدا صوته كصوت رئيس يتحدث إلى أحد مرءوسيه، "هل سمعت ما قلت؟" قالت أخيرًا، بصعوبة: "نعم".

وعندما غادر، ذهبت فورًا إلى غرفة نومها لتتجنب رؤية الزنجى وهو ينظف المائدة، ونامت لمدة أربع ساعات من وقت الظهيرة الذى لا يحتمل.

- ٩ -

وهكذا مرت الأيام خلال شهرى أغسطس وسبتمبر، أيام حارة ضبابية، تهب فيها رياح بطيئة فى نوبات مملحة، مترية، من فوق الروابى الجرانيتية. تحركت مارى تقوم بأعمالها كما لو كانت امرأة فى حلم، تستغرق ساعات لتنجز ما كان يأخذ منها دقائق قليلة فى السابق. كانت تقف بدون قبعة تحت الشمس المحرقة، والأشعة الكثيفة القاسية تنصب على ظهرها وكتفيها، لتخدرها وتكدرها، أحيانا كانت تشعر وكأن جسدها ملىء بالكدمات، وكأن الشمس قد حولت لحمها إلى غطاء من الورم الرقيق لتغطية العظام المؤلمة. كانت تصاب بالدوار وهى واقفة، وترسل الخادم ليحضر قبعتها. ثم، بارتياح، وكأنها كانت تقوم بعمل عضلى عنيف لساعات، بدلا من التجول بلا هدف بين الدجاج دون أن تراه، كانت تنهار على مقعد، وتجلس بلا حركة، تفكر فى لا شىء؛ لكن معرفتها بوجود ذلك الرجل وحده فى البيت معها ظلت كحمل

ثقيل يضغط عل عقلها. كانت فى وجوده حازمة ومتحكمة فى نفسها؛ وظلت تشغله بالعمل بقدر ما تستطيع؛ بلا تهاون فى كل ذرة من التراب، وكل كوب أو طبق فى غير مكانه - إن لاحظت. كان سخط ديك وتحذيره بأنه لن يتحمل أى تغيير آخر للخدم، تحدٍّ ليس لديها القدرة على مواجهته، يجعلها تمسك نفسها كخيط مشدود ممتد بين ثقلين لا يمكن تحريكهما: كان هذا هو ما تشعر به، وكأنها أرض تجرى فوقها معركة بين قوتين متصارعتين. لكن ما هى هاتان القوتان، وكيف استطاعت احتواءهما، لم تكن تعرف. كان موسى لامباليًا وهادئًا فى تعامله معها وكأنها غير موجودة، فيما عدا ما يختص بطاعة أوامرها؛ وديك، الذى كان فى السابق ذا طبيعة طيبة ومن السهل إرضاؤه، أصبح الآن يشكو باستمرار من سوء إدارتها، لأنها تناكد الولد بذلك الصوت العصبى المرتفع على مقعد يبتعد بوصتين عن مكانه الصحيح، بينما لا تلاحظ أن السقف مغطى بنسيج العنكبوت.

كانت تتغاضى عن كل شىء، إلا ما تجد نفسها مجبرة على أن توليه انتباهها. ضاق أفقها حتى أصبح لا شىء فيه سوى البيت. بدأت الدواجن تموت؛ وتمتمت بشىء عن المرض؛ ثم فهمت أنها نسيت أن تطعمها لمدة أسبوع. إلا أنها كانت تتجول، كالعادة، فى الحظائر، حاملة سلة الحبوب فى يدها. كانت الدواجن تموت، فتم طبخ العجفاوات وأكلت. ولفترة قصيرة، ولأنها أصيبت بصدمة إزاء الحالة التى

وصلت إليها، فقامت ببعض المجهود وحاولت أن تحتفظ بتركيزها على ما تفعله. لكن لم يمر وقت طويل حتى حدث نفس الشىء: لاحظت أن أوعية الشرب خالية. كانت الدواجن ترقد على الأرض الساخنة، تنتفض بضعف لتموت لنقص المياه. ثم أصبح من غير الممكن أن تتجشم المزيد من المشقة. عاشا لأسابيع على الدجاج، حتى أصبحت الحظيرة السلك الكبيرة خالية. والآن لم يعد هناك بيض. ولم تطلب من البقالة، لأنه كان مرتفع الثمن جدًا. كانت تشعر بعقلها فى معظم الوقت خواء مترجرجًا ناعمًا. كانت تبدأ عبارة ثم تنسى أن تكملها. وأصبح ديك معتادًا على الطريقة التى قد تقول بها ثلاث كلمات، ثم يصبح وجهها فجأة خاليًا فارغًا، وتسقط فى الصمت. ما كانت تنوى قوله قد انمحى تمامًا من رأسها. وإن حاول أن يحثها على أن تكمل، كانت تنظر أمامها، لا تراه، ولا تجيب. وأحزنه بشدة أنه لم يعد قادرًا على أن يعترض على تخليها عن دواجنها، التى كانت تساعدهما على الاستمرار بقليل من المال حتى الآن.

ولكن، فيما يختص بالزنجى، كانت لا تزال تستجيب. كان هذا الجزء الصغير من عقلها لا يزال مستيقظًا. كل هذه المشاهد التى كانت تحب أن تمثلها، لكنها لم تجرؤ خشية أن يرحل الولد ويغضب ديك، كانت تمثلها فى عقلها. ذات مرة أثارتها ضجة، واكتشفت أنها هى، تتحدث بصوت مرتفع فى غرفة

المعيشة بصوت غاضب خافت. كانت تتخيل أن الزنجى نسى أن ينظف غرفة النوم فى ذلك الصباح، وأنها كانت غاضبة عليه، تفكر فى عبارات قاسية قاطعة بلغتها الخاصة التى ما كان من الممكن أن يفهمها، حتى لو كانت قد قالتها له. أثار ذلك الصوت الناعم، المتقطع، المجنون خوفها كما أخافها شكلها فى المرآة. كانت خائفة، ترتج داخل نفسها، تنكمش من مرأى نفسها تتحدث كامرأة مجنونة وهى جالسة فى ركن الأريكة.

قامت بهدوء وذهبت إلى الباب الذى يفصل بين غرفة المعيشة والمطبخ، ونظرت لترى إن كان الولد قريبًا وباستطاعته أن يسمعها. كان يقف هناك، كالمعتاد دائما، يستند على الجدار الخارجى؛ وكان يمكنها أن ترى فقط كتفه الكبير ناتئًا تحت القماش الرقيق، ويده متدلية إلى أسفل عاطلة عن العمل، أصابعه ملتوية بنعومة إلى داخل كفه البنى المائل إلى الحمرة. ولم يتحرك. قالت لنفسها إنه ما كان يمكن أن يسمعها؛ وطردت فكرة وجود بابين مفتوحين بينها وبينه من عقلها. وتجنبته طوال ذلك اليوم، متحركة بدون هوادة بين الغرف وكأنها نسيت كيف تستقر ساكنة. وظلت تبكى طوال ذلك المساء وهى راقدة على الفراش، فى تنهدات متشنجة يائسة؛ حتى أنها كانت مستهلكة تماما عندما عاد ديك إلى البيت. لكن هذه المرة لم يلحظ شيئًا، لقد كان هو نفسه مستهلكًا ولا يريد سوى أن ينام.

فى اليوم التالى، عندما كانت تخرج المؤن من الدولاب فى المطبخ (الذى حاولت أن تتذكر إبقاءه مغلقا، ولكن الأغلب أنه كان يظل مفتوحًا دون أن تلاحظ، ومن ثم كانت عملية الحرص على إخراج الكميات المطلوبة لليوم فى الواقع لا جدوى منها). كان موسى واقفا خلفها حاملا الصينية، وقال إنه يريد أن يترك العمل بنهاية الشهر. كان يتحدث بهدوء ومباشرة، لكن ببعض التردد، وكأنه كان يعد نفسه لمواجهة اعتراض. كانت قد ألفت هذه اللهجة العصبية، فكلما أراد خادم أن يترك العمل، رغم أنها دائمًا كانت تشعر براحة بالغة لأن التوترات التى كانت تحدث بينها وبين كل خادم سوف تذهب بذهابه، إلا أنها لم تترك أحدهم يذهب أبدًا دون مناقشة وتعنيف. والآن، فتحت فمها لتعترض، لكنها عادت تصمت، وسقطت يدها عن باب الدولاب، ووجدت نفسها تفكر فى غضب ديك. لم يكن بمقدورها أن تواجه هذا. لم تكن ببساطة قادرة على مواجهة شجار مع ديك. ولم تكن غلطتها هذه المرة، ألم تفعل كل ما تستطيع لتحتفظ بهذا الولد، الذى تكرهه، والذى يخيفها؟ ولرعبها، اكتشفت أنها تهتز بالتنهدات مرة أخرى، هناك، أمام الزنجى! وقفت بجوار المنضدة، يائسة وضعيفة، ظهرها نحوه، تنشج. ولبعض الوقت لم يتحرك أحدهما؛ ثم اقترب حيث يستطيع أن يرى وجهها، ونظر إليها باستغراب، وقد انعقد حاجباه فى دهشة وتعجب. وأخيرًا قالت، وقد ملأها الفزع: "ينبغى ألا تذهب!" وبكت مرة أخرى، مكررة ذلك مرة

بعد أخرى، "لابد أن تبقى! لابد أن تبقى!" وطوال الوقت كانت ممتلئة بالخزى والخجل لأنه كان يراها تبكى.

بعد مرور بعض الوقت رأته يذهب إلى الرف حيث فلتر المياه ليملأ كوبًا. وشعرت بالسخط بسبب ما فى حركاته من بطء متعمد، بسبب فقدانها هى نفسها للتحكم؛ وعندما قدم الكوب لها لم ترفع يدها لتأخذه، شاعرة بأن هذه الحركة وقاحة منه فضلت تجاهلها. ولكن رغم موقف الكبرياء الذى كانت تجاهد لاتخاذه، بدأت تنهنه مرة أخرى، "ينبغى ألا تذهب"، وبدا صوتها متوسلاً. رفع الكوب إلى شفتيها، لكى ترفع يدها وتتناوله، وأخذت رشفة والدموع تجرى على وجهها. نظرت إليه بتضرع من فوق الكوب، وبخوف متجدد، رأت نوعًا من الشفقة على ضعفها فى عينيه.

قال ببساطة: "اشربى"، وكأنه يتحدث إلى إحدى نسائه، وشربت.

ثم برفق أخذ الكوب منها، ووضعه على المنضدة، وإذ رأى أنها واقفة هناك مترنحة تكاد تسقط من الإعياء، لم يعرف ماذا يفعل، فقال: "المدام ترقد على السرير". لم تتحرك. وضع يده مترددًا، خشية أن يلمسها، المرأة البيضاء المقدسة، ودفعها من كتفها؛ شعرت بنفسها تدفع برقة عبر الغرفة ونحو غرفة النوم. كان الأمر أشبه بكابوس يقف فيه الإنسان بلا قوى أمام الرعب: لمسة يد هذا الرجل الأسود على

كتفها ملأتها بالغثيان؛ لم يحدث لها أبدًا، ولا مرة فى حياتها كلها، أن لمست لحم أحد من الزنوج. وبينما يقتربان من السرير، كانت لا تزال اللمسة الناعمة على كتفها، شعرت برأسها وقد بدأ يدور، وعظامها تتداعى. قال مرة أخرى: "المدام ترقد"، وكان صوته رقيقًا هذه المرة، أشبه بصوت أبوى. وعندما ارتمت إلى وضع الجلوس على جانب الفراش، أمسك بكتفها برفق ودفعها برقة لترقد. ثم أخذ معطفها من المشجب على الباب، ووضعه فوق قدميها. ثم خرج، وتراجع الرعب؛ رقدت هناك فاقدة الحس وصامتة، غير قادرة على التفكير فى تأثير ما حدث.

بعد قليل نامت، وعندما استيقظت كان الوقت يقترب من الغروب. كان يمكنها رؤية السماء خارج مربع النافذة، بيضاء مع سحب رعدية زرقاء، وتلمع بضوء برتقالى قادم من الشمس الغاربة. مرت لحظة لا تستطيع فيها أن تتذكر ما حدث؛ لكن عندما تذكرت، عاد الخوف يغلفها، خوف رهيب كئيب. فكرت فى نفسها وهى تبكى يائسة، غير قادرة على التوقف؛ وفى شربها بناء على طلب ذلك الرجل الأسود؛ وفى الطريقة التى دفعها بها عبر الغرفتين إلى الفراش؛ وفى الطريقة التى جعلها بها ترقد ثم لف المعطف حول قدميها. قبضت على الوسادة وهى تبكى وتتألم بصوت مرتفع، وكأنها مسها غائط. وبين عذابها كانت تستطيع سماع صوته، حازما وعطوفًا، مثل صوت الأب، يأمرها.

بعد قليل، كانت الغرفة قد أصبحت مظلمة تمامًا، فقط الجدران تلمع، عاكسة الضوء الذى كان يتلألأ على قمم الأشجار، رغم أن أغصانها الواطئة كانت تحمل أشباح الغسق، قامت، وأشعلت عود ثقاب لتضىء المصباح. توهج، ثم استقر، وهدأ. والآن أصبحت الغرفة أشبه بصدفة من الضوء الكهرمانى والظلال، تجويف فى ليل شجرة عظيمة. وضعت بعض المساحيق على وجهها، وجلست فترة طويلة أمام المرآة، شاعرة بأنها غير قادرة على الحركة. لم تكن تفكر، كانت خائفة فقط، ولا تعرف من أى شىء. شعرت أنها لن تستطيع الخروج حتى يعود ديك ليدعمها ضد وجود هذا الزنجى. وعندما جاء ديك، قال ناظرًا إليها فى ذهول أنه لم يوقظها فى وقت وجبة الظهيرة، وأنه يتمنى لو لم تكن مريضة. قالت: "أوه، لا. متعبة فقط. إننى أشعر...." وتداعى صوتها، واستقرت النظرة الخاوية على وجهها. كانا جالسين فى القبة المعتمة للضوء القادم من المصباح المتأرجح، والصبى يتحرك بهدوء حول المنضدة. ولفترة طويلة ظلت خافضة عينيها، رغم أن بعض الانتباه كان يعود إلى ملامحها عند دخوله. وعندما دفعت نفسها للنظر إلى أعلى، والتحديق بسرعة فى وجهه، عادت إليها الطمأنينة، فلم يكن ثمة جديد فى موقفه. كالعادة، كان يتصرف وكأنه شىء مجرد، غير موجود بالفعل، كآلة بدون روح.

فى الصباح التالى دفعت نفسها للذهاب إلى المطبخ والتحدث بشكل طبيعى؛ وانتظرت خشية أن

يقول مرة أخرى إنه يريد الرحيل. لكنه لم يقل. ولمدة أسبوع سارت الأمور بشكل طبيعى حتى تحققت من أنه لن يذهب؛ لقد استجاب لدموعها ورجائها. ولم تحتمل فكرة أنها حصلت على هدفها بهذه الوسيلة؛ ولأنها لم تكن تريد أن تتذكر هذا، بدأت تستعيد نفسها ببطء. وشعرت بالارتياح بعد أن تحررت من الفكرة المعذبة لغضب ديك، وقد ذهبت ذكرى انهيارها المخزى من عقلها، وبذلك بدأت تعود إلى استخدام ذلك الصوت البارد اللاذع للإدلاء بملاحظات ساخرة على عمل الزنجى. وذات يوم التفت إليها فى المطبخ، ونظر إليها مباشرة فى وجهها، وقال بصوت حاد بدرجة مثيرة للقلق مؤنبًا: "المدام طلبت منى أن أبقى. أنا أبقى لأساعد المدام. إن كانت المدام تتشاجر، أنا أذهب".

أوقفتها نغمة الحقيقة المطلقة فى صوته؛ وشعرت بيأس شديد. خاصة وقد أجبرت على تذكر لماذا كان هنا. ثم، تلك الحدة المزدرية فى صوته أوحت بأنه يعتبرها ظالمة. ظالمة! لم تكن ترى الأمر كذلك على الإطلاق.

كان يقف بجوار الموقد، منتظرًا أن ينتهى من الطهى. لم تعرف ماذا تقول. تحرك نحو المنضدة، بينما كان ينتظر إجابة منها، تناول قطعة قماش ليمسك بها اليد الحديدية الساخنة لباب الفرن. ودون أن ينظر إليها، قال: "أنا أؤدى العمل جيدًا، أليس كذلك؟" تحدث بالإنجليزية، وهو الأمر الذى كان قد

يشعلها غضبًا فى الأساس؛ فكرت أن هذه وقاحة. ولكنها أجابت بالإنجليزية: "نعم".

"إذًا لماذا المدام دائمًا تتشاجر؟"

تحدث هذه المرة ببساطة، تقريبًا بألفة، وبنوع من المرح الطيب، وكأنه كان يضاحك طفلاً. انحنى لفتح الفرن، وظهره إليها، وأخذ صينية كعيكات خفيفة مقرمشة، والتى كانت أفضل كثيرًا مما تستطيع هى نفسها أن تصنعه. وبدأ يقلب الكعيكات، واحدة واحدة، فوق صينية من السلك لتبرد. شعرت بأنها ينبغى أن تذهب على الفور، لكنها لم تتحرك. كانت متجمدة، يائسة، تراقب يديه الكبيرتين تقلبان تلك الكعيكات الصغيرة على الصينية. ولم تقل شيئًا. شعرت بالغضب المعتاد يرتفع داخلها، بسبب اللهجة التى استخدمها فى الحديث معها، وفى نفس الوقت كانت مسحورة، ومن أعماقها؛ لم تكن تعلم ماذا تفعل بهذه العلاقة الشخصية. وهكذا، بعد قليل، حيث إنه لم ينظر إليها، وظل يتحرك بهدوء يؤدى عمله، خرجت من المطبخ دون أن ترد.

وعندما انهمرت الأمطار فى أواخر أكتوبر، بعد ستة أسابيع من الحرارة المدمرة، كان ديك يبقى بعيدًا عن البيت ولا يأتى إلى وجبة منتصف اليوم، كما كان يفعل دائمًا فى هذا الوقت من السنة بسبب ضغط العمل. كان يخرج فى حوالى السادسة صباحًا ويرجع فى السادسة مساء، وهكذا لم يكن ثمة سوى وجبة

واحدة تطهى: كان الإفطار والغداء يرسلان إليه فى الحقول. وكما كانت تفعل قبلاً فى السنوات السابقة، قالت مارى لموسى إنها لن تتناول الغداء، وأن من الممكن أن يحضر لها شايًا فقط: فقد شعرت بأنها لا تستطيع أن تبذل مجهود تناول الطعام. فى اليوم الأول الذى كان ديك يتغيب فيه لفترة طويلة، بدلاً من صينية الشاى، أحضر لها موسى بيضًا ومربى وتوست. ووضع ذلك بحرص على المنضدة الصغيرة بجوارها.

قالت بحدة: "قلت لك إننى أريد شايا فقط".

أجاب بهدوء: "المدام لم تأكل إفطارا، لابد أن تأكل". وعلى الصينية، كان يوجد كوب بلا مقبض به بعض الزهور: زهور صفراء ووردية وحمراء، زهور برية، موضوعة معا بغباء، ولكنها تصنع انفجارًا قويًا من الألوان على القماش القديم الباهت.

وبينما جلست هناك، عيناها خفيضتان، واستقام هو بعد أن وضع الصينية، أشد ما ضايقها هو هذا الدليل على رغبته فى إرضائها، الاسترضاء عن طريق الزهور. كان ينتظر كلمة تشجيع وسرور منها. لكنها لم تستطع أن تعطيه إياها؛ لكن التعنيف الذى اندفع إلى شفتيها ظل دون أن يخرج، وجذبت الصينية إليها وبدأت تأكل، دون كلمة.

كانت هناك الآن علاقة جديدة بينهما. لأنها شعرت بأنها ضعيفة أمام قوته. إلا أنه لم يكن ثمة

سبب لذلك. لم تتوقف لحظة واحدة عن الوعى بوجوده فى البيت، أو أثناء وقوفه صامتا فى الخلفية مستندا إلى الجدار فى الشمس، كان شعورها نوعًا من الخوف القوى وغير المنطقى، من القلق العميق، بل وحتى - رغم أن هذا لم تكن تعرفه، وإلا لفضلت الموت على الاعتراف به - ببعض الانجذاب الغامض. وكأن فعل البكاء أمامه كان نوعا من التسليم - تسليم لسلطتها: وقد رفض أن يعيدها إليها. مرات عديدة كانت التوبيخات تندفع إلى شفتيها، وتراه ينظر إليها متعمدًا، غير متقبل لها، ولكن متحديًا. مرة واحدة، نسى فيها أن يفعل شيئًا، وكان مخطئا، فتقمص موقفه القديم من الاستسلام السلبى. ثم تقبل، لأنه كان مخطئا. والآن بدأت تتجنبه. وبينما كانت فى السابق تدفع نفسها إلى متابعة عمله، وتفتش على كل شىء يفعله، فالآن نادرًا ما كانت تذهب إلى المطبخ، وتركت العناية بالمنزل له. حتى المفاتيح تركتها على رف فى غرفة الخزين، حيث يمكنه أن يجدها ليفتح دولاب البقالة كما يشاء. وظلت تحتفظ بتوازنها، غير عالمة ما هو هذا التوتر الجديد الذى لم تكن قادرة على كسره.

ومرتين سألها أسئلة، بهذا الصوت الودود الأليف الجديد.

مرة كان السؤال عن الحرب: "هل تظن المدام أن الحرب ستنتهى قريبًا؟" فوجئت. بالنسبة لها، فإن الحياة بعيدًا عن الاتصال بكل شىء، دون حتى قراءة

الجريدة الأسبوعية، كانت تجعل الحرب مجرد إشاعة، شىء يحدث فى عالم آخر. لكنها رأته يختلس النظر فى الأخبار القديمة وهو يضع ورق الجرائد على المائدة. أجابت بجفاء أنها لا تعرف. ومرة أخرى، بعد بضعة أيام، وكأنه كان يفكر فى الأثناء، سألها: "هل عيسى يظن أن قتل الناس لبعضهم صواب؟" هذه المرة شعرت بالغضب بسبب النقد الضمنى، وأجابت ببرود أن عيسى كان إلى جانب الناس الطيبين. لكن طوال اليوم كانت تتقد بكراهيتها القديمة، وفى الليل سألت ديك: "من أين جاء موسى؟"

أجاب: "صبى إرسالية، وهو الوحيد المهذب ضمن كل الذين عندى". ومثل معظم مواطنى جنوب إفريقيا، لم يكن ديك يحب أبناء الإرساليات، فهم "يعرفون أكثر من اللازم". وعلى أية حال، ينبغى ألا يتم تعليمهم القراءة والكتابة: ينبغى أن يتعلموا كرامة العمل والفائدة العامة للإنسان الأبيض.

سألها بارتياب: "لماذا؟ أرجو ألا يكون ثمة مشاكل أخرى؟"

"لا".

"هل أثار غضبك فى شىء؟"

"لا".

لكن الخلفية الخاصة بالإرسالية كانت تفسر الكثير: ذلك النداء المثير للتوتر والمنطوق جيدًا "مدام"، على سبيل المثال، بدلا من المخاطبة المعتادة "سيدتى"،

الأمر الذى كان أفضل بشكل عام اعتبارا لمكانته ووضعيته فى الحياة.

تلك الكلمة "مدام" كانت تضايقها. كانت تود لو سألته أن يتخلى عنها. لكن لم يكن فيها ما يدل على عدم الاحترام: لقد كانت فقط ما تعلمه عن طريق أحد الإرساليين ذوى الأفكار الحمقاء. ولم يكن فى تصرفاته معها أى شىء يمكن أن تدينه به. ولكن رغم أنه لم يكن أبدًا قليل الاحترام، إلا أنه أجبرها الآن على أن تعامله كإنسان؛ لقد كان من المستحيل بالنسبة لها أن تطرده من عقلها كما لو كان شيئًا قذرًا، كما كانت تفعل مع كل الآخرين فيما سبق. كانت مرغمة على أن تكون على صلة به، ولم تتوقف أبدًا عن الحذر منه. كانت تكتشف، يوميًا، أن هناك شيئًا ما فى كل ذلك ينبئ بالخطر، ولكنها لم تكن قادرة على تحديد هذا الشىء.

والآن كانت تحلم أثناء لياليها القلقة أحلامًا مرعبة، مخيفة. كان نومها فيما سبق عبارة عن إسدال لستارة سوداء فى الحال، أما الآن فقد أصبح أكثر واقعية من يقظتها. مرتين حلمت مباشرة بالزنجى، وفى كل مناسبة كانت تستيقظ فزعة وهو يلمسها. وفى كل مناسبة فى أحلامها كان يقف فوقها، قويا وآمرًا، وإن كان طيبا، ولكنه يجبرها على اتخاذ وضع تضطر فيه إلى لمسه. وكانت هناك أحلام أخرى، لم يكن يدخل فيها مباشرة، ولكن كانت أحلامًا مشوشة، مخيفة، مرعبة، تستيقظ بعدها تتصبب عرقًا من

الخوف، وكانت تحاول ألا تفكر فيها. كانت ترقد فى الظلام، متوترة بجوار جسد ديك المسترخى النائم، وتجبر نفسها على أن تظل مستيقظة.

وغالبًا، أثناء النهار، كانت تراقبه خفية، ليس مثلما تفعل سيدة تراقب خادمًا يعمل، ولكن بتساؤل خائف، متذكرة تلك الأحلام. وكل يوم كان يرعاها، يرى ماذا أكلت، يحضر لها الوجبات دون أن تطلبها، يحضر لها هدايا صغيرة مثل بضع بيضات من حظائر المجمع، أو مجموعة من الزهور من الدغل.

ذات مرة، مر وقت طويل بعد غروب الشمس ولم يعد ديك، قالت لموسى، "حافظ على الطعام ساخنا، إننى ذاهبة لأرى ماذا حدث للرئيس".

وعندما كانت فى غرفة النوم تحضر معطفها، دق موسى على الباب، وقال إنه سوف يذهب هو ليرى ما حدث؛ المدام لا ينبغى أن تسير فى الدغل المعتم وحدها. قالت يائسة: "وهو كذلك". وخلعت معطفها.

لكن لم يكن ثمة مشكلة مع ديك. كان قد تأخر بسبب أحد الثيران الذى كسرت ساقه. وبعد أسبوع، عندما تأخر مرة أخرى فى العودة، كانت قلقة، ولكنها لم تبذل مجهوداً لترى ماذا حدث، خشية أن يحاول الزنجى مرة أخرى، ببساطة وبشكل طبيعى، أن يأخذ المسئولية من أجل راحتها. وقد وصل الأمر إلى هذا: لقد أصبحت تراقب تصرفاتها من زاوية رؤية واحدة فقط؛ هل سوف يتيح هذا لموسى أن يقوى تلك

العلاقة الإنسانية الجديدة بينهما، بطريقة لا تستطيع مجابهتها، ولا تستطيع تجنبها.

فى فبراير، داهمت الملاريا ديك مرة أخرى. وكما حدث من قبل، هاجمه المرض فجأة وفى وقت قصير، وكان قويًا واستمر فترة طويلة. وكما حدث من قبل، أرسلت فى تردد مذكرة مع حاملها إلى مسز سلاتر، طالبة منهم أن يحضروا لها الطبيب. كان ينظر إلى البيت الصغير لعائلة سلاتر وقد رفع حاجبيه، وسأل مارى لماذا لم تحاول أن تسير على وصفات الدواء السابقة له. لم تجب. "لماذا لم تقطعى تلك الشجيرات الموجودة حول المنزل والتى يمكن أن يتكاثر فيها الناموس؟" "لم يستطع زوجى توفير العمالة اللازمة لفعل ذلك". "لكنه يستطيع أن يوفر الوقت ليقضيه فى المرض، أليس كذلك؟" كان سلوك الطبيب شديد الصراحة، سهلا، ولكنه كان غير مبالٍ على الإطلاق؛ لقد تعلم بعد سنوات من العمل فى مناطق المزارع متى يقلل من خسائره كطبيب. ليس نقوده، والتى كان يعرف أنه قد لا يراها أبدًا، ولكن المرضى أنفسهم. لا أمل فى هؤلاء الناس. يمكن أن تستدل على ذلك من ستائر النافذة التى حال لونها بسبب الشمس إلى لون رمادى حقير، وتمزقت دون أن يصلحها أحد. حتى المجىء هنا إضاعة للوقت. لكن كنوع من العادة وقف على رأس المريض المرتعش والذى يتقد من الحمى، وكتب روشتة. وقال إن ديك مستهلك تماما، مجرد قشرة إنسان، معرض للإصابة بأى مرض. تحدث بقوة

بقدر ما يستطيع محاولا إخافة مارى لتفعل شيئا. لكن موقفها كان قولها بفتور: "وما الفائدة". وأخيرا ذهب مع تشارلى سلاتر، الذى كان موافقًا بسخرية شديدة على هذا القول؛ ولكن غير قادر على منع نفسه من التفكير فى أنه عندما يستولى على هذا المكان سوف يزيل الأسلاك من حظائر الدجاج ويضعها لحظائره، وسوف يزيل ذلك الحديد المتموج فى البيت وسوف تكون للمبانى فائدة فى وقت ما.

جلست مارى مع ديك فى الليلتين الأوليين لمرضه، على مقعد صلب لتظل مستيقظة، ممسكة بالبطانية فوق الأعضاء التى لا تستقر. لكن ديك لم يكن فى حالة سيئة مثل المرة الماضية؛ ولم يكن خائفًا هذه المرة، ويعلم أن المرض سوف يأخذ وقته ويذهب.

لم تبذل مارى مجهودا للإشراف على أعمال المزرعة؛ لكنها لكى تمنحه بعض الهدوء، كانت تلف بالسيارة مرتين حول المزرعة فى تفتيش مصطنع ولا جدوى منه. كان العمال فى المجمع يتسكعون. كانت تعرف ذلك، ولم تكن تهتم. لم تكن تنظر إلى الحقول إلا لماما: لقد أصبحت المزرعة شيئًا لا يهمها.

وفى أثناء النهار، عندما كانت تنتهى من إعداد المشروبات الباردة لديك، والتى كانت كل ما يتناوله، كانت تجلس بلا عمل بجوار السرير وتغرق فى حالة الفتور المعتادة لها. كان عقلها يشرد بلا تماسك، يستقر على أى مشهد من ماضى حياتها قد يطفو

على السطح. ولكن الآن أصبحت هذه الحالة خالية من الحنين أو الرغبة. وقد فقدت كل إحساس بالزمن. كانت تضبط المنبه وتضعه أمامها ليذكرها بالمواعيد المنتظمة التى ينبغى فيها أن تحضر مشروبات لديك. كان موسى يحضر لها صوانى الطعام المعتادة فى الأوقات المعتادة، وكانت تأكل بشكل آلى، دون أن تلاحظ ما تأكله، دون أن تلاحظ حتى أنها أحيانًا كانت تضع سكينها وشوكتها بعد ملء فمها مرتين وتنسى إكمال ما كان أمامها. وفى الصباح الثالث سألها، وهى تخفق بيضة كان قد أحضرها كهدية من المجمع فى اللبن: "هل مدام ذهبت إلى السرير فى الليلة الماضية؟" كان يتكلم بتلك الطريقة البسيطة التى دائمًا ما كانت تجردها من قواها، لا تعلم كيف تجيب.

أجابت، وهى تنظر لأسفل إلى اللبن المخفوق، متجنبة عينيه: "لابد أن أظل مستيقظة مع الرئيس".

"هل المدام ظلت مستيقظة الليلة الأخرى؟"

"نعم"، أجابت، وبسرعة ذهبت إلى غرفة النوم بالمشروب.

كان ديك راقدًا بلا حركة، يكاد يهذى من الحمى، فى نعاس غير مستريح. لم تهبط الحرارة. كانت هذه النوبة صعبة جدًا عليه. وكان العرق يتصبب منه، ثم أصبحت بشرته جافة وخشنة وتتقد من الحرارة. فى كل مساء كان العود النحيف من الزئبق يرتفع فى لحظة داخل الأنبوب الزجاجى الرقيق، وهى لم تكد

تبقيه فى فمه للحظات، وكانت الدرجة تظل ترتفع فى كل مرة تنظر إليه، حتى السادسة مساء تتوقف الحرارة عند ١٠٥ فهرنهيت. وتبقى على هذه الدرجة حتى منتصف الليل تقريبًا، وهو يتقلب ويهذى ويئن. وفى الساعات الأولى من اليوم تنخفض الحرارة بسرعة حتى ما دون الطبيعى، ويشكو من أنه يشعر بالبرد وبحاجة إلى مزيد من البطاطين. لكن كل البطاطين الموجودة فى البيت كانت مكومة فوقه. فكانت تقوم بتسخين قوالب طوب فى الفرن وتلفها بالقماش وتضعها عند قدميه.

وفى تلك الليلة جاء موسى إلى باب غرفة النوم ودق على الإطار الخشبى كما كان يفعل دائما. واجهته من خلال الطيات المفتوحة للستارة المطرزة.

سألته: "نعم؟"

"المدام تظل فى الغرفة الليلة. وأنا أبقى مع الرئيس".

قالت: "لا"، وهى تفكر فى قضاء ليلة طويلة من اليقظة قريبة من هذا الزنجى. "لا، عد أنت إلى المجمع ونم. سوف أبقى مع الرئيس".

تقدم من خلال الستائر، فتراجعت إلى الخلف قليلا، كان قريبًا جدًا منها. ورأت أنه يحمل كيسًا مطويا من الذرة فى إحدى يديه، ربما استعدادًا لقضاء الليل. قال: "المدام يجب أن تنام، إنها متعبة، نعم؟" شعرت بالبشرة حول عينيها تضيق توترا وتعبا؛

لكنها أصرت بصوت عصبى جاف: "لا يا موسى، لابد أن أبقى". تحرك إلى الجدار حيث وضع كيسه بحرص فى مكان بين الدولابين. ثم وقف وقال بصوت يبدو وقد جرح، بل أقرب إلى التأنيب: "المدام تظن أنى لا أستطيع العناية بالرئيس بطريقة صحيحة، هه؟ أنا أيضًا أمرض أحيانا. أنا أغطى الرئيس دائما، نعم؟" وتحرك نحو السرير، ولكن دون أن يقترب جدا، ونظر إلى وجه ديك المتورد بالحمى. "سوف أعطيه هذا المشروب عندما يستيقظ، نعم؟" هذا الصوت نصف المرح، نصف المؤنب، جعلها تفقد أسلحتها أمامه. نظرت إلى وجهه مرة، بسرعة، متفادية العينين، ثم أبعدت نظراتها. لكن لن يكون من المفيد أن تبدو خائفة من النظر إليه؛ خفضت نظراتها ولاحظت يديه، اليد الكبيرة ذات الكف الأخف لونا تتدلى إلى جانبه. وأصر مرة أخرى: "المدام تظن أنى لا أعتنى بالرئيس جيدا؟"

ترددت، ثم قالت بعصبية: "طيب، لكن يجب أن أبقى".

وكأن عصبيتها وترددها كان ردا كافيا، انحنى الرجل ورتب البطاطين فوق الرجل النائم. وقال: "إذا كان الرئيس مريضا جدا، سأنادى المدام".

رأته يقف بجوار النافذة، يسد مربع السماء التى امتلأت بالنجوم المتناثرة، بانتظار أن تذهب. وقال: "المدام ستكون مريضة أيضًا إذا لم تنم".

ذهبت إلى الدولاب وأخذت منه معطفها الكبير، وقبل أن تغادر الغرفة قالت، لكى تؤكد سلطتها: "سوف تنادينى إذا استيقظ".

ذهبت بشكل غريزى إلى ملجئها، إلى الأريكة، فى الغرفة المجاورة، حيث كانت تقضى ساعات كثيرة من أيامها، وجلست وهى تشعر بالعجز، وقد تكورت فى أحد الأركان. لم تستطع أن تحتمل التفكير فى وجود الرجل الأسود هناك طوال الليل، فى الغرفة المجاورة، قريب منها هكذا، لا يفصلهما سوى هذا الجدار الرقيق من الطوب.

بعد قليل دفعت وسادة إلى رأس الأريكة، ورقدت، وقد غطت قدميها بالمعطف. كانت ليلة حارة، لا يكاد الهواء يتحرك فى الغرفة الصغيرة. وانخفض الضوء الكئيب فى المصباح المعلق، وأصبح وهجا أليفا يرسل أقواساً متكسرة من الضوء على الظلام أسفل السقف، ليضىء منحدراً من المعدن المتموج، ورافدة خشبية. وفى الغرفة نفسها لم يكن هناك من الضوء إلا دائرة صفراء صغيرة على المنضدة تحته. كل شىء آخر كان مظلما، ليس إلا ظلالاً مبهمة مستطيلة. حولت رأسها قليلا لتنظر إلى الستائر على النافذة، كانت ساكنة تماما؛ وتركزت مشاعرها فى محاولة أن تتسمع إلى الأصوات، فجأة بدت الضوضاء الليلية الضعيفة من الغابة بالخارج مرتفعة جدا مثل دقات قلبها. ومن بين الأشجار على بعد ياردات قليلة، ارتفع نداء طائر مرة واحدة، وراحت الحشرات تصدر صريرها. سمعت

حركة الأغصان، وكأن شيئًا ثقيلا كان يشق طريقه بينها؛ وفكرت بخوف فى الأشجار التى تكتنف المكان حولها. لم تشعر أبدا بالاعتياد على الغابة، لم تشعر أبدا بالارتياح فيها. ومع ذلك، بعد كل هذا الوقت، شعرت بنوع من الإنذار يحركها عندما تحققت من غرابة الغابة المحيطة بها حيث تتحرك حيوانات صغيرة، وتتكلم طيور غريبة. كانت غالبا ما تستيقظ فى الليل وتفكر فى البيت الحجرى الصغير، مثل قشرة ضعيفة يمكن أن تنهار على نفسها تحت وجود غابة عدائية. غالبًا ما كانت تفكر، لو تركا المكان، كيف أن فصل مطر واحد يمكن أن يبتلع المكان الخالى الصغير ويساعد على بزوغ الأشجار الصغيرة من الأرض، تدفع الطوب والأسمنت جانبا، وفى أشهر قليلة لن يبقى شىء إلا أكوام من الحصى بين جذوع الأشجار.

رقدت متوترة على الأريكة، كل أحاسيسها فى حالة تنبه، عقلها يرتعش مثل حيوان صغير وقع فى المصيدة وتحول لمواجهة صياده. كان الألم يغطيها كلها بضغط عنيف. استمعت إلى الليل فى الخارج، إلى دقات قلبها، وإلى الأصوات من الغرفة المجاورة، سمعت الصوت الجاف لقدمين خشنتين فوق الحصيرة الرقيقة، وصليل الأكواب تتحرك، وهذيانًا ضعيفًا من الرجل المريض. ثم سمعت الأقدام تتحرك لتقترب، وحركة انزلاقية بينما كان الزنجى يجلس على الكيس بين الدولابين. لقد كان هناك، خلف الجدار الرقيق

مباشرة، قريب جدا لدرجة أنه لو لم يكن هذا الجدار هناك لكان ظهره على بعد ست بوصات من وجهها! تصورت الظهر الرياضى العريض، وشعرت بالفزع. كان تصورها للزنجى شديد الوضوح لدرجة أنها تخيلت الرائحة الحادة اللاذعة لأجساد الأهالى. كانت تشم هذه الرائحة، وهى ترقد هناك فى الظلام. أدارت رأسها، ودفنت وجهها فى الوسادة.

بعد فترة طويلة لم تعد تسمع شيئًا، فقط الضوضاء الناعمة لتنفس منتظم. تعجبت، أهو ديك؟ ولكنه عاد يغمغم مرة أخرى، وبينما قام الزنجى ليعيد ترتيب الأغطية، توقف صوت التنفس. عاد موسى، ومرة أخرى سمعت انزلاق ظهره على الجدار؛ وبدأ التنفس المنتظم مرة أخرى: لقد كان هو! مرات عديدة سمعت ديك يتحرك وينادى، بذلك الصوت الثقيل الذى لم يكن صوته، بل كان يأتى من هذيانه المريض، وفى كل مرة كان الزنجى ينتفض ليذهب إلى الفراش. وفى الأثناء، كانت تتسمع إلى ذلك التنفس الناعم الذى بدا وهى تتقلب فى قلق وكأنه يأتى من كل مكان فى الغرفة، فى البداية من جوار أريكتها بالضبط، ثم من ركن مظلم أمامها. ولم تكن تستطيع تحديد مكانه بالضبط إلا عندما تنقلب وتواجه الجدار. وفى هذا الوضع سقطت نائمة، منحنية فى مواجهة الجدار وكأنها تتسمع من ثقب مفتاح.

كان نوما مضطربًا، غير مريح، تقطعه الأحلام. مرة بدأت تستيقظ على حركة، ورأت الكتلة القاتمة

للرجل يفتح الستائر. أمسكت نفسها، ولكنه، على صوت حركتها، حول عينيه بسرعة ناحيتها، ثم بعيدًا؛ ثم مر بدون صوت خارجا من الباب الآخر إلى المطبخ. كان فقط يخرج لدقائق قليلة ليؤدى بعض أعماله. تابعه عقلها وهو يعبر المطبخ، ويفتح الباب، ويختفى فى الظلام وحده. ثم أدارت رأسها إلى الوسادة مرة أخرى، مرتعدة، كما حدث عندما تخيلت رائحة ذلك الزنجى. فكرت: سرعان ما سوف يعود. رقدت ساكنة، لكى تبدو نائمة. لكنه لم يعد فورًا، وبعد دقائق قليلة من الانتظار، ذهبت إلى الغرفة المظلمة حيث كان ديك يرقد بلا حركة، أطرافه مرتبكة بشكل معذب. تحسست جبهته: كانت رطبة وباردة، فعرفت أن الوقت قد تجاوز منتصف الليل بمسافة. وقد أخذ الزنجى كل البطاطين من على مقعد، وكومها فوق الرجل المريض. والآن تحركت الستائر خلفها، واندفع إلى رقبتها نسيم بارد. أغلقت الضلفة القريبة من الفراش، ووقفت ساكنة، متسمعة إلى دقات الساعة التى بدت مرتفعة فجأة. وانحنت لتحدق فى قرصها الذى تنيره لمعة باهتة، ورأت أن الوقت لم يبلغ الثانية بعد، لكنها شعرت أن الليلة كانت مستمرة منذ وقت طويل جدًا. سمعت ضوضاء من الخلف وبسرعة، وكأنها مذنبة، ذهبت لترقد. ثم سمعت مرة أخرى الأقدام الجافة على الأرض وموسى يعبرها إلى مكانه على الجانب الآخر من الجدار، ورأته ينظر إليها ليرى إن كانت نائمة. والآن شعرت بأنها مستيقظة تماما، ولم تستطع

النوم. لقد كانت تشعر ببرد شديد، لكنها لم ترغب فى النهوض للبحث عن أغطية أخرى. ومرة أخرى تخيلت أنها شمت الرائحة القوية، ولكى تبدد الشعور حولت رأسها بخفة لترى الستائر تتحرك بينما كان هواء الليل المنعش يتدفق إلى الغرفة. كان ديك الآن ساكنًا تمامًا، ولم يكن ثمة صوت من الغرفة الأخرى سوى ذلك الإيقاع الضعيف للتنفس.

وغابت فى النوم، وهذه المرة جاءها الحلم فورًا، مرعبًا.

كانت طفلة مرة أخرى، تلعب فى الحديقة الصغيرة المتربة أمام بيت مرتفع من الخشب والحديد، مع بعض زملاء اللعب الذين كانوا فى الحلم بلا وجوه. وكانت الأولى فى اللعبة، قائدة، وكانوا ينادون اسمها، ويسألونها كيف يلعبون. وقفت بجوار نباتات الجيرانيوم ذات الرائحة القوية، فى الشمس، والأطفال كلهم حولها. وسمعت صوت أمها الحاد يناديها لتدخل، وذهبت ببطء من الحديقة إلى الشرفة. كانت خائفة. لم تكن أمها هناك، ومن ثم دخلت إلى الغرفة. وفى غرفة النوم، توقفت وقد أصابها غثيان. كان أبوها هناك، كان الرجل الضئيل ذو البطن المليئة بالسوائل، تنبعث منه رائحة البيرة ويحاول المزاح، ذلك الرجل الذى كرهته، يحمل أمها بين ذراعيه وهما يقفان بجوار النافذة. كانت أمها تجاهد فى اعتراض متصنع، مازح، لعوب. وانحنى

أبوها على أمها، وعند هذا المشهد، جرت مارى مبتعدة.

مرة أخرى كانت تلعب، هذه المرة مع أبويها وأخيها وأختها، قبل أن تذهب إلى الفراش. كانت لعبة الاستغماية، وكان دورها لتغطى عينيها بينما اختبأت أمها. كانت تعرف أن الطفلين الأكبر منها يقفان على جانب واحد يراقبان؛ كانت اللعبة طفولية للغاية بالنسبة لهما، وقد فقدا الاهتمام بها. كانا يضحكان عليها، وهى التى أخذت اللعب بجدية شديدة. أمسك أبوها برأسها وظل ممسكا بها فى حجره، وقد وضع يده الأخرى ليغطى عينيها، ضاحكًا ممازحا بصوت مرتفع على طريقة أمها فى الاختباء. شمت الرائحة المزعجة للبيرة، ومن خلالها شمت أيضًا - وقد أمسك برأسها داخل حجره - الرائحة الذكورية التى لا تذهب أبدًا، والتى كانت تربطها به دائما. كافحت لتحرير رأسها، لأنها كانت تكاد تختنق، وظل والدها ممسكا بها لأسفل، ضاحكا من جزعها. وضحك الطفلان الآخران أيضًا. واستيقظت من نومها صارخة، تحارب ثقل النوم فى عينيها، ممتلئة بالرعب من الحلم.

فكرت أنها كانت لا تزال متيقظة وترقد متصلبة على الأريكة تتسمع عمدًا للتنفس فى الغرفة المجاورة. استمر لفترة طويلة، بينما كانت تنتظر الخروج الناعم لكل زفير. ثم كان صمت. حدقت برعب متزايد حول الغرفة، لا تجد الجرأة على تحريك رأسها خشية إيقاظ الزنجى من خلال الجدار، وهى ترى الضوء

الكئيب يسقط فى دائرة على المنضدة، ينير وجهها الخشن. فى حلمها كانت هناك قناعة بأن ديك مات. ديك مات، وأن الرجل الأسود كان ينتظر قدومها فى الغرفة الأخرى. جلست ببطء، وهى تحرر قدميها من الثقل المتشبث للمعطف، محاولة التحكم فى رعبها. وكررت لنفسها أنه ليس هناك ما تخشاه. وأخيرًا استطاعت جمع ساقيها، وانزلتهما من على حافة الأريكة، بهدوء شديد، لم تجرؤ على إصدار صوت. مرة أخرى جلست ترتعد، محاولة تهدئة نفسها، حتى دفعت جسدها دفعًا للقيام والوقوف فى منتصف الغرفة، وهى تقيس المسافة بين نفسها وغرفة النوم، وترى الظلال فى الجلود المفروشة على الأرض برعب، لأنها بدت تتحرك مرتفعة نحوها فى تأرجح ضوء المصباح. وبدا جلد الفهد بالقرب من الباب يأخذ شكلاً ويمتلئ، وتحدق عيناه الزجاجيتان فيها. هربت إلى الباب هربًا منه. ووقفت بحذر، وهى تضع يدها لتفتح الستارة الثقيلة. وببطء اختلست النظر من فتحة الستارة. كل ما استطاعت أن تراه هو هيكل ديك راقدًا ساكنا تحت الأغطية. لم تستطع رؤية الإفريقى، لكنها كانت تعلم أنه كان بانتظارها هناك فى الظل. فتحت الستارة أكثر قليلا. والآن رأت ساقًا واحدة تمتد من الجدار داخل الغرفة، ساق ضخمة، أكثر من الحجم الطبيعى، ساق أحد العمالقة. تقدمت قليلا؛ والآن استطاعت أن ترى جيدًا. فى الحلم، شعرت بالتوتر والخذلان، لأن الزنجى كان نائمًا، متكورا ومستندا على الجدار، متعبا من الاستيقاظ

الطويل. جلس كما تراه أحيانًا جالسًا فى الشمس، ركبة واحدة مرفوعة، وذراعه يستريح عليها باسترخاء، كفه ملفوف والأصابع ملتوية لينة. والساق الأخرى، التى رأتها فى البداية، ممتدة لتصل تقريبًا إلى حيث كانت تقف، وعند قدميها، رأت البشرة السميكة لباطن قدمه، متجعدة وخشنة. كان رأسه منحنيا على صدره، يظهر رقبته السميكة. شعرت كما تشعر أحيانا وهى مستيقظة، عندما كانت تتوقع أن تجد أنه قد ترك شيئا لم يفعله، شيئا يأخذ أجرا عليه، ولكنها راحت تنظر، ووجدت كل شىء كما يجب أن يكون. تحول ضيقها من نفسها إلى غضب ضد الزنجى؛ والآن راحت تنظر نحو السرير مرة أخرى حيث يرقد ديك ممددا وبلا حركة. خطت فوق ساق العملاق الممتدة على الأرض، وتحركت بصمت حول الغرفة وظهرها إلى النافذة. وعندما انحنت فوق ديك شعرت بهواء الزنجى باردًا على كتفيها، وبغضب حاد قالت لنفسها إن الزنجى فتح النافذة مرة أخرى، وتسبب فى موت ديك متجمدا. وبدا ديك قبيحا. كان ميتا، أصفر الوجه، فمه متهدل ومفتوح وعيناه تحدقان. فى حلمها وضعت يدها لتتحسس بشرته. كانت باردة، ولم تشعر إلا بالارتياح والابتهاج. وفى الوقت نفسه شعرت بالذنب بسبب فرحتها، وحاولت أن تبعث فى نفسها الأسف الذى ينبغى أن تشعر به. وبينما وقفت، منحنية إلى الأمام فوق ديك الراقد ساكنا، عرفت أن الزنجى استيقظ فى صمت وكان يراقبها. وبدون أن تدير

رأسها، رأت من طرف عينها الساق العظيمة تسحب بنعومة، وعرفت أنه كان واقفًا فى الظل. ثم كان آتيا ناحيتها. وبدا وكأن الغرفة كانت كبيرة جدًا، وكان هو يقترب منها ببطء من على بعد مسافة هائلة. وقفت متجمدة من الرعب، والعرق البارد يجرى على جسدها كله، تنتظر. اقترب ببطء، قذرًا وقويا، ولم يكن هو وحده، لكن التهديد كان يأتى من أبيها أيضًا. تقدما نحوها معا، شخصًا واحدًا، واستطاعت أن تشم، ليس رائحة الزنجى، لكن تلك الرائحة الملتصقة بأبيها. ملأت الغرفة، قوية، كرائحة الحيوانات؛ وشعرت بركبتيها تتداعيان وأنفها يحاول أن يجد هواء نظيفًا ورأسها يدور. وانحنت للخلف وهى نصف مدركة واستندت على الجدار لكى لا تقع، وكادت تسقط من النافذة المفتوحة. اقترب منها ووضع يده على ذراعها. وسمعت صوت الإفريقى. كان يطيب خاطرها بسبب موت ديك، يعزيها بلهجة أبوية؛ ولكن فى الوقت نفسه كان أبوها هو الذى يهددها ويثير رعبها، والذى لمسها فى رغبة.

صرخت، وقد اكتشفت فجأة أنها كانت نائمة وتعانى كابوسا. صرخت وصرخت فى يأس، محاولة أن توقظ نفسها من ذلك الرعب. فكرت: لابد أن صرخاتى قد أيقظت ديك؛ وراحت تجاهد وسط رمال النوم. ثم كانت مستيقظة وجالسة، تلهث. كان الإفريقى واقفًا بجوارها، عيناه حمراوان ونصف نائم، حاملا إليها صينية بالشاى. كانت الغرفة مليئة بضوء

رمادى كثيف، والمصباح الذى كان لا يزال متوهجًا يرسل شعاعًا رفيعًا إلى المنضدة. ولدى رؤية الزنجى، ورعب الحلم لا يزال يستولى عليها، انتفضت خلفا إلى ركن الأريكة، وقد تسارع نفسها واضطرب، وجعلت تراقبه وقد تملكها خوف مذهل. وضع الصينية، بخرق، بسبب حالة التعب التى كانت تتملكه، وجاهدت مع عقلها لتفصل الحلم عن الواقع.

قال الرجل، وهو يراقبها باستغراب: "الرئيس نائم". وبهتت معرفتها بان ديك يرقد ميتًا فى الغرفة المجاورة. ولكنها لا تزال تراقب الرجل الأسود، متعبة، غير قادرة على الكلام. رأت الدهشة تملأ وجهه بسبب مظهر الخوف عليها، وراقبت ظهور تلك النظرة التى كثيرا ما رأتها مؤخرا، نصف ساخرة، متأملة، موجعة، وكأنه كان يحاول تكوين رأى عنها. فجأة قال بنعومة: "المدام خائفة منى، نعم؟" كان ذلك صوت الحلم، وقد سمعته، شعرت بجسدها يضعف ويرتعش. جاهدت لتتحكم فى صوتها، وتكلمت بعد بضع دقائق فى شبه همس: "لا، لا، لا. لست خائفة". ثم ثار جنونها من نفسها لإنكار شىء كانت لابد ألا تسمح أبدا بأن يكون ممكنا.

رأته يبتسم، وراقبت عينيه تسقطان على يديها، اللتين كانتا ترتعشان فوق حجرها. وتحركت عيناه فوق جسدها ببطء حتى وجهها، بين الكتفين المنحنيين، والطريقة التى كان جسدها يلتصق بالوسائد بحثا عن سند.

قال ببساطة، وبألفة: "لماذا المدام خائفة منى؟"

قالت بصوت شبه هستيرى، مرتفع الطبقة، ضاحكة بعصبية: "لا تكن سخيفا، لست خائفة منك". تحدثت بالطريقة التى يمكن أن تتحدث بها إلى رجل أبيض، شخص تعابثه إلى حد ما. وبينما سمعت الكلمات تخرج من فمها، ورأت التعبير على وجه الرجل، كاد يغمى عليها. رأته يوجه إليها نظرة طويلة، بطيئة، لا يمكن سبر غورها؛ ثم يستدير، ويخرج من الغرفة.

عندما ذهب، شعرت بأنها تخلصت من استجواب دقيق. جلست ضعيفة ومرتعشة، تفكر فى الحلم، محاولة أن تصفى ذهنها من ضباب الرعب.

بعد قليل صبت بعض الشاى، فسال بعضه داخل السكرية. ومرة أخرى، كما فعلت فى حلمها، أجبرت نفسها على الوقوف والمشى إلى الغرفة المجاورة. كان ديك نائما بهدوء، ويبدو فى حال أفضل. ودون أن تتحسسه تركته، خرجت إلى الشرفة، حيث مالت إلى الأمام فوق الحجارة الباردة للدرابزين، وأخذت نفسا عميقا من هواء الصباح البارد. لم تكن الشمس قد أشرقت بعد. وكانت السماء كلها صافية وبلا لون، وقد امتلأت بخطوط وردية من الضوء، ولكن كان الظلام لا يزال سائدا بين الأشجار الساكنة. استطاعت أن ترى دخانا باهتا يصعد فى دفعات من الأكواخ المتلاصقة للمجمع، وعرفت أنها لابد أن تذهب وتقرع الجرس لبدء العمل اليومى.

طوال ذلك اليوم جلست فى غرفة النوم كالمعتاد، تلاحظ ديك وهو يتحسن كل ساعة، رغم أنه كان لا يزال ضعيفا للغاية، لم يتحسن بما يكفى ليثير توترها.

لم تذهب للجولة فى المزرعة فى ذلك اليوم. وتجنبت الزنجى، شعرت بأنها غير واثقة من نفسها على الإطلاق، وليس لديها القوة لمواجهته. عندما غادر بعد الغداء لراحته اليومية، ذهبت مترددة إلى المطبخ، وكأنها تذهب خلسة، وصنعت بعض المشروبات الباردة لديك، وعادت تنظر خلفها وكأن هناك من يلاحقها.

فى تلك الليلة أغلقت كل أبواب البيت، وذهبت إلى الفراش بجوار ديك، وربما لأول مرة منذ زواجهما، شعرت بأن قربه منها نعمة.

وفى خلال أسبوع كان قد عاد إلى العمل.

ومرة أخرى، راحت الأيام تمر متقاطرة بسرعة، يوما بعد الآخر، الأيام الطويلة التى تقضيها وحدها فى البيت بينما كان ديك فى الأرض، وحدها مع الإفريقى. كانت تحارب شيئا لم تكن تفهمه. وبمرور الوقت أصبح ديك بالنسبة إليها شيئًا غير حقيقى بدرجة متزايدة؛ بينما كان تفكيرها فى الإفريقى يزداد تملكا لدرجة الهاجس. كان كابوسًا، الرجل الأسود القوى دائمًا فى البيت معها، وهكذا لم يكن ثمة مهرب من وجوده. لقد تملكها، ونادرا ما كان ديك إلى جانبها هناك.

ومنذ اللحظة التى تستيقظ فيها فى الصباح لتجد الزنجى يميل عليهما بالشاى، محولاً عينيه عن كتفيها العاريين، حتى وقت خروجه من البيت تمامًا، لم تكن قادرة على الشعور بالارتياح. كانت تؤدى عملها فى البيت فى خوف، محاولة أن تظل بعيدًا عن طريقه، لو كان فى غرفة كانت تذهب إلى الأخرى. لم تكن تنظر إليه؛ كانت تعرف أن التقاء عينيها بعينيه سيكون قاتلا، فالآن هناك دائما ذكرى خوفها، الطريقة التى تحدثت بها إليه فى تلك الليلة. اعتادت أن تملى أوامرها باستعجال، بصوت متوتر، ثم تسرع بترك المطبخ. كانت تكره سماعه يتكلم، لأنه الآن كان ثمة نغمة جديدة فى صوته: نغمة أليفة، شبه وقحة، مستبدة. عشر مرات كانت على وشك أن تقول لديك: "لابد أن يذهب". لكنها لم تجرؤ أبدا. دائما كانت توقف نفسها، غير قادرة على تحمل الغضب الذى قد يتبع ذلك. لكنها كانت تشعر وكأنها داخل نفق معتم. تقترب من شىء نهائى، شىء لم تستطع أن تتخيله، لكنه كان ينتظر هناك بعناد كشىء لا مفر منه. وفى موقف موسى، فى الطريقة التى كان يتحرك بها أو يتحدث بها، بتلك السهولة، والثقة، والعجرفة الرفيقة، كان يمكنها أن تعرف أنه كان ينتظر أيضًا. لقد كانا مثل خصمين يتناوشان بصمت. إلا أنه كان قويًا وواثقًا من نفسه، وهى كانت قد أضعفها الخوف، والليالى المليئة بالأحلام المرعبة، وبهواجسها.

- ١٠ -

إن الناس الذين يعيشون من أجل أنفسهم، سواء كان ذلك اختيارا أم اضطرارا، والذين لا يجشمون أنفسهم مشقة معرفة أحوال جيرانهم، دائما ما يربكهم ويقلقهم إن عرفوا عن طريق الصدفة أن الآخرين يتحدثون عنهم. وكأن رجلا نائما يستيقظ ويجد حول فراشه دائرة من الغرباء يحدقون فيه. كان آل تيرنر، اللذان ربما كانا يعيشان فى القمر بالنسبة لكل الأفكار التى تعنيهما فيما يخص "المنطقة"، قد يثير دهشتهما أن يعرفا أنهما لسنوات كانا مصدر النميمة بين المزارعين حولهما. حتى أولئك الذين يعرفونهم بالاسم فقط، أو أولئك الذين لم يسمعوا عنهم أبدا، كانوا يناقشونهم عن معرفة حميمة كانت بكاملها مستمدة من آل سلاتر. كان ذلك كله خطأ آل سلاتر. ولكن كيف يمكن أن نلومهم؟ لا أحد يعتقد حقا فى الطبيعة الخبيثة للنميمة، إلا أولئك الذين يعرفون كم عانوا هم أنفسهم منها؛ وربما كان آل

سلاتر يصرخون، لقد عانوا من التحدى: "نحن لم نقل إلا الحقيقة" ـ لكن بذلك السخط المدرك لمن يعترف بخطيئته. لقد كانت مسز سلاتر امرأة غير عادية فى قدرتها على أن تظل نزيهة وعادلة وواضحة مع مارى، بعد أن تعرضت للصد منها مرات كثيرة. فقد قامت بمحاولات متكررة لتخرج مارى من عزلتها، كما تقول. وعندما شعرت بكبرياء مارى الشديد (وهى نفسها كان لديها الكثير منه)، وجهت إليها الدعوة مرة بعد المرة إلى حفلة، أو إلى مساء للعب التنس، أو إلى رقص ترفيهى. وحتى بعد مرض ديك للمرة الثانية، حاولت أن تجعل مارى تخرج من عزلتها: كان الطبيب ساخرا بدرجة مرعبة حول الطريقة التى كان آل تيرنر يدبرون أحوالهم بها. ولكن دائما كان يتلقى تلك الملاحظات المقتضبة الفظة من مارى (لم يكن آل تيرنر لديهم تليفون، بينما كان الجميع لديهم، بسبب النفقات) تلك الملاحظات التى كانت تجاهلا متعمدا لشخص يمد إليهم يده. وعندما كانت مسز سلاتر تلتقى بمارى فى الدكان فى يوم البريد، دائما ما كانت تطلب منها، بعطف لا يمكن أن تخطئه العين، أن تأتى لزيارتها. وكانت مارى دائما ترد بجفاء أنها كانت تود ذلك، ولكن "ديك مشغول فى الوقت الحالى". لكن مر وقت طويل منذ رأى أحد مارى أو ديك فى المحطة.

كان الناس يتساءلون "ماذا يفعلان؟" فى بيت آل سلاتر كان الناس دائما يسألون ماذا يفعل آل تيرنر. وكانت مسز سلاتر، والتى كانت تتمتع بحس الدعابة

والصبر قد يئست منذ وقت طويل، ومن ثم فقد كانت مستعدة لإخبارهم. فى إحدى المرات كان خبر هروب مارى من زوجها. ولكن هذا لابد مرت عليه ست سنوات الآن. وكان تشارلى سلاتر يقاطعها متدخلا، ليروى قصته كيف وصلت مارى بدون قبعة وفى حالة سيئة للغاية، بعد أن سارت "وحدها" عبر المروج (رغم أنها كانت امرأة)، وسألته أن يأخذها فى سيارته إلى المحطة. "ومن أين لى أن أعلم أنها كانت هاربة من تيرنر؟ لم تقل لى هى. وقد ظننت أنها ذاهبة لبعض المشتريات، وأن تيرنر كان مشغولاً. وعندما جاء تيرنر، يكاد يجن قلقا، كان لابد أن أخبره أننى أوصلتها. ما كان ينبغى لها أن تفعل هذا. لم يكن هذا هو التصرف الصحيح". وبمرور الوقت كبرت القصة ونالتها تشوهات كثيرة. لقد هربت مارى من زوجها فى منتصف الليل لأنه حبسها، ولجأت إلى آل سلاتر، واقترضت بعض النقود منهم لتذهب. وجاء ديك فى الصباح التالى باحثا عنها ووعد ألا يسىء معاملتها مرة أخرى. كانت تلك هى القصة التى تم تداولها فى كل منطقة مع ما يصاحبها من هز الرءوس وطقطقة الألسنة. لكن عندما بدأ الناس يقولون أن سلاتر ضرب تيرنر بالكرباج، كان الأمر أكبر من اللازم: وتضايق تشارلى. كان يحب ديك، رغم أنه يزدريه. كان متضايقا فقط من أجل ديك. وبدأ يطلع الناس على القصة الصحيحة للفضيحة. وراح يكرر باستمرار أن ديك كان ينبغى أن يترك مارى تذهب. لقد كانت

فرصة للخلاص. ولكنه لم يكن واعيا، ولا يعرف متى يكون محظوظا. وهكذا، ببطء، وبفضل تشارلى، انقلب الأمر. وأصبح الشجب موجها إلى مارى، والمقت واللعنة من نصيبها. وتمت تبرئة ديك. ولكن بالنسبة لمارى وديك، كانا على جهل تام بكل ذلك الاهتمام والكلام. ولابد أن يحدث ذلك، حيث ظلا يقتصران على المزرعة لسنوات.

كان السبب الحقيقى فى أن آل سلاتر، خاصة تشارلى، ظلوا مهتمين بآل تيرنر، هو أنهم لا يزالون يريدون مزرعة ديك: أكثر حتى من قبل. وحيث كان تدخل تشارلى الذى ساهم فى المأساة، رغم أنه لا يمكن لومه على ذلك، فمن الضرورى شرح زراعته. مثلما أنتجت الحرب العالمية الثانية بارونات التبغ ذوى الثروات الخيالية، كذلك أثرت الحرب العالمية الأولى كثيرًا من المزارعين بسبب الارتفاع الحاد فى أسعار الذرة. وحتى الحرب العالمية الأولى، كان سلاتر فقيرا؛ وبعدها، وجد نفسه ثريا. وبمجرد أن يثرى الرجل، عندما يكون لديه طباع سلاتر، فهو يزداد ثراء على ثرائه. كان حريصا على ألا يستثمر نقوده فى الزراعة: فهو لم يكن يثق بالزراعة كاستثمار. وأى ربح زائد كان يذهب إلى أسهم التعدين؛ ولم يكن يحسن من مزرعته أكثر من الضرورى بهدف أن يكسب نقودا منها. كان لديه خمسمائة إيكر من أجمل الأراضى السمراء وأغناها، والتى كانت فيما سبق تنتج من خمسة وعشرين إلى ثلاثين جوالا من الذرة فى الإيكر. سنة

بعد سنة اعتصر تلك التربة، حتى كان الآن يحصل على خمسة أجولة فى الإيكر إن كان محظوظا. ولم يكن يحلم بالتسميد أبدا. قطع أشجاره (كما ظلت عندما انتهت شركات التعدين منها) ليبيع نار خشبًا للنار. ولكن حتى مزرعة ثرية مثل مزرعته كانت قابلة للاستهلاك؛ وبينما لم يعد مطلوبا منه أن يكسب آلافا كل عام، كانت تربته قد استهلكت، وأراد المزيد. كان موقفه من الأرض من الناحية الجوهرية مثل موقف الزنوج الذين كان يحتقرهم: كان يريد أن يستغل رقعة من الأرض ثم ينتقل إلى التالية. وقد زرع وزرع كل التربة. وكان بحاجة إلى مزرعة ديك بشدة، لأن المزارع التى تجاور مزرعته على الجانب الآخر كانت قد بيعت. وكان يعلم بالضبط ما يريد أن يفعل بها. كانت مزرعة ديك تتكون من قليل من كل شىء. كان لديه مئات الإيكرات من تلك التربة السمراء الرائعة؛ ولم تكن مستهلكة، لأنه كان يرعاها. كان لديه القلق من التربة الصالحة لزراعة التبغ. وكان الباقى مناسبا لرعى الحيوانات.

كان الرعى هو ما يريده تشارلى. لم يكن يؤمن بتدليل الماشية بإطعامها فى الشتاء. كان يرسلها لترعى بنفسها، وقد كان ذلك جيدا عندما تكون هناك حشائش جيدة، ولكن ماشيته كانت كبيرة العدد، والمرعى كان ضعيفًا وفقيرًا. ومن ثم فإن ديك هو المخرج. ولسنوات ظل تشارلى يخطط لوقت أن يفلس ديك. لكن ديك رفض بعناد أن يفلس. كان الناس يسألون بنزق: "كيف يفعل هذا؟" فقد كان الجميع

يعرفون أنه لا يكسب أية نقود، فهو دائما يعانى من فصول سيئة، ودائما مدين. قالت مسز سلاتر بغيظ: "لأنهما يعيشان كالخنازير ولا يشتريان أى شىء أبدا"، فبحلول هذا الوقت، كانت قد فقدت اهتمامها، ولتذهب مارى إلى الجحيم.

ربما ما كانا ليشعرا بكل هذا السخط والاهتياج لو كان ديك واعيا بشكل مناسب بفشله. لو كان قد جاء إلى تشارلى وطلب المشورة. ولو كان ديك قد ناشده بقدر طاقته، لكان الأمر مختلفا. لكنه لم يفعل. لقد ظل منغلقا على ديونه ومزرعته، وتجاهل تشارلى. والذى خطر له فى يوم من الأيام أنه لم ير ديك منذ ما يزيد على عام. عندما أشار إلى ذلك، قالت مسز تشارلى: "ما أسرع ما يمر الوقت". لكن بعد أن فكرا فى الأمر، اتفقا على أنه قد مر تقريبا عامان؛ فالوقت فى المزرعة له طريقة لإطالة مروره بدون أن يلحظه الإنسان. فى نفس ذلك المساء قاد تشارلى السيارة إلى منزل آل تيرنر. كان يشعر ببعض الذنب. لقد كان دائما يعتبر نفسه المعلم الخاص لديك، كما يفعل رجل صاحب خبرة أطول ومعرفة أكبر. وشعر ببعض المسئولية عن ديك، الذى كان يراقبه من وقت لآخر منذ بدأ يزرع. وفى الطريق، ظل يلاحظ بعين حادة علامات الإهمال. لم تكن الأمور أسوأ ولا أفضل. كانت حواجز النار حول الحدود هناك، لكنها قد تحمى المزرعة من نار صغيرة بطيئة، وليس من نار كبيرة تدفعها الريح. مظلات الأبقار، رغم أنها لم

تسقط بالفعل، إلا أنها مدعومة بأعمدة خشبية، والأسقف القش كانت مرقعة مثل جوارب مرتقة، والحشائش من كل الألوان ومراحل النمو تمتد دون ترتيب على الأرض فى رقع غير مهذبة. والطريق بحاجة إلى تصريف: كان فى حالة يرثى لها. والمنطقة الكبيرة المزروعة بأشجار الصمغ والتى كان الطريق يمر بها، كانت قد أصيبت بحريق من حرائق البرارى فى أحد أركانها؛ ووقفت باهتة أشبه بالأشباح، جذوعها محترقة سوداء.

كل شىء كان فى نفس الحال: متداعيا، ولكن ليس ميئوسًا منه تماما.

وجد ديك جالسًا على حجر كبير عند أكواخ التبغ، والتى كانت تستخدم الآن كمظلات للخزين، يراقب العمال وهم يكدسون إمدادات العام من الدقيق بعيدًا عن تناول النمل على شرائط حديدية ممددة فوق دعائم من الطوب. كان ديك قد جذب قبعته المتخبطة الخاصة بالمزرعة فوق وجهه، ونظر لأعلى ليومئ لتشارلى، الذى وقف إلى جانبه، يراقب العمليات الجارية، وقد ضاقت عيناه؛ ولاحظ أن الأجولة التى وضع فيها الدقيق كانت فى حالة سيئة بسبب القدم والغالب أنها لن تحتمل حتى آخر الموسم.

سأل ديك: "ماذا يمكننى أن أفعل لك؟"، بأدبه الدفاعى المعتاد. لكن صوته كان غير واثق، وبدا صوتًا لا يستخدم كثيرًا. وكانت عيناه تجحظان بشكل مؤلم من تحت ظل قبعته، لامعتان وقلقتان.

قال تشارلى بمودة: "لا شىء"، وهو يوجه له نظرة بطيئة مثيرة للتوتر: "جئت فقط لأرى كيف حالك. لم أرك منذ أشهر".

ولم تكن ثمة إجابة. كان الأهالى ينهون العمل. وقد غربت الشمس، تاركة بعض اللون الأحمر المالح على الروابى، وكان الغسق يزحف على الحقول من أطراف الأدغال. كان المجتمع ظاهرا بين الأشجار على بعد نصف ميل كمجموعة من الأشكال المخروطية، ينبعث منه دخان خفيف، وكان ثمة لمعان نار خلف الجذوع القاتمة. كان هناك من يدق على طبل؛ وبدا صوت الطبل المنتظم إعلانا لنهاية اليوم. كان العمال يؤرجحون جاكيتاتهم على أكتافهم، وينتظمون سائرين على حافة الأرض. قال ديك: "حسنًا"، وهو ينهض بحركة متصلبة مؤلمة، "ها هو يوم آخر انقضى". وارتعش بشدة. نظر تشارلى إليه: يدان مرتعشتان فى نحافة عموده الفقرى؛ وكتفان نحيفان محنيان فى ارتعاشة ثابتة. وكان الجو شديد الحرارة: كانت الأرض تبعث حرارة والشفق الأحمر فى السماء أشبه بالنار. سأل تشارلى: "هل أنت مصاب بالحمى؟"

"لا، لا أظن ذلك. إن الدم يصبح واهنا بعد كل هذه السنوات".

تمتم تشارلى: "إن هناك ما هو أكثر من مجرد الوهن". وبدا أنه يحرز انتصارًا شخصيًا لأن ديك مصاب بحمى. إلا أنه نظر إليه بعطف، ووجهه الكبير

كث الشعر وملامحه المنسحقة قليلا تبدو ثابتة وذات مغزى. "ألا تصاب بالحمى كثيرا هذه الأيام؟ هل أصبت بها منذ أحضرت الطبيب ليراك؟"

قال ديك: "إننى أصاب بها كثيرًا هذه الأيام. أصاب بها كل عام. وأصبت بها مرتين فى العام الماضى".

"هل تعتنى بك زوجتك؟"

ظهرت نظرة قلقة على وجه ديك، وقال: "نعم".

"كيف حالها؟"

"تبدو كما هى".

"هل كانت مريضة؟"

"لا، ليست مريضة. لكنها ليست على ما يرام. تبدو عصبية. متهالكة. ظلت طويلاً تأتى للمزرعة". ثم، فى حالة من الاندفاع، وكأنه لا يستطيع الاحتفاظ بالأمر لنفسه لحظة أخرى: "إننى شديد القلق عليها".

"ولكن ما المشكلة؟" بدا تشارلى حياديًا؛ إلا أنه لم يرفع عينيه لحظة واحدة من على وجه ديك. كان الرجلان لا يزالان واقفين فى الغسق تحت الظل المستطيل لمخزن الحبوب. وانبعثت رائحة رطبة حلوة من الباب المفتوح؛ رائحة ذرة مطحونة طازجة. أغلق ديك الباب، الذى كان خارجًا عن مفصلاته إلى حد ما، برفعه إلى مكانه بكتفه. وأغلق القفل. كان هناك مسمار واحد فى الحافة المثلثة لمشبك الباب: إن رجلا قويا يستطيع خلعه من الإطار. وسأل تشارلى: "هل

ستأتى معى إلى المنزل؟" أومأ تشارلى، ثم تساءل، وهو ينظر حوله: "أين سيارتك؟"

"أوه، إننى أسير هذه الأيام".

"بعتها؟"

"نعم، إن تسييرها يكلف الكثير. إننى أرسل العربة ذات الجياد إلى المحطة الآن عندما أريد شيئًا".

ركبا فى سيارة تشارلى الضخمة، والتى كانت تهتز وتترجرج فوق الطريق المتعرج الذى كان صغيرا عليها. كانت الحشائش تعود إلى النمو على الطريق الآن بعد أن أصبح ديك بلا سيارة.

وبين المرتفع الواطئ المغطى بالأشجار الذى كان البيت فوقه، وحيث تقف مخازن الحبوب بين الأحراش، امتدت أراض لم تزرع. كانت تبدو وكأنها قد سُمح لها بأن ترقد فى حالة من الراحة، لكن تشارلى، وهو ينظر عن قرب من خلال ضوء الغسق المعتم، استطاع أن يرى بين الحشائش والشجيرات القصيرة ذرة ضعيفة تجاهد للنمو. فكر فى البداية أنها تطلع بشكل برى؛ لكنها بدت مزروعة بشكل منتظم. سأل: "ما هذا؟ ما الفكرة؟"

"إننى أجرب فكرة جديدة من أمريكا".

"أية فكرة؟"

"قال الرجل إنه لا حاجة لحرث الأرض أو العناية بها. الفكرة هى زراعة الحبوب بين خضرة طبيعية عادية، وتركها تنمو من نفسها".

"ولم تفلح، هه؟"

قال ديك بصوت خال من التعبير: "لا. لم أهتم بحصادها. فكرت أن الأفضل أن أتركها لتفيد الأرض...." كان صوته مهتزا.

قال تشارلى باختصار: "تجريب". المهم أنه لم يبد عليه السخط أو الغضب. بل بدا متأملاً؛ ولكنه ظل ينظر بفضول، بنوع من القلق، إلى ديك، الذى كان وجهه عنيدًا وبائسًا. "ماذا كان ما تقوله عن زوجتك؟"

"إنها ليست فى حالة طيبة".

"ولكن لماذا، يا رجل؟"

مرت هنيهة دون أن يجيب ديك. مرا من الأراضى المفتوحة، حيث كان وهج المغرب الذهبى لا يزال يتلكأ على الأوراق، إلى الدغل، حيث كان الغسق قاتما. وأزت السيارة الكبيرة وهى تصعد التل، الذى كان منحدرًا بشدة، حتى بدت مقدمة السيارة تصعد فى السماء. وأخيرا قال ديك: "لا أعرف، إنها مختلفة فى الفترة الأخيرة. أحيانا أفكر أنها أفضل حالا. من الصعب أن تعرف كيف هن النساء. إنها ليست فى نفس الحال".

أصر تشارلى: "ولكن بأية طريقة؟"

"حسنًا، على سبيل المثال. عندما جاءت إلى المزرعة لأول مرة، كانت أكثر حيوية. ويبدو أنها لا تهتم. إنها لا تهتم بأى شىء. لا تفعل شيئا سوى مجرد

الجلوس. إنها حتى لا تهتم بالدجاج والأشياء من هذا النوع. إنك تعرف أنها كانت معتادة على إنتاج مجموعة منها كل شهر أو ما إلى ذلك. وهى لا تهتم ماذا يفعل الخادم فى البيت. قبل ذلك، كادت تدفعنى إلى الجنون بإزعاجها المتواصل. شكاوى وإزعاج وتذمر مستمر، كل يوم. إنك تعرف كيف يكون حال النساء عندما يستمر بهن الحال طويلا فى المزرعة. لم يعد لديها تحكم فى نفسها".

قال تشارلى: "لا توجد امرأة تعرف كيف تتعامل مع الزنوج".

قال ديك ضاحكا ضحكة بائسة: "حسنا، إننى قلق للغاية، ينبغى أن أكون مسرورًا جدا وهى لا تتذمر".

قال تشارلى فجأة: "اسمع يا تيرنر، لماذا لا تتخلى عن هذا العمل وتخرج من المكان؟ إنك لا تفعل شيئا مفيدا لنفسك أو لزوجتك".

"أوه، إننا نعيش".

"إنك مريض يا رجل".

"أنا بخير".

توقفا خارج البيت. جاء من الداخل بصيص ضوء، لكن مارى لم تظهر. وأضىء ضوء ثان فى غرفة النوم. وثبت ديك عينيه عليه. وقال وقد بدا مسرورا: "إنها تغير ثوبها، لا أحد يزورنا هنا منذ مدة طويلة".

"لماذا لا تبيع لى؟ سوف أعطيك سعرا طيبا لها".

سأل ديك متعجبا: "وأين أذهب؟"

"اذهب إلى المدينة. اخرج من الأرض. إنك غير ناجح مع الأرض. احصل لنفسك على عمل ثابت فى مكان ما".

قال ديك متضايقا: "إننى قادر على تسيير أحوالى".

ظهر هيكل نحيف لامرأة فى الشرفة، يحدده الضوء من خلفها. نزل الرجلان من السيارة ودخلا.

"مساء الخير، مسز تيرنر".

قالت مارى: "مساء الخير".

تفحصها تشارلى جيدًا عندما أصبحوا داخل الغرفة المضيئة، تفحصها جيدًا بسبب الطريقة التى قالت بها "مساء الخير". ظلت واقفة فى حالة ارتياب أمامه، امرأة تشبه عصا جافة، شعرها حولته الشمس إلى كتلة متفاوتة الألوان تقع حول وجه مهزول، وقد ربطته على قمة رأسها بشريط أزرق. ونتأت رقبتها النحيفة المصفرة من ثوب يبدو أنها لبسته حالاً. كان ثوبا من القطن المكشكش أرجوانى اللون؛ وتدلى من أذنيها قرط طويل أحمر يشبه الحلوى المغلية، ظل ينقر بخفة على رقبتها فى هزات متأرجحة قصيرة. عيناها الزرقاوان، اللتان كانتا يوما تدلان أى أحد يتكلف مشقة النظر إليهما أن مارى تيرنر لم تكن حقًا

"متعجرفة"، ولكنها شخصية خجولة، ذات كبرياء، وحساسة، هاتان العينان كان فيهما ضوء جديد. قالت بطريقة صبيانية: "يا إلهى، مساء الخير، مستر سلاتر، لم يسعدنا الحظ برؤيتك منذ فترة طويلة". وضحكت، وهى تهز كتفيها فى محاكاة مرعبة لدلال المرأة.

حول ديك عينيه عنها، متألما. وحدق تشارلى فيها باستغراب: ظل يحدق ويحدق حتى فى النهاية احمر وجهها ووحولته بعيدًا، وهى تهز رأسها. وقالت لديك بمودة: "مستر سلاتر لا يحبنا، وإلا لكان يأتى لزيارتنا أكثر من ذلك".

جلست فى ركن الأريكة القديمة، التى تغير شكلها وأصبحت شيئا من المرتفعات والمنخفضات بقطعة من القماش الأزرق الباهت ممددة عليها.

وقال تشارلى وهو ينظر إلى هذا القماش: "كيف يسير الدكان؟"

قال ديك بفظاظة: "لقد تخلينا عنه، لم يكن يربح. إننا نستهلك المخزون بأنفسنا".

نظر تشارلى إلى قرطى مارى، وغطاء الأريكة، والذى كان من النوع الذى يباع عادة للأهالى، أزرق مشجر قبيح أصبح معتادا فى جنوب إفريقيا، وأصبح مرتبطا دائما "بالسيارة الكفيرية"، وشعر تشارلى بصدمة لرؤيته فى بيت رجل أبيض. نظر حوله فى المكان عابسا. كانت الستائر ممزقة؛ وكان أحد ألواح

الزجاج فى الشباك مكسوراً وتم ترقيعه بالورق؛ ولوح آخر مشروخ ولم يصلح على الإطلاق؛ كانت الغرفة منهارة بشكل لا يوصف، وباهتة. إلا أنه فى كل مكان كان ثمة أشياء صغيرة من الدكان، كسوة سيئة التهذيب لظهر مقعد، أو مطوية لتقوم بعمل حشية المقعد. وكان يمكن أن يفكر تشارلى أن هذا الدليل الصغير على الرغبة فى الحفاظ على المظاهر علامة طيبة؛ لكن كل قدراته على الدعابة الخشنة، والمسيئة أحيانا، اختفت؛ كان صامتا، واسودت جبهته.

سأل ديك أخيرا: "هل تحب أن تبقى لتناول العشاء؟"

قال تشارلى: "لا، شكرا"؛ ثم غير رأيه بدافع من الفضول، وقال: "نعم، سوف أبقى".

وبدون وعى من الرجلين، كانا يتحدثان وكأنما هما فى حضرة شخص لا أهمية له؛ قامت مارى من مقعدها، ونادت وهى على الباب: "موسى! موسى!"

وعندما لم يظهر الزنجى، التفتت وابتسمت لهما برقة اجتماعية، وقالت: "عذرا، لكنكما تعرفان كيف هم هؤلاء الأولاد".

خرجت من الغرفة. وساد الصمت بين الرجلين. كان وجه ديك يتجنب نظرات تشارلى، الذى لم يكن مقتنعا أبدا بضرورة التزام اللباقة، فظل يحدق عامداً فى ديك، وكأنما يحاول إجباره على تقديم بعض الشرح أو قول تصريح ما.

كان العشاء، الذى قدمه موسى، يتكون من صينية شاى، وبعض الخبز وزبد يبدو فاسد الرائحة إلى حد ما، وقطعة غليظة من اللحم البارد. لم تكن آنية واحدة سليمة؛ وأحس تشارلي بأن السكين التى يحملها ملوثة ببعض الدهون. أكل فى نفور، دون أن يبذل أى جهد لإخفاء هذا الشعور، بينما التزم ديك الصمت، وظلت مارى تلقى بملاحظات مفاجئة لا علاقة بينها حول الطقس بتلك الرقة المصطنعة المروعة، وهى تهز قرطيها، وتلوي كتفيها النحيفين، وترمق تشارلى بنظرات المودة التقليدية الرسمية المتصنعة.

ولم يستجب تشارلى لكل هذا. كان يقول: "نعم، مسز تيرنر. لا، مسز تيرنر"، وينظر إليها ببرود، بعينين ملأهما الازدراء والكراهية بنظرة قاسية.

وعندما جاء البلدى لإخلاء المائدة من الأطباق، حدث أمر تسبب فى شعور تشارلى بأسنانه تصطك وابيض وجهه غضبا. كانوا جالسين أمام البقايا الشحيحة للوجبة، بينما كان الخادم يتحرك حول المائدة، يجمع الأطباق معا بإهمال. لم يكن تشارلى يلقى إليه بالا، بل كاد لا يلاحظه إلا لماما. ثم سألته مارى:

"هل تحب بعض الفاكهة يا مستر سلاتر؟ موسى، احضر البرتقال. أنت تعرف أين هو". نظر تشارلى إليها، بينما كانت أسنانه لا تزال تتحرك ببطء على الطعام فى فمه، وقد التمعت عيناه وانتبهتا؛ كان

صوت ماري وهى تتحدث إلى الزنجى هو ما صدمه وفاجأه: لقد كانت تحدثه بنفس طريقة الدلال الخجول التى تتحدث بها إلى تشارلى نفسه.

أجاب الزنجى، بصوت خشن تلقائى وقح: "البرتقال خلص".

"أعرف أنه لم يخلص. لا تزال هناك اثنتان. أعرف أنهما لم يؤكلا". كانت مارى تناشد، ناظرة لأعلى إلى الخادم، وتبدو ميالة إلى تصديقه.

كرر قائلاً: "البرتقال خلص"، وكان صوته يحمل تلك التلقائية الوقحة والمحملة بنغمة من الرضا عن النفس، من القوة الواعية التى جعلت تشارلى يشعر بأنه يكاد يتوقف عن التنفس. نظر إلى ديك، الذى كان جالسا يحدق فى يديه؛ وكان من المستحيل أن يعرف فيم يفكر، أو إذا ما كان قد لاحظ شيئًا على الإطلاق. نظر إلى مارى: كانت بشرتها الصفراء المتغضنة قد توردت بلون قبيح تحت العينين، والتعبير على وجهها كان تعبير خوف لا تخطئه العين. وبدا أنها فهمت أن تشارلى قد لاحظ شيئا، فظلت تنظر إليه بابتسامة من يشعر بالذنب.

أخيرا سأل تشارلى: "منذ متى يعمل هذا الولد عندك؟"، وهو يشير برأسه إلى موسى، الذى كان يقف فى فتحة الباب حاملا الصينية، يستمع بوضوح. ألقت مارى إلى ديك بنظرة ملؤها اليأس.

قال ديك بصوت خال من التعبير: "أظن... حوالى أربع سنوات".

"ولماذا تحتفظ به؟"

قالت ماری، وهی تهز رأسها: "إنه ولد طيب، إنه يعمل جيدا".

قال تشارلی بتبلد: "لا يبدو كذلك"، وهو يواجهها بنظراته. لكن نظراتها كانت مراوغة، مضطربة، وفى نفس الوقت كان ينبعث من عينيها وميض من ارتياح سرى جعل الدم يصعد فى رأس تشارلی. "لماذا لا تتخلصان منه؟ لماذا تتركيه يتحدث إليك بهذه الطريقة؟"

لم تجب ماری. أدارت رأسها، وكانت تنظر من فوق كتفها إلى فتحة الباب حيث كان موسى يقف؛ وقد ظهرت على وجهها بلاهة قبيحة جعلت تشارلی يزعق فجأة فی الزنجی: "اذهب من هناك. اذهب لترى ما عليك أن تعمله".

اختفى الزنجى الضخم، مستجيبا فورا إلى الأمر. ثم ساد صمت. كان تشارلی ينتظر من ديك أن يتكلم، أن يقول شيئا يظهر أنه لم يستسلم تماما. لكن رأسه كانت لا تزال محنية، فى وجهه معاناة صامتة. وأخيرا وجه تشارلی الكلام مباشرة إليه، متجاهلاً ماری وكأنها لم تكن موجودة على الإطلاق: "تخلص من هذا الولد، تخلص منه يا تيرنر".

وجاءته الإجابة البطيئة الجوفاء: "إنه يعجب ماری"

"تعال إلى الخارج، أريد أن أتحدث إليك".

رفع ديك رأسه، ونظر إلى تشارلى ممتعضًا؛ كان يكره أن يجد نفسه مجبرا على ملاحظة شىء يريد تجاهله. لكنه حرك جسده مطيعا من المقعد وتبع تشارلى إلى الخارج. نزل الرجلان درجات الشرفة الخارجية، وسارا حتى ظلال الأشجار.

قال تشارلى باقتضاب: "لابد أن تغادر هذا المكان".

قال ديك بهمة فاترة: "كيف أستطيع هذا؟ كيف أستطيع وأنا لا أزال غارقا فى الدين؟" ثم، وكأن المسألة لا تزال مسألة نقود، ولا شىء آخر، قال: "أعرف أن الناس يبدو أنهم لا يقلقون. أعرف أن الكثير من المزارعين يعانون من صعوبات مثلى ولكنهم يشترون سيارات ويذهبون لقضاء الإجازات. ولكنى لا أستطيع ذلك يا تشارلى. لا أستطيع أن أفعل ذلك. ليست هذه طبيعتى".

قال تشارلى: "سوف أشترى منك مزرعتك يا تيرنر، ويمكنك أن تبقى فيها كمدير. لكنك لابد أن تذهب من هنا فى إجازة، لمدة ستة أشهر على الأقل. لابد أن تذهب بزوجتك بعيدا".

كان يتكلم وكأنه لا مجال للرفض لقد أخرجته الصدمة من حالة الاهتمام الشخصى بالمزرعة. ولم تكن حتى الشفقة على ديك هى التى تحركه. لقد كان هنا يطيع ما يمليه البند الأول من قانون الحياة فى

جنوب إفريقيا البيضاء، وهو: "لا تترك مواطنك الأبيض يغرق تحت نقطة معينة؛ لأنك إذا فعلت، فسوف يعرف الزنجى أنه مثلك تماما وقادر على فعل ما تفعله". كانت أقوى عواطف مجتمع منظم بقوة هى التى تتحدث بصوته الآن، وقد جردت ديك من أى مقاومة. فهو، على أية حال، كان يعيش فى البلاد طوال حياته؛ وشعر بالخزى يضعف قواه؛ كان يعرف ما هو متوقع منه، وأنه قد فشل. لكنه لم يستطع أن يقنع نفسه بقبول إنذار تشارلى. لقد شعر أن تشارلى يطلب منه أن يتخلى عن حياته نفسها، والتى كانت بالنسبة له هى المزرعة وملكيته لها.

"سآخذ هذا المكان بكل ما فيه وكما هو، وأعطيك ما يكفى للتخلص من ديونك. وسوف أوظف مديرًا يديره حتى تعود من الساحل. لابد أن تذهب بعيدًا لستة أشهر على الأقل، يا تيرنر. لا يهم أين تذهب. سوف أتأكد من حصولك على ما يكفى من النقود لفعل ذلك. لا يمكنك الاستمرار بهذه الطريقة، وهذا هو آخر الموضوع".

لكن ديك لم يستسلم بهذه السهولة. ظل يحارب لأربع ساعات. لأربع ساعات ظلا يتجادلان، وهما يسيران جيئة وذهابًا تحت الأشجار.

وفى النهاية ذهب تشارلى بسيارته دون أن يعود إلى البيت مع ديك. وعاد ديك إلى البيت وهو يسير بثقل، يكاد يجر رجليه جرًا، لقد دمر نبع حياته. لن

تعود المزرعة ملكا له بعد ذلك، سوف يكون خادما عند شخص آخر. كانت مارى تجلس ككتلة فى ركن الأريكة؛ ذهبت الحالة التى اتخذتها غريزيًا فى وجود تشارلى للحفاظ على المظاهر ومحاولة منها للتماسك. لم تنظر إلى ديك عندما دخل. كانت تمضى أيام دون أن تتحدث إليه. وكأنه لم يكن موجودا بالنسبة لها. وبدا أنها غارقة بعمق فى حلم ما خاص بها. لم تكن تنبعث فيها الحياة، لم تكن تلاحظ ماذا تفعل، إلا عندما يدخل الزنجى لفعل أى شيء صغير فى الغرفة. ثم لم تكن ترفع عينيها عنه أبدًا. ولكن ديك لم يكن يعلم ماذا يعنى ذلك: لم يكن يريد أن يعرف؛ لقد تجاوز الآن مرحلة أن يحارب هذا.

لم يضيع تشارلى سلاتر وقتًا. راح يقود سيارته حول المنطقة من مزرعة لأخرى، محاولاً أن يجد شخصا يقوم برعاية مكان آل تيرنر لبضعة أشهر. ولم يعط أية تفسيرات. كان على غير العادة كتومًا متحفظا؛ كان كل ما قاله هو أنه يساعد تيرنر على أن يأخذ زوجته فى رحلة. وأخيرا سمع عن شاب جاء من إنجلترا حديثًا، ويريد عملاً. لم يكن يهم تشارلى من هو: أى شخص يصلح؛ فالأمر عاجل جدا. وأخيرا ذهب بسيارته إلى المدينة ليبحث عنه. لم يجد ما يميز الشاب بطريقة أو بأخرى؛ كان من الطراز المعتاد، الإنجليزى المتعلم الملئ بالكبرياء، الذى يتحدث بأنفة وكأن فمه ملىء بحبات اللؤلؤ. وأحضر الشاب معه. ولم يخبره إلا بالقليل؛ فلم يكن يعلم ماذا يقول له. كان

الاتفاق هو أنه سوف يتولى إدارة المزرعة فوراً، فى خلال أسبوع، ليتيح لآل تيرنر الذهاب فى رحلة إلى الساحل؛ سيقوم تشارلى بترتيبات توفير النقود؛ وفى المزرعة سوف يخبره بما سيفعله: كانت هذه هى الخطة. ولكن عندما ذهب إلى ديك، وجد أنه على الرغم من إذعانه وترويضه لنفسه على قبول ضرورة الرحيل، إلا أنه لا يمكن إقناعه بالرحيل فورا.

وقف تشارلى، وديك، والشاب، تونى مارستون، فى وسط أحد الحقول؛ كان تشارلى منفعلا وغاضبا وفاقد الصبر (فلم يكن يتحمل مناقشة فى مسألة أكثر الأوقات مناسبة)، وديك عنيدا وبائسا، ومارستون يشعر بحساسية وضعه ويحاول أن ينأى بنفسه.

"اللعنة، يا تشارلى، لماذا تطردنى بهذه الطريقة؟ إن لى هنا خمسة عشر عاما!"

"بحق الله، يا رجل، أنا لا أطردك. أنا أريدك أن تغادر المكان قبل ... لابد أن تغادر على الفور. كان ينبغى أن تدرك ذلك بنفسك".

قال ديك: "خمسة عشر عاما!". وقد احمر وجهه متألما وقانطا، "خمسة عشر عاما!" حتى أنه انحنى، دون وعى، والتقط حفنة من التراب، وظل يحملها فى يده، وكأنه يؤكد ملكيته لها. كانت إشارة عبثية. وارتسمت على وجه تشارلى ابتسامة خفيفة ساخرة.

"ولكن يا تيرنر، سوف تعود إليها".

قال ديك: "لن تعود ملكًا لى"، وتهدل صوته. والتفت بعيدًا، وهو لا يزال قابضًا على حفنة التراب. التفت تونى مارستون بعيدا أيضًا، تظاهر بأنه يفحص حالة الحقل؛ لم يكن يريد أن يقحم نفسه على أحزان هذا الرجل. أما تشارلى، الذى لم يكن يفكر فى هذه التفاهات، فقد نظر فاقد الصبر إلى وجه ديك المتألم، وإن كان بلمحة من الاحترام. كان يحترم المشاعر التى لم يكن يفهمها. كبرياء الملكية، نعم: هو يعرف هذا؛ لكنه لا يعرف هذا الارتباط العاطفى بالأرض، إن جاز أن نقول ذلك. لم يكن يفهمه؛ لكنه تحدث بصوت أكثر نعومة.

"سوف تكون كأنها ملكك. لن أفسد مزرعتك. يمكنك أن تستمر فيها كما تشاء، عندما تعود". كان يتحدث بنفس حس الدعابة الخشن المعتاد له.

قال ديك، بصوته المتألم المتباعد: "إحسان".

"ليس إحسانًا. إننى أشتريها كمشروع تجارى. أنا أريد المرعى. سوف أترك قطعانى ترعى هنا مع قطعانك، ويمكنك أن تستمر فى زراعة محاصيلك كما تشاء".

لكنه كان يفكر أن ذلك إحسان، بل إنه كان يشعر ببعض الدهشة من نفسه لهذه الخيانة الكاملة لمبادئه العملية. وفى عقل كل واحد من الثلاثة، كانت كلمة "إحسان" مكتوبة بحروف سوداء، تحجب كل شىء آخر. وكانوا جميعا على خطأ. لقد كانت غريزة

الحفاظ على الذات. كان تشارلى يحارب لمنع انضمام مجند جديد إلى الجيش المتنامى للبيض الفقراء، والذى يبدو للبيض المحترمين صادما بشكل هائل (رغم أنه ليس مثيرا للشفقة، لأن هؤلاء البيض الفقراء كانوا محتقرين ومكروهين لخيانتهم للمعايير البيضاء، ولا يحظون بأية شفقة). كانوا يرونه مروعا أكثر من ملايين السود الذين يزدحمون فى الأحياء الفقيرة أو على البقايا المتضائلة من أراضى بلادهم نفسها.

وأخيرا، بعد الكثير من المجادلة، وافق ديك على أن يرحل بعد شهر، عندما يكون قد أعلم تونى بكل الأشياء التى يحبها فى "أرضه". ولكن تشارلى، ببعض الغش، حجز رحلة القطار بعد ثلاثة أسابيع. وعاد تونى إلى البيت مع ديك، وهو يشعر بدهشة وفرحة لأنه لم يمض فى البلاد أكثر من شهرين قبل أن يجد عملا. وأعطاه ديك كوخا مقاما من الطين، ومسقوفا بالأعشاب، خلف البيت. كان قد أقيم للخزين فى إحدى المراحل، لكنه كان خاليا الآن. كانت لا تزال هناك بعض الذرة متناثرة على الأرض، لم تُكنس؛ وعلى الجدران، كانت أنفاق النمل أمامها أكوام من الحبيبات الحمراء الناعمة التى لم يتم إزالتها بالفرشاة. وكان ثمة سرير حديدى، أحضره تشارلى، ودولاب مصنوع من صناديق وعليه ستارة من ذلك القماش الغريب القبيح الأزرق الخاص بالأهالى، ومرآة موضوعة على حوض فوق حقيبة سفر. لم يكن تونى

يهتم بهذه الأشياء على الإطلاق. لقد كان فى حالة ابتهاج، حالة مزاجية رومانسية لطيفة، وكانت المسائل من مثل الطعام السيئ أو الحشايا المرتخية لا أهمية لها على الإطلاق بالنسبة له. المعايير التى كانت قد تصدمه فى بلده بدت أقرب إلى إشارات مثيرة لإحساس مختلف بالقيم هنا.

كان فى العشرين من عمره. وكان قد تلقى التعليم حسب القواعد المألوفة، وواجه مستقبلا يمكن معه أن يصبح كاتبا من نوع ما فى مصنع عمه. لكن الجلوس على مقعد بلا ذراعين فى أحد المكاتب لم يكن هو هدفه فى الحياة؛ وقد اختار جنوب إفريقيا ليعيش فيها لأن أحد أبناء عمومته من بعيد قد كسب خمسة آلاف جنيه فى العام السابق من التبغ. وكان ينوى أن يفعل نفس الشىء، بل وأفضل إن استطاع. وفى ذات الوقت، كان عليه أن يتعلم. وكان الشىء الوحيد الذى لم يعجبه فى المزرعة هو أنها لم يكن بها تبغ؛ لكن ستة أشهر فى مزرعة مختلطة الأنواع سوف تعطيه خبرة جيدة ومفيدة بالنسبة له. وقد شعر بالأسف من أجل ديك تيرنر، الذى عرف أنه تعيس فى حياته؛ لكن حتى هذه المأساة بدت له رومانتيكية؛ فقد نظر إليها بلا تحيز، كأحد أعراض النمو الرأسمالى فى الزراعة فى كل العالم، بالنسبة للطريقة التى يتحتم بها أن يقوم كبار المزارعين بالتهام صغار المزارعين. (وحيث أنه كان ينوى أن يكون من كبار المزارعين هو نفسه، فإن هذا الاتجاه لم يكن يضايقه فى شىء). ولأنه لم

ينفق على نفسه أبدا من قبل، فقد كان يفكر بشكل مجرد تماما. وعلى سبيل المثال، كان لديه تلك الأفكار "التقدمية" المألوفة حول التمييز العنصرى القائم على اللون، ذلك النوع الزائف من التقدمية المثالية التى نادرا ما تتمكن من تجاوز صراع مع المصالح الذاتية. وكان قد جاء معه بحقيبة مليئة بالكتب، والتى رصها إلى جوار الحائط الدائرى للكوخ: كتب حول قضية اللون، حول رودس [1] وكروجر [2] ، حول الزراعة، حول تاريخ الذهب. ولكن، بعد أسبوع واحد، تناول أحد هذه الكتب ووجد أن الغلاف الخلفى قد أكلته النمال البيضاء. وهكذا أعاد الكتب إلى الحقيبة ولم ينظر إليها أبدا مرة أخرى. فالرجل الذى يعمل اثنتى عشرة ساعة يوميا لا يمكنه أن يشعر بأن عقله قادر على الدراسة.

كان يتناول وجباته مع آل تيرنر. وفيما عدا ذلك، كان من المتوقع أن يلم بما يكفى من المعرفة فى خلال

---

(١) سيسل رودس Cecil john Rhodes (١٨٥٣ ـ ١٩٠٢)، كان أحد رجال الأعمال الإنجليز، وسياسى فى جنوب إفريقيا، وهو مؤسس شركة الألماس التى تسوق فى وقتنا الحالى ٤٠٪ من الماس الخام فى العالم، وكانت فى وقت من الأوقات تتحكم فى ٩٠٪ من سوق الماس العالمى. كان يؤمن إيمانًا عميقًا بالكولونيالية، أو الاستعمار، وهو مؤسس دولة روديسيا التى سميت باسمه، والتى أصبحت حاليا زامبيا وزيمبابوى. (المترجمة).

(٢) بول كروجر paul Kruger (١٨٢٥ ـ ١٩٠٤)، اشتهر باسم «العم بول» كان رئيس جمهورية جنوب إفريقيا، اشتهر بكونه أحد قادة المقاومة لحركة الاستقلال ضد البريطانيين أثناء حرب البوير الثانية فى جنوب إفريقيا. (المترجمة).

شهر ليدير هذا المكان لستة أشهر، حتى يعود ديك. فكان يقضى اليوم كله مع ديك فى الأرض، يستيقظ فى الخامسة، ويذهب إلى الفراش فى الثامنة. كان مهتما بكل شىء، لديه معلومات جيدة، ومقبلا على المعرفة، وحيويا . شخصية ساحرة. أو ربما كان ديك قد يجده كذلك منذ عشرة سنين أو نحو ذلك. أما فى الحالة الحاضرة، فلم يكن لديه أية استجابة لتونى، الذى قد يبدأ مناقشة مرتاحة حول تمازج الأجناس، أو حول تأثير حاجز الفصل اللونى العنصرى على الصناعة، ليجد أن ديك يحدق، بعينين خاويتين. كان ديك مهتما، فى حضور تونى، فقط بأن يتمكن من قضاء تلك الأيام الأخيرة دون أن يفقد ما تبقى له من احترام الذات، إذا انهار ورفض الذهاب. وكان يعلم أنه ينبغى أن يذهب. إلا أن مشاعره كانت عنيفة للغاية، كان يشعر بأنه فى اضطراب عظيم من التعاسة، حتى أنه مضطر لأن يكبح حافزًا مجنونا لإشعال النار فى الحشائش الطويلة ومراقبة اللهب يدمر المروج التى كان يعرف جيدا أن كل شجيرة وكل شجرة فيها كانت صديقا شخصيا له؛ أو أن يهدم البيت الصغير الذى بناه بيديه وعاش فيه طوال هذه السنوات. وبدا له نوعا من الانتهاك أن يكون هناك شخص آخر يعطى الأوامر هنا، شخص آخر يزرع أرضه وربما يدمر عمله.

أما بالنسبة لمارى، فنادرًا ما كان تونى يراها. لقد سببت له اضطرابًا، عندما كان لديه وقت ليفكر فى

تلك المرأة الغريبة الصامتة النحيفة حتى الجفاف، والتى تبدو وكأنها نسيت كيف تتكلم. ثم، يظهر أنها اكتشفت ضرورة أن تبذل مجهودًا، وتتحول تصرفاتها إلى حالة غريبة وخرقاء. فقد تتحدث للحظات قليلة بنوع من المرح والنشاط الغريب والمرعب حتى أنها تصدم تونى، وتجعله يشعر بعدم الارتياح. كانت تصرفاتها لا علاقة لها بما تقوله. كانت فجأة تقاطع ديك أثناء حديث من أحاديثه البطيئة الصبورة التفسيرية حول محراث أو ثور مريض بملحوظة لا علاقة لها بالحديث حول الطعام (وكان تونى يجده مثيرا للغثيان) أو حول الحرارة فى هذا الوقت من السنة. قد تقول كنوع من تجاذب الحديث، مبتسمة قليلا: "إننى أحب كثيرًا موسم المطر"، ثم تعود لتنسحب فجأة إلى صمت خاو أبله. بدأ تونى يفكر أنها لم تكن تمامًا هناك. ولكن، لقد عانى هذان الاثنان زمنًا عصيبًا، هكذا فهم؛ وعلى أية حال، فإن الحياة هنا وحدهما لوقت طويل تكفى لجعل أى إنسان غريبا بعض الشىء.

كانت الحرارة فى ذلك المنزل هائلة حتى أنه لم يستطع أن يفهم كيف تطيقها. ولأنه كان جديدًا فى البلاد فقد كان إحساسه بالحرارة شديدًا؛ لكنه كان يشعر بالسرور عندما يخرج من ذلك الفرن المسقوف بالصفيح ويبتعد عنه، كان يشعر بأن الهواء فيه يتحول إلى طبقات متخثرة من الحرارة اللزجة. ورغم أن اهتمامه بمارى كان محدودا، فقد خطر له أن يفكر

فى أنها تذهب إلى رحلة لأول مرة منذ سنوات، وأن من المتوقع أن تبدو عليها بعض مظاهر السرور. لكنه لم يرَ عليها ما يدل على أنها تقوم بأية استعدادات؛ بل لم تشرْ إلى الأمر أبدا مرة واحدة. ولم يكن ديك يتحدث إليها فى الموضوع أيضًا.

وقبل الموعد الذى كان ينبغى عليهما الذهاب فيه بأسبوع، قال ديك لمارى على مائدة الغداء "ماذا عن حزم متاعنا للسفر؟" أومأت برأسها بعد تكرار السؤال مرتين، ولكنها لم تجب.

قال ديك برقة بذلك الصوت الهادئ اليائس الذى يخاطبها به دائما: "ينبغى أن تحزمى الحقائب يا مارى". ولكن عندما عاد هو وتونى فى تلك الليلة، لم تكن قد فعلت شيئا. وعندما انتهوا من الوجبة الدسمة، جذب ديك الصناديق وبدأ يضع فيها الأشياء بنفسه. وعندما رأته يفعل ذلك، بدأت تساعد؛ لكن قبل أن تمر نصف ساعة كانت قد تركته فى غرفة النوم وجلست فى بلاهة على الأريكة.

"انهيار عصبى كامل"، كان تونى يشخص الأمر وهو يستعد للنوم. كان عقله من ذلك النوع الذى يستريح عندما يضع الأشياء فى كلمات: وكانت العبارة نوعا من الاعتذار عن مارى؛ كانت تحلها من تبعة أى نقد. فالانهيار العصبى الكامل أمر يمكن أن يحدث لأى شخص؛ ومعظم الناس يعانون منه فى وقت أو آخر. فى الليلة التالية، أيضًا، قام ديك بحزم الأشياء حتى كان كل شىء جاهزًا. وقال لها: "اشترى لنفسك

بعض القماش واصنعى ثوبا أو اثنين"، قال ذلك فى خجل عندما اكتشف وهو يحزم الأشياء أنها لم يكن لديها تقريبًا أى شىء "صالح لأن تلبسه". أومأت، وأخذت من الدرج قطعة من القماش القطنى المطبوع بالزهور من ذلك النوع الذى كان فى الدكان. وبدأت تقصه، ثم جلست ساكنة، منحنية عليه، ساكنة، حتى لمس ديك كتفيها ورفعها لتقوم إلى الفراش. وعندما شهد تونى هذا المنظر أحجم عن النظر إلى ديك. لقد شعر بالأسى من أجلهما. لقد أحب ديك كثيرًا فى الفترة الماضية؛ وكانت مشاعره تجاهه حقيقية وشخصية. أما بالنسبة لمارى، فرغم أنه كان آسفا عليها، فماذا يمكن أن يقال عن امرأة كانت ببساطة غير موجودة؟ "حالة يجب عرضها على طبيب نفسى"، قال مرة أخرى، محاولاً أن يؤكد ذلك لنفسه. وبالنسبة لهذا الأمر، يمكن أن يستفيد ديك نفسه بالعلاج. كان الرجل ينسحق، يرتجف على الدوام، وجهه شديد النحافة لدرجة أن هيكل العظام كان ظاهرا تحت الجلد. لم يكن مهيأ للعمل على الإطلاق فى الواقع؛ لكنه كان يصر على قضاء كل لحظة من لحظات النهار فى الأرض؛ لم يكن يتحمل تركها حتى عندما يأتى الغروب. وكان تونى يكاد يجره من هناك جرا؛ والآن أصبحت مهمته أقرب إلى مهمة التمريض، وبدأ يتطلع إلى رحيلهما.

وقبل موعد مغادرتهما بثلاثة أيام، طلب تونى أن يبقى فى الكوخ فى فترة بعد الظهر، حيث كان يشعر

ببعض التعب. يبدو أن الشمس أثرت عليه، ربما؛ فقد كان يشعر بصداع شديد، وألم فى عينيه، وشعور بالغثيان يتحرك فى بطنه. ولم يحضر وجبة منتصف اليوم، راقدا فى كوخه الذى رغم أنه كان دافئًا بما يكفى، كان باردًا مقارنة بذلك البيت الأشبه بالفرن. فى الرابعة مساء استيقظ من نوم متعب قلق، وكان يشعر بعطش شديد. كانت زجاجة الويسكى القديمة التى تملأ عادة بماء الشرب فارغة؛ نسى الولد أن يملأها. خرج تونى فى الوهج الأصفر لإحضار ماء من البيت. كان الباب الخلفى مفتوحًا وتحرك بهدوء خشية أن يوقظ مارى، فقد قيل له إنها تنام كل يوم بعد الظهر. أخذ كوبا من أحد الأرفف ومسحه بعناية، وذهب إلى غرفة الجلوس ليحضر المياه. كان هناك فلتر من الفخار المجلز على الرف الذى يقوم بدور "البوفيه". رفع تونى الغطاء ونظر داخله: كانت قمة الفلتر موحلة بوحل أصفر، لكن المياه نزلت من الصنبور صافية، رغم أن طعمها كان تفها وفاترًا. شرب، وشرب مرة أخرى، وبعد أن ملأ زجاجته، استدار ليذهب. كانت الستارة بين هذه الغرفة وغرفة النوم مفتوحة، ويستطيع أن يرى الداخل. وأصيب بذهول جعله عاجزًا عن الحركة. كانت مارى جالسة على أحد صناديق الشمع أمام المرآة المعلقة على الحائط. كانت ترتدى ثوباً تحتيًا صارخ الألوان، يظهر منه كتفاها العظميان. وبجوارها وقف موسى، وبينما راح تونى يراقب، وقفت، ومدت ذراعيها بينما كان

الزنجى يلبسها ثوبًا فوق الثوب الداخلى وهو واقف خلفها. ثم جلست مرة أخرى وأبعدت شعرها بيديها عن رقبتها، بإيماءة امرأة جميلة معجبة بجمالها. كان موسى يزرر الرداء؛ وكانت هى تنظر فى المرآة. كان تصرف الزنجى ينم عن شخص مفتون يدلل زوجته. وعندما انتهى من التزرير، وقف إلى الخلف وراح يراقب المرأة وهى تمشط شعرها. قالت بصوت مرتفع آمر: "أشكرك يا موسى". ثم التفتت، وقالت بلهجة حميمية: "الأفضل أن تذهب الآن، فالرئيس على وشك أن يأتى". خرج الزنجى من الغرفة. وعندما رأى الرجل الأبيض يقف هناك، مبحلقا فيه بارتياب، تردد لحظة ثم خرج مباشرة، مارًا به بخفة دون أن يصدر صوتًا عن خطواته، لكن بنظرة حاقدة على وجهه. كان الحقد قويا حتى أن تونى شعر لحظة بالخوف. وعندما ذهب الزنجى، جلس تونى على مقعد، يمسح وجهه من العرق الذى كان يسيل عليه بسبب الحرارة، وراح يهز رأسه ليبعد تلك الأفكار المتضاربة. لقد كان له فى البلاد فترة كافية لكى يشعر بالصدمة؛ وفى نفس الوقت كان ثمة إشباع لغرور أفكاره "التقدمية"، بهذا الدليل الذى لا يمكن إنكاره على رياء الطبقة البيضاء الحاكمة. ففى بلد يظهر فيه أطفال مختلطو اللون بكثرة بين الأهالى فى أى مكان يوجد فيه رجل أبيض وحيد، رياء، كما يعرّف تونى الأمر، كان ذلك أول مظهر صدمه عندما وصل إلى هذا البلد. ولكن، فى نفس الوقت، فهو قد قرأ ما يكفى عن علم النفس

ليفهم الوجه الجنسى للعزل العنصرى، فأحد القواعد الأساسية هو غيرة الرجل الأبيض من النفوذ الجنسى المتفوق الزنجى؛ وقد أدهشه أن أحد الذين تضرب حولهم أسوار الحماية، امرأة بيضاء، تقوم بالتملص من هذا الحاجز. لكنه كان قد التقى بطبيب على السفينة وهو قادم، له سنوات من الخبرة فى أحد مناطق البلد، والذى أخبره أنه قد يدهش إذا علم عدد النساء البيضاوات اللائى لهن علاقات برجال سود. شعر تونى فى ذلك الوقت أن ذلك قد يثير دهشته؛ كان يشعر بأن الأمر سيكون أشبه بعمل علاقة مع حيوان، رغم توجهاته "التقدمية".

ثم اختفت كل هذه الاعتبارات من عقله، ولم يبق له ببساطة سوى حقيقة مارى، تلك المرأة الفقيرة غريبة الأطوار، والتى كانت بوضوح فى آخر مراحل الانهيار، والتى كانت فى هذه اللحظة تخرج من غرفة نومها، ولا تزال إحدى يديها مرفوعة إلى شعرها. ثم شعر، لدى رؤية وجهها، الذى كان يبدو رائقًا وبريئًا، رغم ما ينبعث منه من بريق خاو يبدو قريبا من البلاهة، أن كل شكوكه كانت لغوا.

عندما رأته، تجمدت رعبا، وحدقت فى وجهه فى خوف. ثم ببطء، تحول وجهها من حالة المعاناة إلى نظرة لامبالية وخاوية. لم يستطع أن يفهم هذا التغير المفاجئ. لكنه قال، بصوت مازح وإن كان محملا بالضيق: "ذات يوم كانت هناك إمبراطورة فى روسيا، كانت ترى عبيدها لا أهمية لهم على الإطلاق، وأنهم

ليسوا آدميين، حتى أنها اعتادت أن تخلع ثيابها كلها وترتديها أمامهم". كانت هذه هى وجهة النظر التى اختار أن يرى بها هذه العلاقة؛ أما وجهة النظر الأخرى فكانت صعبة جدًا عليه. أخيرًا، بدا عليها الحيرة، وقالت بارتياب: "صحيح؟" سألها: "هل هذا الزنجى دائمًا يساعدك فى ارتداء ثيابك وخلعها؟" قالت وهى تؤرجح رأسها: "إن واجباته قليلة للغاية، وينبغى شغله بما يجعله يستحق ما يكسبه".

سأل ببطء: "لكن هذا ليس معتادا فى هذه البلاد، أليس كذلك؟" وبدا سؤاله خارجا من أعماق حيرته الشديدة. ورأى، وهو يتكلم، أن عبارة "هذه البلاد"، التى كانت بين الناس أشبه بدعوة لتضامن البيض، لم تكن تعنى شيئا بالنسبة لها. فبالنسبة لها، لم يكن هناك إلا المزرعة؛ ولا حتى ذلك - لم يكن إلا هذا البيت، وما فيه. وبدأ يفهم بشفقة يشوبها الهلع، لامبالاتها التامة فيما يتعلق بديك؛ لقد أغلقت على نفسها تاركة خارجها كل ما يتعارض مع تصرفاتها، كل ما قد يحيى القانون الذى ربيت لتسير على هداه.

وفجأة قالت: "قالوا إننى لم أكن كذلك، لم أكن كذلك، لم أكن كذلك" كانت أشبه بجرامافون وضعت عليه أسطوانة مشروخة تكرر نفس الجملة مرات ومرات.

"لم أكن كذلك"، كانت العبارة مختلسة، ماكرة، إلا أنها كانت منتشية بالانتصار. قال لنفسه: يا إلهى، إن

المرأة مجنونة تمامًا. لكنه عاد يفكر، ولكن، هل هى مجنونة حقًا؟ لا يمكن أن تكون مجنونة، إنها لا تتصرف كمجنونة. إنها تتصرف فقط كما لو كانت تعيش فى عالم خاص بها، لم تعد فيه أهمية للمعايير التى يضعها الناس. لقد نسيت كيف حال الناس الذين تنتمى إليهم. ولكن إذًا، ما الجنون؟ أليس هو ملجأ، انسحاب من العالم؟

وهكذا، ظل تونى التعس، المتحير، جالسا على مقعده بجوار فلتر الماء، لا يزال ممسكًا بالزجاجة وبالكوب، يحدق بقلق فى مارى، التى بدأت تتكلم بصوت هادئ حزين جعله يقول لنفسه وهى تتكلم، مغيرا رأيه مرة أخرى، إنها لم تكن مجنونة، على الأقل، ليس فى هذه اللحظة. نظرت إليه مباشرة، فى ضراعة، وتحدثت قائلة: "إنه وقت طويل منذ جئت إلى هنا... وقت طويل جدا لا أستطيع أن أتذكره... كان ينبغى أن أذهب منذ زمن. ولا أعرف لماذا لم أفعل. لا أعرف لماذا جئت. لكن الأشياء مختلفة. مختلفة جدًا". وتوقفت. كان وجهها يدعو للشفقة، عيناها حفرتان مؤلمتان فى وجهها. "لا أعرف شيئا. لا أفهم. لماذا يحدث كل هذا؟ لم أكن أريد لهذا أن يحدث. ولكنه لا يريد أن يذهب، لا يريد أن يذهب". ثم، بصوت مختلف، توجهت إليه بحدة مفاجئة: "لماذا جئت هنا؟ كان كل شىء على ما يرام قبل أن تأتى". وانفجرت فى النواح وانهمرت دموعها: "إنه لا يريد الذهاب".

نهض تونى إليها: كانت مشاعره الآن قد انحصرت فى الشفقة؛ نسى شعوره بعدم الارتياح. شىء ما جعله يلتفت، وعند الباب كان الخادم واقفاً، موسى، ينظر إليهما معا بوجه ملىء بحقد شرير.

قال تونى: "اذهب من هنا، اذهب فورا". وضع ذراعه حول كتفى مارى، فقد كانت تنكمش وتغرز أصابعها فى لحمه.

قالت فجأة: "اذهب من هنا". وهى تلتفت من فوق كتفه إلى الزنجى. تحقق تونى أنها كانت تحاول توكيد نفسها: كانت تستخدم وجوده هناك كدرع فى حرب لتستعيد بها سيطرة كانت قد فقدتها. وكانت تتحدث مثل طفل يتحدى شخصا من الكبار.

قال الولد بهدوء: "المدام تريدنى أن أذهب؟"

"نعم، اذهب من هنا".

"المدام تريدنى أن أذهب بسبب هذا الرئيس؟"

لم تكن الكلمات فى حد ذاتها هى التى جعلت تونى ينهض على قدميه ويتجه إلى الباب، لكن الطريقة التى قيلت بها. وقال، وقد كاد يجن غضباً: "اخرج، اخرج قبل أن ألقيك خارجا".

بعد نظرة طويلة، بطيئة، شريرة، ذهب الزنجى. ثم عاد مرة أخرى، وتحدث إلى مارى متجاهلا تونى: "المدام سوف تترك هذه المزرعة، أليس كذلك؟"

قالت مارى بوهن: "نعم".

"المدام لن تعود أبدًا؟"

صرخت: "لا، لا، لا".

"وهذا الرئيس سيذهب أيضًا؟"

صرخت: "لا، اذهب".

زعق تونى: "ألن تذهب؟" كان يمكن أن يقتل هذا الزنجى: لقد رغب فى أن يمسكه من رقبته ويخنقه حتى الموت. ثم اختفى موسى. وسمعاه يسير عبر المطبخ ويخرج من الباب الخلفى. وأصبح البيت خاليًا. وراحت مارى تنهنه، ورأسها على ذراعيها. وبين دموعها راحت تقول: "لقد ذهب، لقد ذهب، لقد ذهب!" كان صوتها هستيريا بشعور الخلاص. ثم فجأة دفعته، ووقفت أمامه كامرأة مجنونة، وراحت تهمس: "أنت الذى طردته! لن يعود أبدا مرة أخرى! كان كل شىء على ما يرام حتى جئت". وانهارت فى عاصفة من الدموع. جلس تونى هناك، وقد وضع ذراعه حولها، يحاول تهدئتها. كان يتساءل فى نفسه: "ماذا ينبغى أن أقول لتيرنر؟" ولكن ماذا يستطيع أن يقول؟ الأفضل أن يتجاهل الأمر كله. كان الرجل يكاد يجن قلقا. وسوف يكون من القسوة قول أى شىء له - وعلى أية حال، فى خلال يومين، سوف يذهبان كلاهما من المزرعة.

قرر أنه سوف يأخذ ديك جانبًا ويقترح فقط أن الزنجى ينبغى صرفه من العمل فى الحال.

لكن موسى لم يرجع. لم يكن هناك فى ذلك المساء إطلاقًا. وسمع تونى ديك يسأل أين هو، وكانت إجابتها أنها "قد صرفته". سمع اللامبالاة الخاوية فى صوتها: ورأى أنها كانت تتحدث إلى ديك دون أن تراه.

فى النهاية، هز تونى كتفيه، وقرر ألا يفعل شيئًا. وفى الصباح التالى خرج إلى الأرض كالمعتاد. كان هذا هو اليوم الأخير؛ وكان هناك الكثير مما ينبغى عمله.

-١١-

استيقظت مارى فجأة وكأن كوعا ضخما قد وكزها. كان الوقت لا يزال ليلا. وكان ديك يرقد نائمًا بجوارها. كانت النافذة تصرّ على مفصلاتها، وعندما نظرت إلى مربع الظلام، استطاعت أن ترى النجوم تتحرك وتومض من بين أغصان الأشجار. كانت السماء مضيئة؛ لكن كانت بها مسحة خافتة من اللون الرمادى البارد؛ وكانت النجوم لامعة، ولكن وميضها خافت. وداخل الغرفة كان الأثاث يتحول إلى لون فاتح. استطاعت أن ترى لمعة حيث سطح المرآة. ثم صاح ديك فى المجمع، وتبعه أصوات ديكة حادة معلنة قدوم الفجر. أهو ضوء النهار؟ أم ضوء القمر؟ كان الاثنين معا. كلاهما اختلطا معا، وسوف تشرق الشمس فى مدى نصف ساعة. تثاءبت، واستقرت على وسائدها المتكتلة، ومددت أعضاءها. وفكرت أنها دائما ما تستيقظ فى وقت تكون فيه السماء رمادية، وتجاهد مقاومة من جسدها الذى يرغب فى عدم

الخروج من ملجأ السرير. اليوم كانت تشعر بسلام وراحة. كان عقلها صافيًا، وجسدها مستريحًا. وتشعر بهدوء الطفل فى المهد، عقدت يديها خلف رأسها وحدقت فى الظلمة التى تحمل ألفة الجدران والأثاث. وبكسل تخيلت الغرفة فى رأسها، واضعة كل دولاب وكل مقعد فى مكانه؛ ثم تحركت خلف المنزل، تفرغه من الليل فى عقلها وكأن قبضة يدها تحمله. وأخيرًا، نظرت من ارتفاع على المبنى المقام بين الشجيرات. وشعرت بسلام رقيق مؤسف، يغمرها. وبدا وكأنها تحمل هذا الشىء المثير للأسى بشدة، المزرعة وسكانها، فى قبضة يدها، التى التفت حولها لتمنع عنها نظرة عالم منتقد بقسوة. وشعرت بأنها لابد أن تبكى. شعرت بالدموع تجرى على خديها، وشعرت بهما يؤلمانها بشدة، وضعت أصابعها لتلمس البشرة. وأعادتها لمسة الإصبع الخشن للحم المخشوشن إلى وعيها. استمرت فى البكاء، رغما عنها، وإن كان عن شعور بالغفران. ثم تحرك ديك واستيقظ، جالسًا فى حركة مفاجئة. عرفت أنه كان يلوى رأسه هذه الناحية وتلك، فى الظلام، يسمع؛ وظلت راقدة بهدوء. شعرت بيده تلمس وجنتها بتردد، لمسة معتذرة ضايقتها، ونفضت رأسها إلى الخلف. "ماذا بك يا مارى؟"

أجابت: "لا شىء"

"هل أنت آسفة لأنك راحلة من هنا؟"

بدا السؤال مضحكًا وسخيفًا؛ لا علاقة له بها على الإطلاق. ولم تكن تريد أن تفكر فى ديك، إلا

بذلك الإحساس المتباعد والموضوعى بالشفقة. ألا يستطيع أن يتركها تعيش هذه اللحظة الأخيرة القصيرة من السلام؟ قالت: "نَمْ، فالصباح لم ينبلج بعد".

بدا صوتها له طبيعيًا؛ حتى رفضها له كان شديد الألفة بحيث لا يوقظه تماما. فى دقيقة عاد إلى النوم مرة أخرى، ممددًا وكأنه لم يتحرك أبدا. ولكن الآن لم تعد تستطيع أن تنساه؛ كانت تعرف أنه راقد هناك بجوارها، وتشعر بأعضائه ممددة بجوار أعضائها. رفعت نفسها، شاعرة بالمرارة تجاهه، هو الذى لم يتركها فى سلام أبدا. دائما كان هناك، ذكرى معذبة بما كان عليها أن تنساه لكى تظل نفسها. جلست قائمة، مريحة رأسها على يدين معقودتيَن، وقد استردت مرة أخرى حالة الوعى، وكأنها لم تكن منذ فترة طويلة جدًا، بذلك الشعور بالضغط، وكأنها مشدودة بقوة بين قطبين لا يمكن زعزعتهما. راحت تؤرجح نفسها ببطء أماما وخلفا، بحركة غبية غير مقصودة، محاولة أن تعود إلى الاستغراق فى تلك المنطقة من العقل التى تخلو من وجود ديك. فقد كان ذلك اختيارا، لو استطاع المرء أن يدعو مثل هذا الشىء الذى يمكن تجنبه بالاختيار، بين ديك والآخر، وقد دمر ديك منذ وقت طويل. قالت بهدوء: "مسكين ديك". أخيرًا، من تلك المسافة المستعادة بينها وبينه؛ ومر بخاطرها ملمح من الرعب، نوع من الألفة لذلك الرعب الذى سوف يغلفها فيما بعد. كانت تعرف:

كانت تشعر بشفافية واستبصار يحتويان كل شىء. ولكن ليس ديك. لا، نظرت إليه، كومة تحت الأغطية، وجهه يلمع فى الضوء المتنامى للفجر. زحف هذا الضوء من مربع النافذة الواطئ، ومعه جاء نسيم دافئ خال من الهواء. "مسكين ديك"، قالت، لآخر مرة، ولم تفكر فيه مرة أخرى.

قامت من السرير ووقفت بجوار النافذة. كانت عتبة النافذة الواطئة تصل إلى فخذيها. لو مالت إلى الأمام وإلى أسفل لاستطاعت أن تلمس الأرض التى بدا أنها ترتفع فى الخارج، تمتد إلى الأشجار. كانت النجوم قد اختفت. وكانت السماء هائلة وبلا لون، والمرج معتما. كل شىء كان على حافة التلون. كان ثمة لمحة من الاخضرار فى انحناءة ورقة شجر، لمعة فى السماء تكاد تكون زرقاء، والحدود النجمية الشكل لزهور نبات بنت القنصل توحى بقوة اللون القرمزى.

وببطء، عبر السماء، امتد تدفق رائع من اللون الوردى، وارتفعت الأشجار للقائه، وأصبحت مشوبة باللون الوردى؛ وبينما تنحنى مارى إلى الخارج فى الفجر، رأت العالم يكتسى باللون والشكل. لقد انتهى الليل. وفكرت عندما تظهر الشمس ستكون لحظتها قد انتهت، هذه اللحظة الرائعة من السلام والغفران التى منحت لها من رب غفور. انحنت على عتبة النافذة، جاثمة بلا حركة، قابضة على البقية الأخيرة من السعادة، عقلها صافٍ كالسماء نفسها. ولكن لماذا، فى هذا الصباح الأخير، تستيقظ بسلام من نوم جيد،

وليس كالمعتاد من تلك الأحلام القبيحة التى بدت تستمر مع اليوم، حتى أنها أحيانا لم تكن تجد فاصلا بين رعب الليل ورعب النهار؟ لماذا تقف الآن هناك، تراقب شروق الشمس، وكأن العالم يخلق من جديد من أجلها، شاعرة بتلك الفرحة المدهشة المتأصلة؟ كانت داخل فقاعة من الضوء الجديد واللون الجديد، من الأصوات الرائعة وغناء الطيور. فى كل مكان حولها كانت الأشجار ممتلئة بالطيور المغردة، والتى كانت تردد سعادتها هى وتغنيها فى كورس يصعد إلى السماء. تركت الغرفة خفيفة كالريشة وخرجت إلى الشرفة. لقد كان كل شىء جميلاً جدًا، جميلاً جدًا حتى لم تستطع أن تتحمل السماء المتوردة الرائعة، المشوبة بالحمرة وبسديم رقيق على الخلفية الزرقاء القوية؛ الأشجار الجميلة الساكنة، وما تحمله بين أغصانها من الطيور المغردة؛ والزهور النجمية الحيوية تقطع الهواء بذلك اللون القرمزى القوى.

انتشر اللون الأحمر من مركز السماء، وبدا أنه يبث لونا خفيفًا فى الضباب الدخانى فوق الروابى، ويضيئ الأشجار بلون فوسفورى أصفر. كان العالم معجزة من الألوان، وكله لها، كله لها! كان يمكن أن تطلق لنفسها العنان فى البكاء، والفرحة من قلبها. ثم سمعت ذلك الصوت الذى لا يمكن أن تحتمله، أول أزيز لحشرة يصرخ فى مكان ما بين الأشجار.. كان ذلك هو صوت الشمس نفسها، وكم كانت تكره الشمس! كانت الشمس تظهر الآن؛ كان ثمة قوس

أحمر غاضب خلف صخرة سوداء، وانطلق شعاع من الضوء الأصفر مخترقا الزرقة. ولحقت به الحشرات واحدة بعد الأخرى فى ضوضاء خشنة ثابتة، حتى لم يعد من الممكن سماع أصوات الطيور، وبدت لها الصرخات الضعيفة المستمرة بإلحاح هى ضوضاء الشمس، وهى تلف فى دوامة حول قلبها الحار، صوت الضوء الخشن النحاسى، صوت الحرارة المتجمعة. بدأ رأسها ينبض، وكتفاها يؤلمانها. وقفز القرص الكئيب الأحمر فجأة فوق الروابى، وانحسر اللون من السماء؛ وامتد أمامها المشهد الطبيعى هزيلا قد سطحته الشمس، قاتما بلونيه البنى والزيتونى، وأصبح الضباب الدخانى فى كل مكان، يتلكأ بين الأشجار ويحجب التلال. وأطبقت السماء عليها، بجدران كثيفة مصفرة من الدخان الذى يتجمع مرتفعًا إلى السماء. كان العالم صغيرًا، محبوسًا فى غرفة من الحرارة والضباب والضوء.

وبارتعادة، بدا أنها تستيقظ، تنظر حولها، تلمس شفتيها الجافتين بلسانها. كانت تميل ضاغطة على الجدار النحيف المبنى من الطوب، وتمد يديها، وقد جعلت كفيها لأعلى، تدفع أذى اليوم الآتى. ثم تركتهما تسقطان، وتحركت بعيدا عن الجدار، ونظرت من فوق كتفيها إلى حيث كانت جاثمة. "هناك، سوف يكون هناك". قالت ذلك بصوت مرتفع. ووقع الصوت الذى خرج منها هادئا، متنبئا، قاتلا، على أذنيها كنذير. دخلت إلى البيت، وهى تضغط بيديها على رأسها لتتفادى تلك الشرفة الشريرة.

كان ديك قد استيقظ، يرتدى سرواله ليذهب ويقرع الجرس. وقفت، منتظرة الضوضاء الرنانة. وجاءت، ومعها جاء الرعب. فى مكان ما يقف هو، يستمع إلى الجرس الذى يعلن اليوم الأخير. كانت تستطيع أن تراه بوضوح. لقد كان يقف تحت شجرة فى مكان ما، يستند إليها، عيناه مركزتان على البيت، منتظرًا. كانت تعلم ذلك. ولكن ليس بعد، قالت لنفسها، لن تهدأ الأمور بعد؛ كان اليوم لا يزال أمامها بكامله.

قال ديك: "ارتدى ثيابك يا مارى"، بصوت هادئ ملحاح. وبعد تكراره، دخل إلى عقلها، وذهبت مطيعة إلى غرفة النوم وبدأت ترتدى ثيابها. تبحث عن الأزرار، توقفت، ذهبت إلى الباب، كادت تنادى موسى، لكى يلبسها ثيابها، ويناولها الفرشاة، ويربط لها شعرها، ويتولى المسئولية عنها فلا تتجشم عبء التفكير لنفسها. ومن خلال الستارة رأت ديك والشاب يجلسان إلى المائدة، يأكلان وجبة لم تعدها هى. تذكرت أن موسى قد ذهب: وغمرها شعور بالارتياح. سوف تكون وحدها، وحدها طوال اليوم. يمكنها أن تركز على الشىء الوحيد الباقى والذى يهمها الآن. رأت ديك ينهض بوجه حزين، ويجذب الستارة، فهمت أنها كانت واقفة أمام الباب بملابسها الداخلية، على مرأى من ذلك الشاب. غمرها شعور بالخجل؛ ولكن قبل أن يغمرها شعور مناقض بالازدراء لينقذها مبطلا ذلك الخجل، كانت قد نسيت ديك والشاب. أنهت لبسها ببطء، ببطء، مع وقفات طويلة بين كل

حركة ـ أليس لديها اليوم بطوله؟ ـ وأخيرا خرجت. كانت الأطباق متراصة على المائدة؛ لقد خرج الرجلان إلى العمل. وهناك طبق كبير مكسو بطبقة كثيفة من الدهن الأبيض؛ فكرت أنهما لابد قد غادرا منذ وقت.

راحت تكدس الأطباق بهمة فاترة، وتحملها إلى المطبخ، وملأت الحوض بالماء، ثم نسيت ما كانت تفعله. وبينما هى واقفة فى سكون، تتدلى يداها بإهمال، فكرت: "إنه فى مكان ما بالخارج، بين الأشجار، ينتظر". اندفعت فى البيت مذعورة، تغلق الأبواب، وكل النوافذ، ثم انهارت أخيرًا على الأريكة، كأرنب يربض وسط الحشائش، يراقب الكلاب وهى تقترب منه. ولكن الانتظار لا فائدة منه الآن: كان عقلها يقول لها إن أمامها اليوم بطوله، حتى يأتى الليل. ومرة أخرى، لفسحة قصيرة، كان عقلها صافيًا.

راحت تتساءل بكآبة، لماذا كان كل هذا؟ وهى تضغط بأصابعها على عينيها لكى يتفجر منهما فيض من الضوء الأصفر. قالت: لا أفهم، لا أفهم.... عادت إليها تلك الفكرة، فكرة وجودها، واقفة فوق البيت، فى مكان ما فوق قمة جبلية غير مرئية، تنظر لأسفل كقاض فى محكمته؛ لكن هذه المرة دون إحساس بالانعتاق. كانت فكرة معذبة، أن ترى نفسها بذلك الوضوح اللحظى عديم الرحمة. هكذا سوف يرونها، عندما ينتهى كل شىء، كما ترى نفسها الآن: امرأة بارزة العظام، قبيحة، تدعو للرثاء، لا شىء بقى من الحياة التى كان ينبغى أن تعيشها إلا فكرة واحدة:

أنه... بينها وبين الشمس الغاضبة.... كان ثمة لوح رقيق من الحديد اللاذع الساخن؛ وأن بينها وبين الظلام المهلك شريطًا قصيرًا من ضوء النهار. وبدأ الوقت يتخذ خواص المساحة، كانت تقف متوازنة فى وسط الهواء، وبينا رأت مارى تيرنر تهتز فى ركن الأريكة، وتئن، وقبضتيها فى عينيها، رأت أيضًا، مارى تيرنر كما كانت، تلك الفتاة الحمقاء ترحل دون أن تعلم إلى هذه النهاية. قالت مرة أخرى لا أفهم. لا أفهم شيئا. الشر هناك، ولكن من أى شىء يتكون، لا أعرف. حتى الكلمات لم تكن كلماتها. كانت تهمهم بسبب الضغط، مرفوعة فى حالة تحكيم غامضة على نفسها، التى كانت فى نفس الوقت هى المتهم، لا تعرف إلا أنها تعانى عذابا يفوق الوصف. لأن الشر كان شيئًا تشعر به: ألم تعش معه طوال سنوات عديدة؟ كم من السنوات؟ منذ وقت طويل قبل أن تأتى إلى المزرعة! حتى تلك الفتاة قد عرفته. ولكن ماذا فعلت هى؟ وما هو؟ ماذا فعلت هى؟ لا شىء باختيار منها. خطوة بخطوة، وصلت إلى هذا، امرأة دون إرادة، تجلس على أريكة قديمة مهترئة تنبعث منها رائحة القذارة، تنتظر الليل أن يأتى وينهيها. وعن صواب - كانت تعرف هذا. ولكن لماذا؟ أى شىء ارتكبت خطيئة ضده؟ كان الصراع بين حكمها على نفسها وبين شعورها بالبراءة، وبأنها كانت مدفوعة بشىء لم تكن تفهمه - كان يكسر تكامل رؤيتها. رفعت رأسها، فى حركة مفاجئة، مفكرة فقط أن الأشجار تضغط حول البيت، تراقب، تنتظر

الليل. وفكرت أنها عندما تذهب من هنا، فسوف يدمر هذا البيت. سوف تقتله أشجار الدغل، التى كانت تكرهها دائما، ووقفت حوله دائما فى صمت، بانتظار اللحظة التى تستطيع فيها أن تتقدم وتغطيه، إلى الأبد، فلا يبقى شىء منه. كان يمكنها أن ترى البيت، خاليا، أثاثه يتعفن. فى البداية تأتى الفئران. وهى بالفعل تجرى فوق العوارض الخشبية للسقف ليلا، تجرجر أذيالها الطويلة الرفيعة وراءها. سوف تحتشد بأعداد هائلة فوق الأثاث والجدران، تقرض وتَحتُّ حتى لا يبقى شىء إلا الطوب والحديد، وتثقل الأرض بروثها. ثم تأتى الخنافس: عظيمة، سوداء، مدرعة تزحف من مرج الأشجار وتأوى إلى الشقوق بين الطوب. بعضها موجود بالفعل الآن، تعبث بلوامسها، تراقب بعيون مرسومة صغيرة. ثم سوف تأتى الأمطار. سوف ترتفع السماء وتصفو، وتورق الأشجار بأوراق كثيرة، ومتمايزة، وسوف يلمع الهواء مثل المياه.

ولكن فى الليل سوف تقرع الأمطار السقف، باستمرار وبلا نهاية، وسوف تنبثق الحشائش فى حيز الأرض الخالية حول البيت، وستتبعها الشجيرات، وبنهاية الموسم ستكون الزواحف تزحف فى الشرفة وتجذب صفائح النباتات حتى تسقط محطمة وتتحول إلى كتل متبرعمة من النماء الرطب، وسوف تنمو الجيرانيوم بجوار أشجار البلوط. وسوف يدفع أحد الأغصان ببطء ويتقدم من خلال النافذة المكسورة الزجاج، وببطء، ببطء، سوف تضغط أكتاف الأشجار

على الطوب، حتى يتقوض فى النهاية، ويتفتت، وينهار، فى دمار لا مفر منه، وتمتد ألواح الحديد الصدئة على الشجيرات، وتحته تتحرك ضفادع وديدان طويلة رفيعة كأذيال الفئران، وديدان بيضاء بدينة كحيوان الكسلان. وفى النهاية سوف يغطى الدغل الكتلة المنحسرة، ولن يكون هناك ما يبقى. سوف يبحث الناس عن البيت. وقد يأتون على درجة من درجات السلم الحجرى مستندة على جذع شجرة، ويقولون: "لابد أن هذا بيت آل تيرنر القديم. من المثير للسخرية أن الأدغال تسرع بتغطية الأشياء بمجرد تركها!" وسوف يخربشون حولهم، يدفعون نباتا بطرف حذاء، وقد يأتون على مقبض باب مغروز فى زاوية فرع، أو قطعة من الصينى المكسور وسط كتلة من الطمى. وبعد أن يسيروا أكثر قليلا، سوف يكون هناك كومة من الطمى المحمر، ملتفة بقش عفن كشعر شخص ميت، وهى كل ما بقى من كوخ الرجل الإنجليزى؛ وخلف ذلك، كومة من الطين تدل على نهاية الدكان. البيت، الدكان، حظائر الدجاج، الكوخ - كل شىء ذهب ولم يبق شىء، ونما الدغل فوق كل شىء! كان عقلها ممتلئا بأغصان خضراء ندية، وحشائش كثيفة ندية، وشجيرات منتشرة. لقد انصفق منغلقًا: وذهبت الرؤية.

رفعت رأسها ونظرت حولها. كانت جالسة فى تلك الغرفة والسقف الصفيح فوق رأسها، والعرق يتصبب على جسدها. كان المنزل لا يحتمل والنوافذ

مغلقة. جرت إلى الخارج: ما فائدة الجلوس هناك، لمجرد الانتظار، انتظار أن يفتح الباب وأن يأتى الموت؟ جرت بعيدا عن المنزل. عبر الأرض الصلبة الساخنة، حيث تلمع حبات الرمل. نحو الأشجار. الأشجار تكرهها. لكنها لا تستطيع البقاء فى البيت. دخلت بينها، شاعرة بالظل يسقط على جسدها، وسمعت الحشرات تئز فى كل مكان حولها، تصيح بصوت حاد بعناد وإصرار، وبلا توقف. سارت مباشرة داخل الدغل وهى تفكر: "سوف ألقاه، وسوف ينتهى كل شىء". تعثرت فى كتل من الحشائش الباهتة اللون، وجرفت الشجيرات ثوبها. مالت أخيرًا تستند إلى شجرة، وقد أغلقت عينيها، والضوضاء تملأ أذنيها، وبشرتها تؤلمها. هناك ظلت، منتظرة، منتظرة. لكن الضوضاء كانت لا تحتمل! لقد وقعت فى مصيدة من الأصوات الحادة. فتحت عينيها مرة أخرى. وأمامها مباشرة كانت شجيرة، جذعها الرمادى ملىء بالعقد، كما لو كانت شجرة عجوزا. لكنها لم تكن عقدًا. ثلاثة من تلك الخنافس الصغيرة القبيحة كانت جاثمة هناك، تغنى بلا انقطاع، جاهلة بوجودها، بكل شىء، عمياء عن كل شىء إلا الشمس التى تمنحها الحياة. اقتربت منها، وحدقت. مثل تلك الخنافس الصغيرة تصنع مثل تلك الضوضاء التى لا تحتمل! ولم تر إحداها من قبل أبدا. اكتشفت فجأة وهى تقف هناك، أنها طوال تلك السنين عاشت فى ذلك البيت، مع وجود مساحات شاسعة من الأدغال حولها، ولم تدخل

أبدًا بين الأشجار، لم تخرج أبدًا عن الطريق. وطوال تلك السنوات كانت تسمع متعبة طوال الأشهر الجافة الحارة، وأعصابها توخزها كالأشواك، لتلك الأصوات الحادة المرعبة، ولم تر أبدًا الخنفساء التى تصنعها. رفعت عينيها ورأت أنها تقف تحت الشمس مباشرة، والتى بدت قريبة جدا حتى أنها يمكنها أن تمد يدها وتقتلعها من كبد السماء: شمس كبيرة حمراء، يتصاعد منها الدخان. رفعت يدها إلى أعلى؛ فتلمست كتلة من الأوراق، وتحرك شىء محدثًا أزيزا عاليا. ومع أنين الرعب جرت خلال الشجيرات والحشائش، عائدة إلى الأرض الخالية من الأشجار. وهناك وقفت ساكنة، تمسك برقبتها.

كان هناك أحد الزنوج، خارج البيت. وضعت يدها على فمها لتكتم صرخة. ثم رأت أنه كان شخصا آخر، يحمل فى يده ورقة، كان يحملها كما يحمل الأهالى الذين لا يقرأون الأوراق المطبوعة: وكأنها شىء يمكن أن ينفجر فى وجوههم. ذهبت ناحيته وأخذت الورقة منه. كان فيها: "لن أعود فى فترة الغداء، مشغول جدا بترتيب الأشياء. إرسلى شاى وساندويتشات". هذا التذكير الصغير من العالم الخارجى كاد ألا تكون لديه القدرة على جعلها تتحرك. فكرت متوترة.. ها هو ديك مرة أخرى؛ حملت الورقة فى يدها عائدة إلى البيت، وفتحت النوافذ بحركة عصبية غاضبة. ماذا يعنى هذا الخادم عندما لا يحتفظ بالنوافذ مفتوحة وهى قد أمرته أن

يفعل ذلك مرات عديدة.... نظرت إلى الورقة؛ من أين جاءت؟

جلست على الأريكة، وقد أغلقت عينيها. وخلال لحظات من النوم المضطرب سمعت دقا على الباب وانتفضت قائمة؛ ثم جلست مرة أخرى، ترتعد، منتظرة أن يأتى. سمعت الدق مرة أخرى. جرّت نفسها بصعوبة وذهبت إلى الباب. بالخارج كان الزنجى ينتظر. سألته: "ماذا تريد؟" أشار، من خلال الباب، إلى الورقة فوق المنضدة. تذكرت أن ديك كان يطلب شايًا. صنعت الشاى، وملأت زجاجة ويسكى به، وأرسلت الولد به، وقد نسيت أى شىء عن السندويتشات. كانت تفكر أن الشا ب الإنجليزى قد يكون عطشانًا؛ فهو لم يتعود بعد على هذا البلد. ضايقتها العبارة، "هذا البلد"، والتى كانت نوعًا من استدعاء الوعى أكثر مما كان ديك، ضايقتها مثل ذكرى لا ترغب فى إحيائها. لكنها استمرت تفكر فى الشاب. رأته، خلف جفنين مغلقين، بوجهه الودود الصبى، غير المتميز. لقد كان طيبا معها، لم يدينها. فجأة وجدت نفسها تتمسك بالتفكير فيه. فهو سوف ينقذها! سوف تنتظر عودته. وقفت فى فتحة الباب تنظر إلى البرك الجافة الذابلة. فى مكان ما بين الأشجار، سوف يكون "هو" منتظرًا؛ فى مكان ما بين البرك، سيكون الشاب الذى جاء قبل الليل لينقذها. حدقت، تكاد لا تطرف عينيها، فى ضوء الشمس الباهر. ولكن ماذا حدث للأرض الواسعة هناك، والتى

كانت امتداداً من اللون الأحمر الباهت فى هذا الوقت من السنة؟ لقد كانت مغطاة بالشجيرات والحشائش. مزقها الهلع؛ كانت الأدغال بالفعل، وقبل أن تموت، تهزم المزرعة، ترسل طلائعها الخارجية لتغطية التربة الحمراء الطيبة بالنباتات والحشائش؛ كان الدغل يعرف أنها سوف تموت! لكن الشاب... فكرت فيه وأغلقت الباب أمام كل شىء آخر، بمواساته التى تخفف عنها وذراعه التى تحميها. استندت على جدار الشرفة، محطمة الجيرانيوم، محدقة فى المنحدرات من الأحراش والبرك بحثا عن سحابة التراب المحمر التى تدل على أن السيارة آتية. لكنهم لم يعد لديهم سيارة؛ فقد بيعت السيارة.

خارت قواها، وجلست منقطعة الأنفاس، وأغلقت عينيها. وعندما فتحتهما كان الضوء قد تغير، وكانت الظلال تمتد أمام البيت. وكان الهواء يحمل رائحة أواخر العصر، وكان ثمة بريق مسائى مالح، مترب، جرس يقرع من الضوء الأصفر يطن فى رأسها كالألم. كانت نائمة. لقد نامت طوال هذا اليوم الأخير. وربما بينما كانت نائمة جاء إلى البيت يبحث عنها؟ استوت على قدميها فى اندفاعة من الشجاعة المليئة بالتحدى. وسارت إلى الغرفة الأمامية. كانت خالية. لكنها كانت تعلم، بدون أى شك، أنه كان هنا وهى نائمة، وأنه نظر من خلال النافذة ليراها. كان باب المطبخ مفتوحا؛ وهذا دليل على ذلك. ربما كان هذا هو ما أيقظها، وجوده هنا، يحدق فيها، ربما حتى

يحاول أن يمد يده ليلمسها؟ ارتجفت منكمشة على نفسها.

لكن الشاب سوف ينقذها. وبثقة من فكرة مجيئه، والذى لا يمكن أن يكون بعيدا الآن، تركت المنزل من الباب الخلفى، وسارت نحو الكوخ. وبينما تخطو على الدرجة الحجرية الواطئة، مالت إلى الداخل البارد. أوه، كانت البرودة جميلة، جميلة على بشرتها! جلست على سريره، وأسندت رأسها على ذراعها، شاعرة بقليل من البرودة من الأرضية الأسمنتية تتسلل إلى قدميها. أخيرًا هزت نفسها قائمة، لابد ألا تنام مرة أخرى. على طول الجدار المنحنى للكوخ كان صف من الأحذية. نظرت إليها متعجبة. يا لها من أحذية جيدة، أنيقة. لم تر شيئًا مثل ذلك منذ سنوات. التقطت أحدها، وتلمست الجلد اللامع بإعجاب، وبحثت عن الماركة: "جون كرافتسمان، إدنبرة". نظرت إلى العناوين: رودس وتأثيره: رودس وروح إفريقيا: رودس والمهمة. قالت باستغراب، وبصوت مرتفع "رودس". لم تكن تعرف شيئًا عنه، إلا ما تعلمته فى المدرسة، والذى لم يكن كثيرًا. كانت تعرف أنه احتل قارة. قالت بصوت مرتفع، "احتل قارة"، وشعرت بالفخر لأنها تذكرت العبارة بعد كل هذا الوقت. "جلس رودس على دلو مقلوب بجوار حفرة فى الأرض، يحلم ببيته فى إنجلترا، وبالأراضى التى لم تحتل بعد". بدأت تضحك؛ بدا لها مضحكًا بشكل غير عادى. ثم فكرت، وقد نسيت كل شىء عن

الرجل الإنجليزى، ورودس، والكتب: "لكنى لم أذهب إلى الدكان". وكانت تعرف أنها لابد أن تذهب.

سارت على الطريق الضيق نحو الدكان. كان الطريق الآن يكاد يختفى. كان الطريق عبارة عن أخدود بين حشائش الدغل، كانت الحشائش تحت قدميها. وعلى بعد خطوات قليلة من المبنى الحجرى الواطئ، توقفت. ها هو ذا، الدكان القبيح. ها هو ذا، عند موتها، مثلما كان طوال حياتها. ولكنه فارغ؛ لو دخلت لن يكون ثمة شىء على الأرفف، وسيكون النمل هناك يصنع أنفاقًا تخرج منها الحبيبات الدقيقة على الطاولة، وستكون الجدران مغطاة بنسيج العنكبوت. لكنه لا يزال هناك. فى كراهية مفاجئة عنيفة ضربت بعنف على الباب، فانفتح متأرجحا. لا تزال رائحة الدكان معلقة بالمكان؛ غلفتها، رائحة عفنة وكثيفة. حدقت. وهناك كان، أمامها، يقف خلف الطاولة وكأنه يقوم بتقديم البضائع، موسى، الرجل الأسود، يقف هناك، ينظر إليها بنظرات كسولة، ولكن بازدراء يحمل تهديدا. ندت عنها صرخة خافتة، وتعثرت وهى تجرى خارجة، مسرعة على الطريق، تنظر إلى الخلف من فوق كتفيها. كان الباب يتأرجح، ولم يخرج خلفها. إذًا، هذا هو المكان الذى كان ينتظر فيه! كانت تعرف الآن أنها كانت تتوقع ذلك طوال الوقت. بالطبع: أين يمكن أن ينتظر سوى هنا، فى ذلك الدكان الكريه؟ عادت إلى الكوخ المغطى بالقش. وكان الشاب هناك، ينظر إليها بوجه متحير، ينحنى على الكتب التى بعثرتها

فوق الأرض، يعيدها إلى الحقيبة. لا، لا يمكنه أن ينقذها. انهارت فوق السرير، شاعرة بالغثيان واليأس. لم يكن هناك سبيل للخلاص: لا سبيل إلا أن تسير فى الطريق حتى النهاية.

وبدا لها، وهى تنظر إلى وجهه المتحير التعيس، أنها قد عاشت كل هذا من قبل. تساءلت، باحثة فى ماضيها. نعم، منذ وقت طويل، طويل، اتجهت إلى شاب آخر، شاب من مزرعة، عندما كانت فى مشاكل ولم تكن تعرف ماذا تفعل. وبدا لها أنها سوف تنقذ نفسها عندما تتزوجه. ثم، شعرت بهذا الخواء عندما عرفت أخيرًا أنه لن يكون ثمة انعتاق، وأنها سوف تعيش فى المزرعة حتى تموت. لم يكن هناك جديد حتى فى موتها؛ كان كل ذلك مألوفا، حتى شعورها باليأس.

واستوت قائمة علي قدميها بنوع من الكبرياء الغريب المصطنع، كبرياء جعل تونى غير قادر على الكلام، فالشفقة الحمائية التى كان ينوى أن يخاطبها بها بدت الآن بلا معنى.

فكرت، سوف تسير طريقها وحدها حتى النهاية. ذلك هو الدرس الذى كان ينبغى أن تتعلمه. لو كانت قد تعلمته، منذ زمن طويل، ما كانت تقف هنا الآن، بعد أن خاب أملها للمرة الثانية باعتمادها الضعيف على إنسان لا يتوقع منه أن يكون مسئولا عنه.

سأل الشاب بارتباك: "مسز تيرنر، هل كنت تريدين رؤيتى لأمر معين؟"

قالت: "كنت، لكن لا فائدة: ليس أنت....". لكنها لم تكن قادرة على مناقشة الأمر معه. ألقت نظرة من فوق كتفها إلى السماء الغاربة؛ كانت ثمة آثار سحابة متوردة معلقة هناك، عبر الزرقة الخابية. وقالت بطريقة تقليدية: "يا له من مساء جميل".

"نعم... مسز تيرنر، كنت أتحدث مع زوجك.."

قالت، بأدب: "صحيح؟"

"وقد فكرنا... لقد اقترحت أنه فى الغد، عندما تصلان إلى المدينة، قد يكون من الملائم أن تذهبى لرؤية طبيب. إنك مريضة يا مسز تيرنر".

قالت بلهجة حادة: "لقد كنت مريضة منذ سنوات. بالداخل، فى مكان ما. بالداخل. ليس 'مريضة.' إنك تفهم. كل شىء خطأ، فى مكان ما". وأومأت إليه، وخطت فوق العتبة. ثم التفتت إلى الخلف. وهمست وكأنها تهمس بسر: "إنه هناك. بالداخل هناك". وأشارت ناحية الدكان.

سأل الشاب كنوع من الواجب، محاولا إضحاكها: "أهو كذلك؟"

عادت إلى البيت، وهى تنظر حولها بغموض، إلى المبانى المبنية بالطوب التى سوف تختفى سريعًا. هنا حيث تسير، والرمل الدافئ للممر تحت قدميها، سوف تسير حيوانات صغيرة بفرحة بين الأشجار والحشائش.

دخلت البيت، وواجهت اليقظة الطويلة لموتها. عامدة وبكبرياء ساخر جلست على الأريكة القديمة التى اتخذت شكل جسدها، وطوت يديها وانتظرت، ناظرة إلى النوافذ بانتظار الضوء أن يخبو. لكن بعد قليل اكتشفت أن ديك كان جالسا إلى المنضدة تحت ضوء المصباح، يحدق فيها.

سألها: "هل انتهيت من حزم أمتعتك؟ تعلمين أننا سوف نذهب فى صباح الغد".

بدأت تضحك. "الغد!" انفجرت فى الضحك؛ حتى رأته يقوم، فجأة، ويخرج، وقد غطى وجهه بيديه. هذا طيب، والآن هى وحدها.

ولكن فيما بعد، راقبت الرجلان يحملان أطباقا وطعاما، وبدآ يأكلان، وهما جالسين أمامها. قدما لها كوبا من سائل رفضته بنفاد صبر، بانتظار أن يذهبا. كل شىء سينتهى سريعًا؛ سريعًا، فى خلال ساعات قليلة سينتهى كل شىء. لكنهما لم يذهبا. لقد بدا أنهما يجلسان هناك بسببها. خرجت من المكان، دون أن تنظر، تتحسس بيديها حافة الباب. لم تكن الحرارة قد خفت؛ السماء الخفية القاتمة تنحنى على البيت، وتثقل عليه. وخلفها سمعت ديك يقول شيئا عن المطر. قالت لنفسها: "سوف تمطر، بعد أن أموت".

وأخيرا، سأل ديك وهو واقف عند فتحة الباب: "هل ستنامين؟"

بدا السؤال لا علاقة له بها؛ كانت تقف فى الشرفة، حيث كانت تعلم أنه ينبغى عليها الانتظار، تراقب أى حركة فى الظلام.

"تعالى إلى السرير يا مارى!" رأت أنها قبل كل شىء ينبغى أن تذهب إلى السرير، لأنهما لن يتركاها وحدها حتى تفعل. وبشكل آلى، خفضت إضاءة المصباح فى الغرفة الأمامية، وذهبت لتغلق الباب الخلفى. وبدا لها من الضرورى أن تغلق الباب الخلفى؛ شعرت أنها ينبغى أن تحظى بحماية من الخلف؛ الضربة قد تأتى من الأمام. خارج الباب الخلفى وقف موسى، يواجهها. بدا أنه مرسوم فى النجوم. خطت إلى الخلف، وقد خارت ركبتاها، وأغلقت الباب.

وقالت لديك وهى منقطعة النفاس: "إنه بالخارج"، وكأن ذلك كان متوقعا.

"من بالخارج؟"

لم تجب. ذهب ديك إلى الخارج. سمعته يتحرك، ورأت الضوء المتأرجح لمصباح الريح الذى يحمله. عندما عاد قال لها: "لا شىء هناك، يا مارى". أومأت، فى تأكيد، وذهبت مرة أخرى لتوصد الباب الخلفى. والآن كان الشكل المستطيل لليل خاويا، موسى ليس هناك. فكرت أنه ربما ذهب إلى الدغل، أمام البيت، لكى ينتظر حتى تظهر. وعندما عادت إلى غرفة النوم وقفت فى وسط الأرض. ربما نسيت كيف تتحرك.

سأل ديك أخيرا: "ألن تخلعى ثيابك؟"، بذلك الصوت الصبور اليائس.

خلعت ثيابها مطيعة، ودلفت إلى الفراش، ورقدت متيقظة تماما، تتسمع. شعرت به يضع يده ليلمسها،

وفى الحال تجمدت. لكنه كان بعيدًا تمامًا، لم يكن يمثل أهمية بالنسبة لها: لقد كان أشبه بشخص آخر على الناحية الأخرى من جدار زجاجى سميك.

قال: "مارى؟"

ظلت صامتة.

"مارى، استمعى لى. إنك مريضة. لابد أن آخذك إلى الطبيب".

وبدا لها أن الشاب الإنجليزى يتكلم، لقد نبع منه هذا الاهتمام بها، هذا الاعتقاد فى براءتها الجوهرية، هذا الخلاص من الذنب.

قالت، بثقة، تحدث الرجل الإنجليزى: "بالطبع، أنا مريضة. لقد كنت دائما مريضة، منذ زمن طويل، أنا مريضة هنا". وأشارت إلى صدرها، وجلست قائمة فى السرير. لكن يدها سقطت، نسيت الرجل الإنجليزى، بدا صوت ديك فى أذنيها كصدى صوت يأتى عبر الوادى. كانت تسمع إلى الليل بالخارج. وببطء، غرقت فى الرعب الذى كانت تعلم أنه لابد أن يأتى. بمجرد أن ترقد، وتحول وجهها إلى ظلام الوسائد؛ لكن عينيها كانتا متيقظتان وينبعث فيهما الضوء، وأمام الضوء رأت هيكلا قاتما ينتظر. جلست مرة أخرى، تهمهم. كان فى الغرفة، بجوارها تمامًا! لكن الغرفة كانت خالية. لم يكن هناك شىء. سمعت دوى الرعد، ورأت، كما حدث فى مرات كثيرة، البرق يومض على جدار فى الظل. والآن بدا وكأن الليل يغلق

عليها، وأن البيت الصغير يميل فوقها كشمعة تذوب فى الحرارة. سمعت الطقطقة، طقطقة؛ الحركة التى لا تهدأ للحديد فوقها، وبدا لها أن جسدا أسود هائلا، مثل الرجل العنكبوت، يزحف فوق السقف، محاولا الدخول. كانت وحدها، كانت بلا دفاع. كانت محبوسة فى صندوق أسود صغير، الجدران تغلق عليها، والسقف يضغط فوقها. كانت فى مصيدة، محبوسة وبلا أمل. لكنها لابد أن تذهب إلى الخارج وتلقاه. وبدافع الخوف، ولكن أيضا لأنها تعرف، قامت من السرير، دون أن تصدر صوتا. وبالتدريج، تكاد لا تتحرك، أنزلت ساقيها من فوق الحافة المظلمة للسرير؛ ثم، فجأة، خوفا من الثغرات المظلمة فى الأرض، جرت إلى وسط الغرفة. ثم توقفت هناك. وساقتها حركة من البرق على الجدران إلى الحركة مرة أخرى. وقفت بين طيات الستارة، تشعر على بشرتها بوبر القماش الذى بدا أشبه بملمس جلود الحيوانات. هزت الستائر ووقفت مستعدة للإقلاع عبر الظلام فى الغرفة الأمامية، والتى كانت مليئة بالأشكال الخطرة. ومرة أخرى، فرو الحيوانات؛ ولكن هذه المرة تشعر به فى قدميها. مخلب طويل لقط برى اشتبك بقدمها وهى تمر عليه، فندت عنها صيحة حادة خافتة من الخوف، ونظرت من فوق كتفها إلى باب المطبخ. كان موصدا ومظلما. كانت فى الشرفة، تحركت إلى الخلف حتى أصبحت مستندة إلى الجدار. هذا الجدار حماية؛ كانت تقف حيث ينبغى

أن تكون، كما كانت تعلم أنها ينبغى أن تنتظر. كان ذلك يشعرها بالاستقرار. غمامة الرعب انقشعت من عينيها، واستطاعت أن ترى، والبرق يومض، أن كلبى المزرعة كانا راقدين وقد رفعا رأسيهما، ينظران إليها، فى الشرفة. لا شىء يمكن رؤيته خلف الأعمدة النحيفة، والخطوط الصلبة لنباتات الجيرانيوم، حتى يومض البرق مرة أخرى، عندما تظهر الأكتاف المزدحمة للأشجار وخلفها السماء المحملة بالسحب. فكرت وهى تشاهد أنها تحركت مقتربة؛ واستندت بظهرها تضغط على الجدار بكل قوتها، لكى تشعر بالطوب الخشن يخترق ثوب نومها ويصل إلى لحمها. هزت رأسها لتصفو، ووقفت الأشجار ساكنة وانتظرت. وبدا لها أنه طالما استطاعت أن تركز انتباهها على الأشجار لا يمكنها أن تزحف نحوها. كانت تعرف أنها ينبغى أن تحتفظ بعقلها مركزا على ثلاثة أشياء: الأشجار، لكى لا تندفع عليها وهى لا تنتبه؛ والباب، على ناحيتها حيث قد يأتى ديك؛ والبرق الذى يجرى ويرقص، يضىء المساحات العاصفة الممتدة من السحب. استقرت قدميها بحزم على الحجر الخشن الفاتر للأرضية، وظهرها إلى الجدار، وجثمت، وحدقت، كل حواسها ممتدة، تتنفس بصعوبة فى شهقات قصيرة.

ثم، بينما سمعت الرعد يزمجر ويهز الأشجار، أضاءت السماء، ورأت شكل رجل يتحرك من الظلام ويأتى فى اتجاهها، ينسل فى صمت على الدرجات،

بينما وقف الكلبان منتبهان يراقبان، يهزان ذيليهما مرحبان. وعلى بعد ياردتين وقف موسى. استطاعت أن ترى كتفيه الكبيرين، شكل رأسه، التماع عينيه. ولدى رؤيته، تغيرت مشاعرها بشكل غير متوقع، لتخلق فى نفسها شعورا غير عادى بالذنب؛ ولكن نحوه، هذا الذى لم تكن وفية له، وبناء على تشجيع الرجل الإنجليزى. شعرت أن ما عليها سوى أن تتقدم إلى الأمام، أن تشرح، أن ترجو، وسوف يذوب الرعب. فتحت فمها لتتكلم؛ وبينما فعلت ذلك، رأت يده، التى كانت تحمل شيئًا مقوس الشكل، مرفوعًا فوق رأسه؛ وعرفت أن ذلك سيكون متأخرا جدا. كل ماضيها مر منزلقا، وندت عن فمها، الذى كان مفتوحا فى رجاء، بداية صرخة، وتوقفت بحركة يد سوداء انزلقت بين فكيها. لكن الصرخة استمرت، فى بطنها، تخنقها؛ ورفعت يديها، على شكل كلابتين، لتدفعه بعيدا عنها. ثم انتقمت الأدغال لنفسها؛ كان هذا هو آخر ما فكرت فيه. تقدمت الأشجار مندفعة، كالوحوش، وانفجر الرعب معلنا ضجة قدومها. وبينما استسلم العقل أخيرا، وقد انهار فى دمار الرعب، رأت، فوق الذراع الكبير الذى كان يدفع رأسها إلى الحائط، الذراع الآخر ينزل. تداعت ساقاها تحتها، وقفز البرق من الظلام، وانقض فوق الصلب المقتحم لجسدها.

موسى، وهو يتركها، رآها تقع على الأرض. صوت قارع ثابت على الحديد فوقها أعاد إليه إحساسه بما يحيط به، وبدأ، وهو يلتفت برأسه هذه الناحية وتلك،

يفرد جسده. كان الكلبان يهران عند قدميه، لكنهما لا يزالان يهزان ذيليهما: هذا الرجل كان يطعمهما ويعتنى بهما؛ أما مارى فكانت تكرههما. أبعدهما موسى عنه برقة، ويده المفتوحة على وجهيهما؛ ووقفا يراقبانه، متحيران ويهمهمان بنعومة.

كانت قد بدأت تمطر؛ سقطت قطرات كبيرة على ظهر موسى، فشعر ببرودة شديدة. وسقطت قطرات أخرى لتصدر صوتًا جعله ينظر إلى قطعة المعدن التى يحملها، والتى وجدها فى الدغل، وقضى اليوم يجلوها ويسنها. تساقط الدم منها على الأرض الحجرية. وظهر تناقض غريب فى حركاته التالية. فى البداية ألقى السلاح بحدة على الأرض، وكأنما فى خوف؛ ثم تماسك والتقطه، وحمله عبر سور الشرفة ووضعه ليغسله تحت الأمطار المتساقطة، وفى لحظات سحبه. والآن كان مترددًا، ينظر حوله. علق الأداة المعدنية فى حزامه، ووضع يديه تحت المطر، ثم، بعد أن غسلهما، بدأ يسير تحت المطر إلى كوخه فى المجمع، مستعدًا لإظهار براءته. هذا الغرض أيضًا مضى. جذب السلاح، ونظر إليه، وببساطة ألقاه إلى جوار مارى، وقد شعر بلامبالاة مفاجئة، فقد استولت عليه رغبة جديدة.

متجاهلا ديك، الذى كان نائما على مبعدة جدار واحد، ولكن كان بلا أهمية، حيث أنه كان قد انهزم منذ زمن طويل، قفز موسى فوق سور الشرفة، لينزل على قدميه خائضا فى الوحل الذى صنعته الأمطار،

والتى سالت على كتفيه لتغرقه فى لحظة. تحرك نحو كوخ الرجل الإنجليزى فى الظلام السائد، والمياه تقطر من كوعبيه. عند الباب استرق النظر إلى الداخل. كان من المستحيل أن يرى شيئًا، لكنه كان يمكن أن يسمع. راح يتسمع كاتما أنفاسه وسط سقوط الأمطار لتنفس الرجل الإنجليزى. لكنه لم يستطع أن يسمع شيئًا. انحنى داخلا من الباب، وسار بهدوء إلى جوار السرير. كان عدوه، الذى استطاع الآن أن يتفوق عليه، نائما. استدار البلدى بازدراء وسار عائدًا إلى البيت. وبدا أنه كان ينوى أن يعبره، ولكن عندما وصل عند الشرفة توقف، وأراح يده على الجدار، ونظر من فوقه. كان الظلام دامسًا، ولم يكن يستطيع الرؤية. انتظر حتى يضيئ وميض البرق، لآخر مرة، البيت الصغير، والشرفة، والجسد الجاثم لمارى على الأرض الحجرية، والكلبين اللذين كانا يتحركان بقلق حولها، ولا يزالان يعويان برقة، ولكن بارتياب. وجاءت: جرعة مطولة من البرق، مثل فجر ندى. وكانت هذه هى لحظة الانتصار الأخيرة، لحظة مكتملة وبارعة حتى أنها أخذت منه أفكاره بضرورة الهرب، تاركة إياه فى حالة من اللامبالاة. عندما عاد الظلام، رفع يده من فوق الجدار، وسار ببطء تحت المطر نحو الدغل. ماذا دار بداخله؟ أية أفكار عن الندم، أو الشفقة، أو ربما حتى عواطف إنسان جريح، مجتمعة مع الشعور بالرضا من انتقامه الكامل - من المستحيل أن نعرف. فعندما ذهب ربما لحوالى مائة ياردة داخل الأدغال

الغارقة فى مياه المطر، توقف، واستدار، واستند على شجرة فوق كومة من أكوام النمل. وهناك سيظل منتظرا حتى يأتى مطاردوه، بدورهم، وسيجدونه.

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «انتير».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية «نجوى شعبان»، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١ـ «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى ـ «إيتالوكالفينو» رواية ـ عدد خاص ـ جائزة «فياريچيو».

١٢ـ القلعة البيضاء ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٣ ـ أين تذهب طيور المحيط ـ للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد» ـ أدب رحلات ـ «جائزة التفوق».

١٤ ـ قرية ظالمة ـ للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» ـ عدد خاص ـ «جائزة الدولة للأدب».

١٥ ـ الرجل البطىء ـ للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كويتسى» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٦ ـ طحالب ـ للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» ـ متتالية قصصية ـ «جائزة كين».

١٧ ـ شوشا ـ للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٨ ـ شارع ميجل ـ للكاتب من ترينداد ـ «ف. س. نايبول» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٩ ـ الحياة الجديدة ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة ـ للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» ـ مسرح ـ «جائزة نوبل».

٢١ ـ الآخر مثلى – للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» – رواية – «جائزة نوبل».

٢٢ ـ المستبعدون ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٣ ـ الأنثى كنوع ـ للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» ـ قصص ـ جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى ـ للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» ـ رواية ـ جائزة الجونكور.

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات جائزة «چورچ بوشنر الكبرى».

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلّو.. للكاتب الجنوب إفريقى ج. م. كوتسى .. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية بريچيته كروناور .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية أمبارو دابيللا.. قصص.. جائزة بيربياروبيا.

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل للآداب.

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. جائزة الأورانچ.

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي ج. م. كويتسى.. رواية.. جائزة نوبل.

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى إيريك فوتورينو.. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. جائزة نادال.

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية جويس كارول أوتس.. رواية.. جائزة الفيمينا.

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ ـ الطفل الخامس.. دوريس ليسنج. جائزة نوبل ٢٠٠٧.

٢ ـ العالم.. خوان خوسيه مياس .. جائزة بلانيتا ٢٠٠٧.

٣ ـ ميراث الخسارة.. كيران ديساى.. جائزة البوكر ٢٠٠٦.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

الرواية

فى حيثيات فوز "دوريس ليسنج" بجائزة نوبل. وصفت الأكاديمية السويدية المؤلفة البريطانية بأنها شاعرة ملحمية للتجربة النسائية أمعنت النظر فى حضارة منقسمة. مستخدمة الشك والبصيرة النافذة والتوقد.

ولكن فى "العشب يغنى" وهى أولى رواياتها تتناول "دوريس ليسنج" السياسات العنصرية بين البيض والسود فى إحدى المستعمرات البريطانية وتدور أحداثها إبان الحرب العالمية الثانية فى ذلك الوقت الذى بدأت ترتفع فيه الأصوات مدافعة عن الكرامة الإنسانية ومطالبة بأهمية إلغاء التميز العنصرى وضرورة الاعتراف بوهم تميز الجنس الأبيض على الجنس الأسود.

ولذا نجحت الرواية فور صدورها نجاحاً مدوياً.

وعنوان الرواية "العشب يغنى" مقتبس من أحد أبيات الشاعر الأمريكى ت. س. إليوت (الأرض الخراب) حيث يواصل النماء غناءه رغم قدرة الإنسان على إحداث الدمار والخراب والفتك والقتل بكل أنواعه. وكأن "دوريس ليسنج" تتساءل هنا بدورها: أما كان على البيض أن يكفوا عن غرورهم وأن يقيموا علاقة طيبة مع أهالى البلد الزنوج لكى تزدهر المزرعة.. لكى يغنى العشب!

الروائية: دوريس ليسنج كاتبة إنجليزية
الجائزة: جائزة نوبل للآداب عام ٢٠٠٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٩ جنيهات
ISBN# 9789774207893
6 221149 012622